مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ النِّسَاءِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة النساء

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة

سورة النساء

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ ﴾

افْتُتِحَت سورة النساء بنداء الله تعالى لجميع خلقه من الناس، فقا تبارك وتعالى لعباده ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيستدعي أسلوب النداء الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب، مما يدل على أهمية ما ناداهم إليه تبارك وتعالى من البيان والانذار، وما يجب عليهم من الانتباه له بعناية واهتمام، وأخذه بكمال تعقل أولي الألباب. فكان الْمُنَادَى لَهُ هو تقوى الله تعالى، إذ قال عَزَّ جل ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ أمر يقتضي الوجوب. إنه الأمر بتقواه عَزَّ وجل، الذي يتضمن الخشية والخوف منه، والعمل بطاعته، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وذلك بعلم ورغبة ورهبة ومحبة له تبارك وتعالى، حيث ارتبطت التقوى بربوبيته ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ فهو ربكم، إذ أن لفظة ﴿ رَبَّكُمُ ﴾ تُقَرِّر للناس ربوبيته سبحانه وتعالى، قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: قال: احذروا أيها الناس ربكم في أن تخالفوه فيما أمركم، أو في ما نهاكم، فيحل بكم من عقوبته ما لا قبل لكم به[١] فهو بيان يقتضي التحذير.

والرب هو المربي جميع العالمين، فهو الذي رباكم بالنعم وبما ترونه من ملكوته الدال على ألوهيته، وعظيم سلطانه سبحانه وتعالى، حيث عرفكم أيها الناس بمنشئكم ونشأتكم، فوجهكم جَلَّ

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/٣٣٩)

جلاله إلى آية وجودكم العظيمة ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وهو آدم عليه السلام، ولفظ النفس يؤنث وإن عني به مذكر[١] ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ وهي حواء عليها السلام، خُلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم، فاستيقظ فرآها فأعجبته، فأنس إليها، وأنست إليه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: خُلقت المرأة من الرجل، فجعلت نهمتها في الرجل، وخُلق من الأرض، فَجُعِلَت نهمته في الأرض [٢] وفي عظمة هذا الإنشاء من نفس واحدة ما يدل على القدرة العظيمة للخالق سبحانه وتعالى، مما يوجب تقواه، لأن من قَدُرَ على هذا الإنشاء قادرٌ على كل شيء، فقدرته مطلقة، بلا حدود ولا كيفية. مما يدل على كمال قدرته على البعث بعد الموت، والحساب والجزاء يوم القيامة، وأن النار حق، والجنة حق لا ريب فيه ولا شك.

ثم يبين الله تعالى المزيد من عظيم قدرته في خلق الإنسان ﴿وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ﴾ فنشر وَفَرَّقَ سبحانه وتعالى من ذرية آدم وحواء الكثير من الرجال والنساء في الأرض. كما أن في وصفهم بالكثرة ما يدل على كثرة العدد وسعة البث والانتشار في أقطار الأرض وأنحائها. وفي بثهم ونشرهم في الأرض آية عظيمة، إذ توضح وتبين قدرة الله تعالى في نشر جنس هذا الإنسان على كوكب الأرض مع بُعد المسافات وكثرة الفيافي والغفار والوحوش، وما يتطلب من عبور البحار والأنهار. فإن الذي خلق هذا الإنسان ونشره أحق بالتقوى والعبادة، لأنه الربَّ الخالق جَلَّ جلاله.

ومن الفوائد البيانية، ما ذكره الإمام الشوكاني عن دلالة ﴿كَثِيرٗا﴾ أنه وصف مؤكد لما تفيده صيغة الجمع، لكونها من جموع الكثرة. وقوله ﴿وَنِسَآءٗ﴾ أي كثيرة، وترك التصريح به استغناء بالوصف الأول[٣] فهذا البث والنشر من الرجال والنساء قد بلغ الكثرة في العدد، وبلغ كذلك السعة في الانتشار، فجمعت بين دلالة الكثرة ودلالة الانتشار.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣/٥)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٥٨/١)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (٤١٨/١)

ثم يتكرر الأمر من الله تعالى بالتقوى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ وهذا التكرار يدل على التأكيد والأهمية، والمزيد من التنبيه، بما يفيد أهمية شأن التقوى، وأن أمرها جليل عظيم، وخيرها وفير كبير، وفقدها خسران مبين. كما أن مصرف التقوى يكون محصور لله تعالى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فاجعلوا تقواكم خالصة لله ربكم سبحانه وتعالى. ثم لفت الانتباه إليه عَزَّ وجل مرة أخرى، بشأن ووجه آخر من البيان ومن الدلائل، فقال تعالى ﴿ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ أي: الذي تتعاقدون وتتعاهدون به، وكذلك الذي تطلبون حقوقكم بينكم به، كأن يقول أحدهم للآخر: اسألك بالله. وكذلك الذي تتعاطفون به، فيعطف بعظكم على بعض[١] فلفت تبارك وتعالى انتباه عباده إلى هذا الأمر الذي يرجعون فيه إليه عَزَّ وجل.

ثم بين تبارك وتعالى عظيم صلة الرحم، حيث قرنها الحق جَلَّ جلاله بنفسه ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ فاتقوا الله أن تعصوه، واتقوى الأرحام أن تقطعوها. مما يدل على عظيم أمر صلة الرحم، وبما يفيد اتقاء قطيعة الأرحام، وأنه يجب برها وصلتها. والرحم اسم لكافة الأقارب، من غير فرق بين المحرم وغيره[٢]

ثم بعد هذا البيان الرباني بتلك الحقائق الداعية إلى تقواه، وصلة الأرحام، يبين تبارك وتعالى ما يحفز ويثير عند العبد الطاعة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ فهو الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء، فهو المحصي عليكم أعمالك، متفقداً رعايتكم أرحامكم، وصلتكم إياها، أو قطعكم لها، وتضييعكم حرمتها[٣] وهذا يفيد أن العلم بصفة الله تعالى وعلمه وحفظه لأعمال الخلق، وقدرته الدقيقة في ذلك، أنها داعية إلى تقواه، والعمل بمقتضى أمره سبحانه وتعالى.

(١) ذكر هذه المعاني الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٤٤/٦) وغيره.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧/٥)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٥٠/٦)

كما أن ترتيب التوجيه في الآية الكريمة يفيد أهمية المنهجية العلمية في البيان والتعليم، وإيضاح علل التوجيه، وموجبات الأخذ به، حيث جاء الأمر بالتقوى، ثم الإعلام بما يوجب تحقيق التقوى، من قدرة الخالق عَزَّ وجل في إنشائه نشأة بني آدم، وبثه لهم في الأرض، ثم تأكيد التقوى بالتكرار لها، واقتران ما يجب من صلة الأرحام بنفسه عَزَّ وجل، ثم بيان صفة علمه وقدرته سبحانه وتعالى من الإحاطة والحفظ لأعمال العباد.

ومن جليل الفوائد: العلاقة بين دلالة هذه الآية الكريمة وبين جميع آيات هذه السورة المباركة، إذ جاء الأمر في هذه الآية التي هي مطلع السورة وافتتاحيتها بلزوم تقوى الله تعالى، وما تضمنته من بيان عظيم خلقه في نشأتهم. ليبين لهم أن هناك مهام وواجبات عظيمة يلزم للقيام بها وجود التقوى، فتقواه سبحانه وتعالى ركيزة في امتثال مضامين هذه السورة، لما تضمنته من أحكام اليتامى والتعامل معهم في أنفسهم وأموالهم، وفي المواريث وقسمتها، وفي أمر النكاح، وما يحرم منه وما يجوز، وأمر الشرك، وأداء الأمانات، وغيرها من الأحكام التي تتطلب التقوى التي يجاهد بها المسلم نفسه للالتزام بما تضمنته السورة الكريمة المباركة. كما يفيد هذا أهمية افتتاح المواعظ والخُطَب بالحث على تقوى الله تعالى، لأنها تبعث في النفس الخوف والرجاء والرغبة في طاعة الله تعالى.

﴿ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ ﴾

ثم انتقل لسياق القرآني الكريم لأمر اليتيم في حقوقه المالية، فابتدأ التوجيه العظيم بلفظ

الأمر الذي يُوجِب إعطاء الأيتام أموالهم ﴿ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ واليتيم هو من فقد أباه، ولم يبلغ الحلم، والإعطاء لهم يكون بعد تجاوزهم مرحلة الْيُتْم، وذلك ببلوغ الحلم، وإيناس الرشد، وقد جاء التوجيه الكريم في تسميتهم باليتامى على ما كانوا عليه من الاسم والوصف، باعتبارها الصفة التي ارتبطت بهم. فاسْتُصْحِب اسم الوصف للدلالة عليهم، وإلا، لا يُتْم مع البلوغ. قال الإمام القرطبي

رحمه الله تعالى: وأراد سبحانه وتعالى باليتامى الذين كانوا أيتاما، كقوله تعالى ﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ ولا سحر مع السجود، وكذلك لا يُتْمَ مع البلوغ[١] مما يفيد جواز استصحاب الاسم، بوصف الموصوف بالصفة السابقة، إذا كان الأمر متعلق بحالها، أي بحال الصفة، وكونه عُرف بها، وأن الأمر متعلق بحالته التي كان عليها قبل تجرده منها، فهو موصوف بها حال التغيير. كما أن في استصحاب اسم اليتامى، ما يستدعي استرقاق القلب إلى ما كانوا عليه من اليتم الذي يستدفع الوصي نحو الرأفة بهم وحُسن التخلق معهم في دفع مالهم إليهم.

وفي هذا ما يبين عناية التشريع الإسلامي باليتيم ورعايته في كفالته وحقوقه المالية، فيجب على الوصي أو الكافل لليتيم أن يعيد أموال اليتيم إليه حال تحقق موجب الإعادة. ثم من دقة تشريع الله تعالى أنه نهى عن الاستبدال الظالم لأموالهم ﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ﴾ كأخذ الجيد من مال اليتيم وإعطائه الرديء بدلاً منه. أو أكل مال اليتيم بدلاً من أكل أموالهم، ومن بلاغة القرآن الكريم أنه لم يحدد طريقة ونوع الاستبدال، لتستوعب جميع أنواع وأوجه الاستبدال الظالم، ولم يحدد نوع ومقدار وشكل الخبيث، لتستوعب جميع الخبيث: صنفاً وقدراً ونوعاً وعدداً، وغير ذلك من التصنيف. وهذا من الإعجاز البلاغي في القرآن العظيم.

ثم ينهى تبارك وتعالى أوصياء أو كفلاء الأيتام عن نوعٍ آخر من الإجحاف في أموالهم ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ أي فلا تخلطوا أموال اليتامى مع أموالكم فتأكلوها مع أموالكم ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: إثماً عظيماً[٢] فإن علة النهي عن الخلط بسبب ما يلحق مال اليتم من الضرر والغُبْن، وإلا جاء الحث على المخالطة في حال حفظها وإنمائها، كما في سورة البقرة ﴿ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾ فأباح مخالطة اليتامى في الطعام وفي الأموال، وفي غيرها مما تتحقق به مصلحتهم، وترتفع به المشقة. وعزا تبارك وتعالى ذلك الاجتهاد في الإصلاح إلى صفة وحال الأخوة.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧/٥)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/٣٥٧)

ومن الفوائد أن الإيضاح للتعدي على أموال اليتيم جاء من خلال صورة الأكل، وإلا قد تُصرف في غير الأكل، لأن الأكل أقبح صور الأخذ، ولأن أخذها بمثابة تآكلها، وبالنسبة لآخذها فهو آكل لها على أي وجه من أوجه التعدي عليها. ومن الفوائد كذلك احترازات المنهج التشريعي لكل ما يمكن أن يقع أو وقع فيما سبق قبل نزول القرآن الكريم، وهذه دقة بيانية وتنظيمية وتشريعية، تُعطي وتربي عقلية المسلم على التحرز والتعفف وحُسن الأداء والتفكير في العلل والمقاصد. وكذلك من الفوائد استخدام الألفاظ المعبرة تعبيراً دقيقا عن المراد، والمستوعبة لها استيعاباً شاملاً، بحيث لا يضيق اللفظ عن مراد الآية، بل يتسع لمرادها بكل الأوجه المقصودة. كما أن من فوائد سياق التوجيه الكريم ما يُعَلِّم المؤمن كيف يضع الضوابط ويحرر الأنظمة، ويضع لها التحرز اللازم من الاحتمالات المتوقعة. وفي ذلك تفتيح للذهن وتربيته على الفطنة والتركيز والانتباه.

ثم جاء التحذير من أكل أموال اليتامى، من خلال وصف مغبة الفعل، وأثر حاله على آكله، بأنه إثمٌ عظيمٌ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ وفي هذا الوصف من أنه إثم كبير ما يعزز قيمة النهي، واستعظام العقوبة المترتبة على أي واحدٍ من الفعلين، وهما: الاستبدال، أو الأكل، فالفعل الأول: هو الاستبدال ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ والفعل الثاني: هو الأكل ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ كما أن في هذا تأكيد على النهي بما يترتب عليه من الإثم العظيم، مما يلزم وجوب الاجتناب لما نهى عنه تبارك وتعالى.

ومن الفوائد البلاغية: ما جاء في حاشية كتاب الكشاف للزمخشري، قال محمود: ... أبلغ الكلام ما تعددت وجوه إفادته، ولا شك أن النهي عن الأدنى وإن أفاد النهي عن الأعلى إلا أن للنهي عن الأعلى أيضاً فائدة أخرى جليلة، لا تُؤخذ من النهي عن الأدنى، وذلك أن المنهي كلما كان أقبح كانت النفس عنه أنفر والداعية إليه أبعد، ولا شك أن المستقر في النفوس أن أكل مال اليتيم مع الغنى عنه أقبح صورة الأكل، وخصص بالنهي تشنيعاً على من يقع فيه، حتى إذا استحكم نفوره من أكل ماله على هذه الصورة الشنعاء، دعاه ذلك إلى الإحجام عن أكل ماله مطلقاً. ففيه تدريب للمخاطب على النفور من المحارم، ولا تكاد هذه الفائدة تحصل لو خُصص النهي بأكله مع

الفقر، إذ ليست الطباع في هذه الصورة معينة على الاجتناب كإعانتها عليه في الصورة الأولى. ويحقق مراعاة هذا المعنى تخصيصه الأَكل، مع أن تناول مال اليتيم على أي وجه كان منهي عنه[١]

ثم تناول تشريع الله تبارك وتعالى ما يخص اليتيمة ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ أي: إذا كان تحت حِجْرِ أحدكم يتيمة، وخاف أن لا يعطيها مهر مثلها، فليعدل إلى ما سواها من النساء[٢] وقد سأل عروة ابن الزبير أم المؤمنين عائشة رضي الله عنهم عن قوله تعالى ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ قالت: يا ابن أختي: هي اليتيمة تكون في حجر وليها، تشاركه في ماله. فيعجبه مالها وجمالها. فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها، فيعطيها مثل ما يعطي غيره، فَنُهُوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا بهن أعلى سُنَّتِهِن من الصداق. وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء، سواهن[٣] فإن خفتم أن لا تعدلوا في صداق اليتيمة فعليكم بغيرهن من النساء اللاتي يرضين بما تعطونهن من الصداق. وفي هذا حفظ لحق اليتيمة، بأن لا تُبخس حقها بسبب يتمها وولاية غيرها عليها.

وفي قوله تعالى ﴿ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ ما يدل على الكثرة منهن، بما أتاح لكم مساحة الاختيار، فليس الأمر محصور في اليتيمة. وفي هذا حفظ تمام وكمال حق مهر اليتيمة، فلا يكون يُتْمُهَا وسيلة لبخس حقها في المهر. بل مساحة الزواج كافية بشمولها لمن شئتم من النساء من غير اليتيمة، فإن أراد الزواج باثنتين، أو ثلاث، وإن شاء أربع ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٤٧٧/١)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٦٠/١)

(٣) مسلم (٢٣١٣/٤-٢٣١٤) برقم (٣٠١٨)

ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ وهذه التوسعة والسعة كرم وفضل من الله تعالى، إذ أباح للرجل التعدد والاختيار، لأن في ذلك حفظ للرجل، وحفظ للنساء بالتحصين، وفيه كذلك تكثير النسل.

ثم لأهمية العدل بين الزوجات أرشد تبارك وتعالى إلى الاكتفاء بالواحدة حال الخوف من عدم العدل، وأن يحصل الجور والحيف، بل جعله شرطاً للتعدد. فقال عَزَّ وجل ﴿ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ ﴾ فإن خشيتم ألا يتحقق العدل بينكم، فاقتنعوا بواحدة خير لكم من الوقوع في الجور بعدم العدل، ثم يحصل لكم الوقوع في الإثم. وقد أفادت دلالة ﴿ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ ﴾ أهمية التحرز من الوقوع في الإثم. مما يبين أهمية الحذر من مواقع الإثم، وهو من كل ما يترتب عليه عقوبة من الله تعالى.

بل يتم استيفاء مساحة الاكتفاء بالعدول إلى الجواري التي امتلكتم الحق فيهن، وهذا أفضل من الْجَوْر وعدم العدل ﴿ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴾ وهذا أفضل لكم من الجور، وأقرب من الميل للرجل عن الحق، وأدنى أن لا يحصل الظلم، بعدم العدل بين الزوجات. مما يفيد وجوب العدل، وكذلك العدول عمَّا يجر إلى الحيف والجور والظلم، كما يفيد هذا عناية شريعة الله تعالى بحفظ الحقوق، وضبط السلوك، وتحقيق العدل، وحفظ حقوق النساء بما أوجبه على الرجال، وألزمهم به.

ثم يستمر التوجيه والتعليم الرباني للأمة فيما يتعلق بحق النساء في المهر ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴾ فيأمر الله تبارك وتعالى الخاطب والطالب للمرأة أن يعطيها صداقها ﴿ نِحۡلَةٗ ﴾ أي عن طيب نفس من غير تنازع، وقيل

فريضة واجبة، وفريضة مسمَّاة معلومة غير مجهولة، وقيل أي: تديناً. وقيل أن معنى ﴿نِحۡلَةٗ﴾ أي عطية من الله تعالى للمرأة[١] ففرض الله تعالى لها المهر.

والمتأمل في جميع تلك الدلالات يجد أنها تستوعب جميع ما يحيط بهذا المهر، فالواجب الأخلاقي يلزم أن يكون بطيب نفس من الزوج للزوجة، وأنه فريضة من الله تعالى قد فرضه على الزوج، ويلزم أن يكون معلوم القدر، غير مجهول، وأن يدفعه الرجل للزوجة دِيناً، لأنه نحلة من الله تعالى. وباعتبار أن الذي أقره الله تبارك وتعالى فإنه نحلة وعطية مِنْهُ عَزَّ وجل للمرأة، وفي هذا إكرام وإجلال للمرأة في حفظ حقوقها.

ومن الفوائد أن الدلالة المتعددة للفظة ﴿نِحۡلَةٗ﴾ شاملة لكل المراد والمقصود، مما يفيد ويبين الغزارة البلاغية العظيمة في ألفاظ القرآن الكريم، فمساحة دلالة معنى ﴿نِحۡلَةٗ﴾ وموقعها في الجملة جعلها تستوعب جميع هذه الدلالات، فسبحان من استوعبت ألفاظ كتابه العظيم المراد الواسع الجليل. وهذه من دقائق البلاغة القرآنية وإعجازها البياني.

ومن الفوائد أن هذا يبين أحقية المرأة في المهر، ولا منة للرجل على المرأة فيه، بل أعطاها الحق في أن إذا طابت نفسها عن شيء من صداقها أن تعطيه الزوج ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾ فإن طابت نفسها عن شيء من الصداق فليأكله ويأخذه حلالاً طيباً. وقال الزمخشري رحمه الله تعالى عن مقدار العطاء من الصداق: أنه قيل إن طبن لكم عن شيء منه، ولم يقل فإن طبن لكم عنه، بعثاً لها على تقليل الموهوب، وقال أيضاً عن قوله تعالى ﴿هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾ هذه عبارة عن التحليل والمبالغة في الإباحة وإزالة التبعة.[٢] وهذا يفيد أن

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٨/٥)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٤٨٣/١)

للمرأة الحق في أن تتصرف فيما تملك. كما يفيد أن طيب النفس بالعطاء شرط لذلك ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا﴾

كما يفيد قوله تعالى ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾ أن العطاء من النفس الطيبة له صفتان: هنيء ومريء ﴿هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾ وقد ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى في معانيها: أن الهنيء ما تُؤْمَن عاقبته، وما أعقب نفعاً وشفاءً، وأنه الذي لا ينقصه شيء، وأما المريء فهو المحمود، يقال: مرئ الطعام إذا انهضم وحمدت عاقبته(١) والهنيء الذي لا إثم فيه، والمريء لا داء فيه، والهنيء الطيب المساغ الذي لا ينغصه شيء، والمريء المحمود العاقبة، الذي لا يضر ولا يؤذي(٢) وهذا يبين ويفيد فضل ما تطيب به النفس من العطاء، وأن له أثراً عظيماً. كما أن من الفوائد البيانية استيعاب ﴿هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾ لجميع الدلالات التي جمعت مجامع الخير في المأخوذ من عطية الصداق.

ومن فوائد الدلالة اللفظية: أن قوله تعالى ﴿فَكُلُوهُ﴾ ليس المقصود صورة الأَكل، وإنما المراد الاستباحة بأي طريق كان، وهو المعني بقوله تعالى في الآية التي بعدها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا﴾ وليس المراد نفس الأَكل، إلا أنه لَمَّا كان الأَكل أوفى أنواع التمتع بالمال عُبِّر عن التصرف فيه بالأَكل(٣) والتعبير بالأَكل عن الأخذ والتصرف يكون أبلغ عند المدح، وابلغ في التشنيع عند إرادة الذم.

﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ۝٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٨٣-٨٤)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥/١٩)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥/١٩)

وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾

لا زال السياق القرآني الكريم في حفظ الأموال، وبيان ما فيها من الحقوق، حيث استهلت الآية الكريمة توجيهها بالنهي الذي يقتضي الوجوب من إعطاء السفهاء الأموال. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: هم المبذرون أموالهم، فينفقونها فيما لا ينبغي، ولا يَد لهم بإصلاحها وتثميرها والتصرف فيها[١] ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾ فشمل التوجيه جميع السفهاء، إذ لم يخصص سفيهاً دون سفيه، أو حالة من السفه دون أخرى، فلا يجوز لأحد أن يعطي سفيها ماله، سواء كان صغيراً أو رجلاً كبيراً، وذكراً كان أو أنثى. والسفيه الذي لا يجوز لوليه أن يؤتيه ماله هو المستحق الحجر لتضييعه ماله، وفساده وإفساده، وسوء تدبير ذلك[٢]

وفي هذا ما يفيد أهمية حفظ المال من التلف، ويكون ذلك بالبعد به عن الإسراف والتبذير، والتبديد، مما يوجب تنميته وتكثيره ليحصل به النفع والانتفاع، وقد بين الحق تبارك وتعالى علة النهي عن إعطاء السفهاء الأموال في قوله عَزَّ وجل ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾ فالمال يقوم عليه أمر الإنسان في مطعمه ومشربه ومسكنه وعلاجه وتجارته، وعونه لغيره، وكذلك قوام غيره معه ممن هم تحت رعايته، بما فيهم السفهاء، وكون هذا التنظيم يدخل في تشريع الله تعالى فإنما يؤكد عناية الله تعالى بعباده، حتى في أموالهم ومعايشهم، بما يُصلح أمرهم ويحقق صلاح شأنهم وشأن غيرهم، إذ ينبههم وينهاهم عن ما يضيع به قوام أمرهم.

وقد ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى أنواع أو أقسام السفهاء، بأنه تارة يكون بسبب صغر السن، وتارة يكون بسبب الجنون، وتارة لسوء التصرف، بسبب نقص العقل أو الدين[٣] كما أن

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٤٨٣/١)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٩٤/٦)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٦٢/١)

في هذا إثبات الوصي والولي والكفيل للأيتام(١) وقد استنبط العلماء منها قواعد ودلالات فقهية غزيرة جداً، منها: أنها دلت على جواز الحجر على السفيه، والفرق بين السفيه لجهله والسفيه لتصرفه. وكذلك حكم أعمال السفيه وتصرفه، وأحكام أخرى متعددة، قد تناولتها بعض كتب التفسير، وكتب الفقه، ولكن هذا يفيد أن دلالات القرآن الكريم فَتَّقَت عقول العلماء الذين تبصروا في آياته الحكيمة العظيمة، لما فيها من البيان والفقه العميق، ذو الدلات المتنوعة في التخصيص والتعميم والشمول، وهذا من عظيم بركة هذه الشريعة القراء، وعلى رأسها كتاب الله العزيز الحكيم، الذي نزل على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

ولَمَّا مَنَع اللهُ تعالى إعطاء السفهاء الأموال احتاط لهم تبارك وتعالى في أمرين: الأول: النفقة عليهم ﴿ وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ ﴾ أي: فاجعلوا لهم في هذه الأموال ما يقيم أودهم وحياتهم، حتى الكساء، ففرض ربنا العناية بهم فيه. والرزق هو ما ينتفع به المرزوق، وهو عام لكل ما ينتفع به ويحتاجه السفيه، ويستغني به عن الحاجة والمسألة، وخُصت الكسوة لإبراز أهميتها، وتعيينها وتأكيدها، وهي من ذكر الخاص بعد العام. ودلالة لفظة ﴿ وَٱرۡزُقُوهُمۡ ﴾ تفيد العطاء لهم في كل وجه يحقق مصلحتهم، بما يستوعب مقدار العلاقة والقرابة والرحم بين الوصي والسفيه. ويستوعب أنواع ومجال الرزق الذي ينتفعون به، فكانت دلالة لفظة ﴿ وَٱرۡزُقُوهُمۡ ﴾ شاملة لأوجه العطاء المحقق لمصلحة السفيه. وهذا الإنفاق من حيث الأصل يلزم الوصي أن يقوم به شرعاً حتى ولو لم يكن للسفيه مالاً، بل يمتد بساط العطاء والبر لغيرهم على وجه الصدقات، لِمَا دل عليه منهج الإسلام من العناية بالغير، وذلك بما جعل لهم من الصدقات.

والأمر الثاني: متعلق بالجانب الأخلاقي والنفسي والعاطفي ﴿ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴾ فأمر أن يُطَيَّب خاطرهم بالقول اللين الطيب، وأن لا يجعل من السَّفَه مداراً للاستضعاف والاحتقار في القول والمعاملة. كما أن هذا يشمل الاعتذار لهم بلطف، والوعد لهم بما يستقبل من أمرهم، لتطيب نفوسهم، وتبقى اللحمة قوية، فلا تتكدر نفوسُهم بالمنع الذي يُحفظ به المال. وهذا دليل على عناية الإسلام بالجانب النفسي والعاطفي والأخلاقي، وهذا يتطلب استصحاب

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥/٢٠)

واستحضار نعمة الله تعالى، فليس هو الذي جعل نفسه سفيهاً، ولا ذاك جعل نفسه قيماً عاقلاً، إلا بتوفيق الله تعالى. فلا يحتقر العاقل غيره من السفهاء، بلفظ أو قول لا يليق.

وفي استيعاب دلالة ﴿ وَٱرۡزُقُوهُمۡ ﴾ ودلالة ﴿ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴾ مساحة عريضة من الدلالات التي تجتمع بها المصلحة، بما يدل على الغزارة البلاغية في مقاصد وتقصد الألفاظ في القرآن دون غيرها، وأنه معجز في لفظه وبيانه ودلالاته. وأبلغ الكلام ما تعددت وجوه إفادته، بما يستوعب مراد الْمُخَاطِب.

ثم يتوجّه التوجيه الرباني الكريم إلى بيان منهجية وآلية نقل مال اليتيم إلى حوزته، بما يحفظ حقوقه كاملة، حتى من تَصَرُّف اليتيم نفسه ﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ ﴾ فابتدأ التوجيه الكريم بمخاطبة ولي اليتيم، والقائم على أمر كفالته، بأمر الاختبار لقدراته ﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ﴾ أي: اختبروا عقولهم، واعرفوا أحوالهم وأفهامهم، وصلاحهم في دينهم وأموالهم. وذلك بأن يتأمل الوصي في دين وأخلاق يتيمه، ومَدَى مقدرته على التصرف الحكيم في ماله، بما ينمّيه ويحفظه من الضياع. وجاء الأمر بالاختبار عاماً، دون تخصيص جانب محدد ومُعَيّن، بما يعطي الولي النظر في جميع ما يتعلق بصلاحه، ففساد الدين وفساد الأخلاق يؤثر على مصارف المال وتصريفه. وكذلك القدرة والنباهة العقلية لها أثر في حفظ المال وتنميته، وهذه من البلاغة الإعجازية في استيعاب اللفظة لجميع ما يتعلق بالمراد في شموليته. كما يفيد هذا عناية الإسلام في تنظيمه بأمر التطبيق والممارسة الكاشفة للحقائق، واعتماد الفحص والتجريب، وتأسيس الجانب العلمي والعملي للتأكد من صلاح وقدرة المعني بهذا الفحص، وهو اليتيم في هذا النص القرآني الكريم.

وهذا الْتَّثَبُّت والتأكد من الولي أو الوصي لأحوال اليتيم بهدف إعداده ليستلم ماله، حال حصول البلوغ والرشد، فلا يتأخر عن دفع ماله إليه، إذا توافرت الشروط المقررة في الآية الكريمة التي ضبطت هذا الشأن، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ ﴾ فاختبروا وتيقنوا ممن هم تحت أيديكم من اليتامى، فإن تبين

لكم رشدهم فادفعوا إليهم أموالهم. وهذا يفيد الاستيثاق والتخطيط والإعداد المسبق لأمر وشأن اليتيم. حتى قال بعض أهل العلم: لا بأس أن يدفع إليه شيئاً من ماله، فيبيح له التصرف فيه، فإن نمّاه وحسن النظر فيه، فقد وقع الاختبار، ووجب على الوصي تسليم ماله إليه، وأما إن أساء النظر فيه، وجب عليه إمساك ماله عنده، وليس في العلماء من يقول: إنه إذا اختبر الصبي، فوجده رشيداً ترتفع الولاية عنه، وأنه يجب دفع ماله إليه، وإطلاق يده في التصرف، لقوله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ ﴾[1] ومن وجه آخر، فإن الاختبار إذا كشف عن عدم اكتمال قدرة اليتيم على إدارة ماله، فإنه يتطلب من الولي أن يزيد في تعليمه وتشجيعه، حتى يصل للمرحلة التي تؤهله لاستلام ماله والتصرف فيه، لأن فائدة الابتلاء الذي هو اختبار اليتيم، هو لأجل كشف وقياس مستوى قدراته وإمكاناته وصلاحه، وكونها سابقة للبلوغ، فإن العلة تفيد: أن المقصد هو التهيئة لإدارة ماله بالوسائل المتاحة والمتناسبة مع الزمن والأحوال التي يعيش فيها اليتيم. وهي زيادة مشقة تعليم على الوصي، إلا أن ثوابها عظيم، كما قال صلى الله عليه وسلم (وأنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا) وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما شيئاً [2]

ومن الفوائد أن هذه التوجيهات الربانية فتقت عقول أهل العلم عن مسائل في غاية الدقة، مثل: إذا أتلف اليتيم ما أعطاه الوصي، فهل على الولي الضمان. وأيضاً إذا حال حصول الرشد، ثم تبين السفه، فهل يستعيد الوصاية على اليتيم، من أجل إيقاف إفساده لماله، وهل يحتاج إلى السلطان في إعادة المال لليتيم؟ كما أن في بقية دلالة الآية الكريمة مسائل فقهية تتجذر وتتفرع عنها، بما يؤكد ويبين أن القرآن الكريم خزائن علم لا تنقطع، وبناء عقول وأفهام في أبواب متفرقة ومتعددة، ليكون القرآن الكريم آية عظيمة من آيات الله تعالى، ثابتة التحدي، فسبحان الكريم المنان، الذي أعجز بكلامه عبادَه من أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

ومن الفوائد: أن نجاح اليتيم في الاختبار والفحص يتطلب إعداداً وتربية تؤهله للنجاح فيه، وهذا يتطلب عناية من الوصي باليتيم، فيرعاه رعاية تربوية تؤهله لذلك، لأن سنة الله تعالى تقتضي التوجيه والتعليم لينصلح حال الإنسان، فأصبح تحقيق ذلك مطلباً لا يتم النجاح إلا به،

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥/٢٤)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (٣/٤١٣) برقم (٥٣٠٤)

وهذا يبين ويفيد أن كفالة اليتيم تقتضي البناء التربوي له، وهو جهد ليس بالأمر السهل، ولكن ثوابه عظيم، ومنزلة رفيعة جليلة، كما قال صلى الله عليه وسلم (وأنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا) وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما شيئاً [١] بل من وصاية الولي أو الكفيل على مال اليتيم ما ذكره الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: بأنه يجوز للوصي أن يصنع في مال اليتيم ما كان للأب أن يصنع من تجارة وإبضاع وشراء وبيع، وعليه أن يؤدي الزكاة من سائر أمواله[٢] كما أن على الوصي والكفيل حفظ مال اليتيم والتثمير له، وكذلك عليه حفظ الصبي في بدنه. فالمال يحفظه بضبطه، والبدن يحفظه بأدبه.[٣] وحفظ صحته.

ثم جعل تبارك وتعالى البلوغ وإيناس الرشد مُوجب للوصي أن يدفع لليتيم ماله ﴿ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ فبعد الاختبار، الذي يتبين به مهارة وقدرة اليتيم على التصرف في ماله، وأنه بلغ النكاح الذي هو الحلم، إضافة إلى حصول الرشد الذي هو الصلاح في الدين، والصلاح في تصريف المال بحفظه، وجب على وليه أن يدفع إليه ماله فوراً. وذكر ابن جرير الطبري الأقوال في معنى الرشد التي مجملها: العقل والصلاح في الدين، وإصلاحاً للمال[٤] وقال الفقهاء: إذا بلغ الغلام مصلحاً لدينه وماله، انفك الحجر عنه، فيسلم إليه ماله الذي تحت يد وليه[٥] وحدد الفقهاء بما يكون به البلوغ، سواء للذكر أو الأنثى، وقد تناولتها كتب التفسير والفقه بالتفصيل.

ومن الفوائد التي انعكست على فقه الفقهاء وأهل التفسير، أن بحثوا دقائق الرشد، فهل يحصل قبل البلوغ أو بعده، وسواء حصل الرشد قبل، أو بعد، فإن البلوغ شرط لإعطاء المال.

---

(١) البخاري، الحديث السابق ذكره، برقم (٥٣٠٤)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٧/٥)

(٣) المرجع السابق (٣١/٥)

(٤)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٠٥/٦)

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٦٣/١)

وقد يحدث البلوغ ولا يحدث الرشد، وحينها يحجر على المال. فقد ذكر الزمخشري رحمه الله تعالى: أن الجملة الواقعة بعد ﴿ حَتَّىٰٓ ﴾ جملة شرطية، لأن ﴿ إِذَا ﴾ متضمنة معنى الشرط، وفعل الشرط بَلَغُوا النكاح، وقوله تعالى ﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ جملة من شرط وجزاء، واقعه جواباً للشرط الأول، الذي هو إذا بلغوا النكاح[١] فدفع المال يكون بشرطين: إيناس الرشد والبلوغ، فإن وجد أحدهما دون الآخر، لم يجز تسليم المال، وللجارية، أي: الأنثى تفصيل فقهي، قد تناولته كتب التفسير والفقه. ولكن مجمل النص القرآني العظيم يفيد ضبط مال اليتيم ورعايته، وحفظه حتى من تصرف اليتيم في ماله، وهذا من دقة الرعاية الربانية، والرحمة الإلهية، والمنهجية التنظيمية التي ضبطت ذلك، ولم تتركه لاجتهادات البشر، وهذا يفيد عناية الله تعالى في تشريعه بأمور خلقه سبحانه وتعالى، فله الحمد والشكر أن كفى المؤمنين مؤنة ذلك، فَفَصَّل لهم ما يحتاجون إليه.

ثم أمر تبارك وتعالى بعد اكتمال اليتيم موجبات مسك المال وحيازته أن يُدفع إليه ماله ﴿ فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ﴾ ولم يتوجه الخطاب لليتيم في أخذ المال، بل كان الخطاب موجه للوصي، وأيضاً بصيغة الدفع وليس بلفظة العطاء ﴿ فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ لأن العطاء يكون بأوجه متعددة، فيكون بوجه الصدقة، وبوجه ما يستحق، وبغيرها من أوجه نية العطاء وأحواله، وقد يكون في العطاء نوع من التراخي، ولكن الدفع فيه مغالبة النفس، والتخلي عن الشيء، وفورية التمكين من المدفوع له. وهذه دقة مُتَعَاظِمة في الألفاظ ومقاصدها، حتى أن غيرها لا يقوم مقامها، بما يبين الإعجاز البياني للقرآن الكريم.

ومن الفوائد العظيمة أن التشريع الرباني ضبط استخدام الموصي لمال اليتيم ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا ﴾ فينهى تبارك وتعالى عن أكل أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية، لأن ما زاد عن الضرورة من مال اليتيم فهو إسراف وتعدي، والإسراف هو الإفراط، ومجاوزة الحد. قال

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٤٨٦/١)

السعدي رحمه الله تعالى: لا تأكلوها مجاوزة للحد الحلال، الذي أباحه الله تعالى لكم من أموالكم، إلى الحرام الذي حرمه الله تعالى عليكم من أموالهم[١] وقد يكون الولي على اليتيم فقير الحال، فهل يأخذ من مال اليتيم من غير إسراف. فقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الولي الفقير إذا أيسر أنه يرد المال، وقال البعض لا يرده، لأنه أكل بأجرة عمله، وكان فقيراً[٢] ونهى تبارك وتعالى كذلك عن المبادرة التي تفيد المسارعة في ذلك ﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْ ﴾ فنهى عَزَّ وجل الأولياء من مبادرة أكل الأموال قبل البلوغ، فيكون ذلك مبادرة وتسرعاً قبل بلوغهم[٣] ﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْ ﴾ فتضمن النهي عن الإسراف، وتضمن النهي عن المبادرة ﴿وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْ ﴾ أي: المسارعة والاستعجال.

وهذا يفيد أنه لَمَّا أن الوصي بمنزلة الأب في رعايته لليتيم ولماله، جعل له الحق في الأخذ من مال اليتيم بقدر ما يرفع الحاجة فقط، وإذا تجاوز ذلك إلى الإسراف فقد دخل في النهي. ولكن هل عليه رد ما أخذ، وأنه على سبيل الإقراض، أو على سبيل الأجرة؟ فهذا يتبين من أقوال أهل العلم من نص تمام الآية الكريمة إن شاء الله تعالى. ولكن لَمَّا أنه سبحانه تعالى ضبط للولي المقدار بغير إسراف، ضبط كذلك المسلك النفسي من التعدي بالمبادرة والتسرع لمال اليتيم قبل أن يذهب المال من وصايته إلى اليتيم ﴿وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْ ﴾ كما أن عناية الفقهاء بهذه المسألة، والتحرز من مال اليتيم، جعلتهم ينظرون إليها من زوايا متعددة، مما أعطى مساحة من تنوع الاختلاف التي تولدت من التحرز والتحرير والتدقيق، ومراعاة مصلحة اليتيم، ومصلحة المعتني به إذا كان فقيراً، مما يجعل مساحة الفتوى تستوعب أحوال الوصي، وما يحيط بذلك. ويكتمل المزيد من الفهم بتمام الآية الكريمة، حيث أرشد تبارك وتعالى الوصي إلى المسلك المستقيم في تعامله مع مال اليتيم

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣١٣/١)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٦٤/١)

(٣) يُنظر للمزيد من المعاني وفهم العلماء، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤٦٣/١) وكذلك من يرى أنه بمعنى لا تأكلوه، فإنه إسراف، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٨/٥)

﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ فمن أغناه الله تعالى من أولياء وأوصياء اليتامى أن يتخلق بأخلاق الاستعفاف عن مال اليتيم. لأن دلالة لفظة ﴿فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡ﴾ تفيد التَّمَنُّع عَمَّا لا يحل ولا يليق، وتفيد التكلف في الامتناع، بمغالبة النفس ومجاهدتها على الاستعفاف، لأن النفس قد يستهويها التكثر والزيادة، وقد تتحايل النفس في ذلك، فيقابلها المؤمن بالتمنع ومغالبة هوى النفس.

ومن الفوائد: مخاطبة الله تبارك وتعالى للوصي مباشرة، بما يتناسب مع الحال التي قد يكون عليها تجاه مال اليتيم. فلم يجرده عَمَّا يصيب النفس، ولكن أرشده للمنهجية العلاجية النفسية، وبلفظة واحدة ﴿فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡ﴾ والتي قد استوعبت منهجاً تنظيمياً وتربوياً عظيماً بالفوائد والتقعيد بالقواعد السلوكية الأخلاقية الرفيعة، بأن يتكلف الامتناع بالتمنُّع، فيتمنع بالاستعفاف.

ثم أكد سبحانه وتعالى مرة أخرى منهج التعامل مع مال اليتيم حال كون الوصي فقيراً ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ وفي التي قبلها قال تعالى ﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا﴾ فالأولى: نهيٌ متضمنٌ لضبط الأخذ والاستعمال، وهو عدم الإسراف ﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا﴾ وفي الثانية: إباحة متضمنة لضبط الاستعمال، وهو المعروف ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: ثم اختلف أهل التأويل في المعروف، الذي أذن الله لولاة أموال اليتامى في أكلها به، إذا كانوا أهل فقر وحاجة إليها. فقال بعضهم: ذلك هو القرض، يستقرضه من ماله ثم يقضيه[1] قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني أنزلت مال الله مني بمنزلة والي اليتيم، إن استغنيت استعففتُ، وإن افتقرتُ أكلت بالمعروف، فإذا أيسرت قضيتُ[2] ولخص الزمخشري القول بأن الله تعالى قسم الأمر بين أن يكون الوصي غنياً، وبين أن يكون فقيراً، فالغني يستعف من أكلها ولا يطمع، ويقتنع بما رزقه الله تعالى

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤١١/٦)

(٢) المرجع السابق (٤١٢/٦)

من الغنى إشفاقاً على اليتيم، وإبقاء على ماله. والفقير يأكل قوتاً مقدَّراً محتاطاً في تقديره، على وجه الأجرة، أو استقراضاً على ما في ذلك من الاختلاف، ولفظ الأكل بالمعروف والاستعفاف مما يدل على أن للوصي حقاً لقيامه عليها.[١] وجمع ابن الجوزي رحمه الله تعالى أقوال الصحابة والفقهاء في دلالة المعروف، بأنه القرض، وقيل: أنه الأكل بمقدار الحاجة من غير إسراف، وقيل: الأخذ بقدر الأجرة إذا عمل لليتيم عملاً، وقيل: أنه الأخذ عند الضرورة، فإن أيسر قضاه، وإن لم يوسر فهو في حل.[٢] وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: قول من قال: أن المعروف الذي عناه الله عَزَّ وجل هو أكل مال اليتيم عند الضرورة والحاجة إليه، على وجه الاستقراض منه، فأما على غير ذلك الوجه فغير جائز له أكله[٣] فالأكل بالمعروف متضمناً للمساحة المقيدة التي استوعبتها دلالة الآية الكريمة. والتي سبق ذكرها.

ثم أرشد الحق جَلَّ جلاله إلى آلية الضبط في تسليم اليتيم ماله ﴿ **فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا** ﴾ يعني بعد بلوغهم الحلم، وإيناس الرشد منهم، فحينئذ سلموا إليهم أموالهم، وأشهدوا على ذلك ﴿ **فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ** ﴾ وهذا أمر من الله تعالى للأولياء أن يُشهدوا على الأيتام إذا بلغوا الحلم وسَلَّموا إليهم أموالهم، لئلا يقع من بعضهم جحوداً وإنكاراً لِمَا قبضه وتسلمه، ثم قال سبحانه وتعالى ﴿ **وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا** ﴾ أي: كفى بالله محاسباً وشاهداً ورقيباً على الأولياء في حال نظرهم للأيتام، وحال تسليمهم لأموالهم، هل هي كاملة موفرة، أو منقوصة مبخوسة[٤] وفي قوله تعالى ﴿ **وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا** ﴾ ما يفيد أن شهادة الله تعالى ومحاسبته كافية فيما بينه وبين الولي أو الوصي على اليتيم، ولا يحتاج جَلَّ جلاله إلى الشهود، وإنما الشهود من أجل حاضركم، وما يخص معاملاتكم وتعاملكم فيما بينكم، وإلا فإن الله تبارك وتعالى في غنى عن

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٤٨٦/١-٤٨٧)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨٦/٢)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٢٦/٦)

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٦٥/١)

الشهود ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ وفي هذا موعظة مؤثرة للوصي، بأن الله تعالى شاهد حتى على ما خفي عن اليتيم والشهود، من خير ووفاء زائد، أو بخس ونقص خفي.

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾

ينتقل السياق القرآني الكريم إلى تقرير المساواة في أصل التَّوَارُث، بأن الجميع في حكم الله تعالى فيه سواء. فيستوون في أصل الوراثة، وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم، بما يُدْلِي به إلى الميت من قرابة، أو زوجية، أو ولاء، فإنه لحمة كلحمة النسب[(١)] ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ فلكل من الذكور ﴿ نَصِيبٌ ﴾ وللإناث ﴿ نَصِيبٌ ﴾ وهو الحظ من الشيء، وهو مجمل في هذه الآية، ومقداره معلوم من موضع آخر[(٢)] وخص اللهُ تبارك تعالى الوالدين بالذكر، ثم عموم الأقارب ﴿ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾ فليس الميراث فيما ترك الوالدان فقط، بل حتى الأقربون، وهم المتوارثون من القرابات دون غيرهم. وفي هذه الآية ثلاث فوائد، نقلها الإمام القرطبي عن علمائه رحمة الله تعالى عليهم أجمعين، الأولى: بيان علة الميراث،

(١) المرجع السابق (٤٦٥/١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨٧/٢)

وهي القرابة، والثانية: عموم القرابة، كيفما تصرفت من قريب أو بعيد. والثالثة: إجمال النصيب المفروض، وذلك مبين في آية المواريث، فكان في هذه الآية توطئة للحكم[١] وهذا يفيد تعليماً وتربوياً أهمية التوطئة في التعليم بالإجمال، ثم يردفه بالتفصيل، ليتصور الْمُتَلقي إجمال الموضوع كاملاً، فيستوعبه بأسهل ما يكون، ثم يسهل عليه استيعاب أجزائه، حيث يكون عليه أسهل وأيسر.

وفي أسباب النزول ما يبين معالجة القرآن الكريم للواقع، وإزالة الأحكام الجائرة، لتكون أحكامه معالجة للواقع الخاطئ في كل زمان ومكان، حيث كانوا في الجاهلية لا يورثون النساء، ولا الصغير، وإن كان ذكراً، وذلك أن رجلاً توفي وترك زوجة وثلاث بنات له منها، فقام رجلان هم أبناء عم الميت فأخذا ماله، ولم يعطيا امرأته وبناته شيئاً، فذكرت المرأة، واسمها أم كُجَّة ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية[٢] فعالجت الأمر بالعدل الذي قرره الله سبحانه وتعالى. مما يبين عظيم حكمة الله تعالى في نزول القرآن العظيم متدرجاً، فيعالج به حاجات العباد المختلفة.

وقرر الله تعالى هذا الحق في قليل الميراث وكثيره، فقال عَزَّ وجل ﴿ **مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا** ﴾ قسمة واجبة، وحقاً مقدراً لازماً، وأنه اجب الأداء، ولا بد لهم أن يحوزوه بما قسم الله تعالى، ولا يستأثر به أحد دون غيره من الوارثين.

وفي قوله تعالى ﴿ **لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ** ﴾ فيه تقرير حق الرجال والنساء بتأكيدات متعددة، فالتأكيد الأول: هو تقرير حق الرجال بِنَصٍّ كامل ﴿ **لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ** ﴾ وتقرير حق النساء بنص كامل من كلام رب العالمين ﴿ **وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ**

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥/٣١-٣٢)

(٢)الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/٤٣٠) القرطبي (٥/٣١) وابن كثير (١/٤٦٥) وغيرهم

﴿ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾ وذلك إمعاناً في الإيضاح والتأكيد والجزم بالأحقية لفئة النساء كما هو لفئة الرجال. وتأكيده ثانياً: في حال القلة والكثرة ﴿ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ﴾ فلا فرق في حوزة الحق لكل من الصنفين، حتى وإن كان الميراث قليلاً أو كثيراً، فالحق ثابت للفئتين مما قل منه أو كثر. وتأكيده ثالثاً: بفرضية وجوبه ﴿ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ لازماً واجباً ومقدراً، لا يستأثر به أحدٌ عن أحد.

وكذلك ورد النص في صورة حكم مُقرر، بما يفيد أنه تقرير لازم في هذا الشأن، وعلى أنه قاعدة يلزم ويجب أداؤها. وهذا الأسلوب البياني التأكيدي الدقيق يفيد في منهجية بناء اللوائح والأنظمة التي تدخل ضمن المصالح المرسلة، التي تنظم المستجدات حياة الإنسان، كأنظمة التعليم، والمرور، وغيرها.

ثم ذكر سبحانه وتعالى ثلاثة أصناف، وأسلوبين في التعامل مع من حضر قسمة التركة. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ فذكر تعالى أنه حال حضور الأقارب واليتامى والمساكين قسمة الميراث، ممن ليس بوارث، فليرضخ لهم من التركة نصيب، وهو واجب، وقيل يستحب[١] قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: إن من حضر ممن لا يستحق شيئاً إرثاً، وحضر القسمة، وكان من الأقارب أو اليتامى أو الفقراء الذين لا يرثون أن يُكرَمُوا ولا يُحْرَمُوا، إن كان المال كثيرا، والاعتذار إليهم إن كان قليلاً لا يقبل الرضخ. فالآية على هذا القول محكمة، قاله ابن عباس، وامتثل ذلك جماعة من التابعين، وأمر به أبو موسى الأشعري. وقيل منسوخة، والأول أصح[٢]

وفي هذا النهج الإسلامي الكريم مبدأ الإكرام بالعطاء وبمكارم القول والبيان، وقد أفاد قوله تعالى ﴿ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾ عموم الارزاق، إذ لم يحدد ماهيته، ليستوعب القلة والكثرة

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٦٥/١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣٣/٥) ملخص

والنوع والهيئة، فقد يكون العطاء من تركة قليلة، وقد يكون من تركة كثيرة، وقد يكون من منتج زراعي أو حيواني، وقد يكون في صورة نقد مالي، وقد يكون في صور متعددة لا حصر لها، فيكون قد ترك للورثة ما يمكن أن يكون منهم، بحسب الحال. وهذا من الإعجاز في البيان، إذ استوعبت دلالة الآية الكريمة الأنواع والهيئة والكثرة والقلة. ومن الإعجاز القرآني الكريم: معالجة واقع الحال بما يتسع له المقام، ومن الإعجاز الأخلاقي: إكرام الحاضرين وتقوية اللحمة بالأقارب والمساكين والأيتام.

كما أفاد قوله تعالى ﴿ **وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا** ﴾ حرص المنهج الإسلامي على جميل الأخلاق، وتقوية اللحمة مع الأقارب والمساكين والأيتام، بطيب الكلام، وجميل الاستقبال. إذ أن قول المعروف يشتمل على الكلمة الطيبة عند العطاء في هذا المقام، ومع هذا السياق، ولم يحدد سبحانه وتعالى نوع القول المعروف، ليستوعب كل إمكانات وقدرات القائل من الكلام الطيب الذي تطيب به نفوس الحاضرين. وهذا يفيد على وجه العموم: أهمية الكلام الطيب للآخرين، وأهمية العناية بالأقارب واليتامى والمساكين بالفعل والقول، وأن القول المعروف منهج يحبه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، لأنه أمر به وأوجبه جَلَّ وعلى.

ثم يقول تبارك وتعالى ﴿ **وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا** ﴾ قيل هذا السياق في الذين يجلسون لمن حضرته الوفاة، فَيَدِلُّونَه ويَدْفَعُونَهُ على ما يحقق الإجحاف في الوصية، أو يَسْمَعُونَهُ يُوصي بوصية تضر بورثته، فيلزمهم أن يرشدونه ويدلونه على الحق، ويأمرونه بالعدل، فعليهم أن يخشوا الله تعالى، فيأمرونه بالقسط والعدل في وصيته، ويسددونه فيما يوصي به، لقوله تعالى في مخاطبته لهم ﴿ **فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا** ﴾ وقيل أنه متعلق بأوصياء اليتامى، بأن يفعلوا ويعاملوا اليتامى بما يحبون أن يُفعل بأولادهم من بعدهم. سواء في مصالحهم الدينية أو الدنيوية (١) وعلى أي وجه كان، فإن رحابة التوجيه القرآني الكريم في شموليته قد استوعب الأوجه كلها، لأن

---

(١) ذكرت تلك الأقوال كتبُ التفسير، ابن كثير (٤٦٦/١) والقرطبي (٣٥/٥) والسعدي (٣١٥/١) وغيرها.

بلاغته امتدت إلى رحابة النص في عطائه من الخير في التوجيه، لتستوعب جميع تلك الأحوال والمقاصد، وهو ما لا يستوعبه كلام البشر. فيكون في حق من حضر الاحتضار، وسمع ما لا يجوز، أو حث الموصي على ما لا يجوز، أو حال كونه وصي على اليتيم. فيلزمه أن يخش الله تعالى، ويتعامل كما لو كان الأمر متعلق بذريته، فسبحان من استوعب كلامه مراده وكريم عطائه وتوجيهه.

وقد تضمن التوجيه الكريم الجزم بوجوب الخشية التي تحمل دلالة التعظيم والمهابة والاتقاء، وسواء كان هذا متعلق بمن حضر وفاة من جنف ولم يعدل في وصيته، أو عزموا على إرشاده بما يحيف بحقوق الورثة، أو بمن كان ولياً على أيتام، فوجبها متعلق بخشية الله تعالى، وخشية مغبة هذا الأمر ﴿ وَلۡيَخۡشَ ﴾ وفي هذا الأسلوب القرآني الكريم استجاشة الخوف والمهابة في قلوب الْمُخَاطَبين، لترتعد فرائصهم من الأمر بالخشية، والأمر بالتقوى ﴿فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ فيندفعوا نحو تحقيق الحق والخير، ثم أوقع تبارك وتعالى لهم صورة واقع الحال، فيما لو كان الأمر متعلق بذريتهم، فإنهم لن يرضوا بذلك الإجحاف، ولن يرضوا بالمعاملة غير السديدة مع القاصرين. ﴿ وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ﴾ وهذا يفيد تقريب المعنى وواقع الحال بالمماثلة التي تمنع الحيدة عن الإجابة الصحيحة والفعل الصحيح. وهو أسلوب تربوي مؤثر، وأسلوب يخاطب واقع الْمُخَاطَب فيما لو كان ذلك. مما يفيد كذلك: أن في استصحاب واقع الحال عند الموعظة والتعليم ما يستثير النفس والعقل نحو ما يجب، وبصورة مؤثرة، ودافعة للامتثال.

ثم استجاش نفوسهم في صورة حال تخليهم عن الذرية قصراً لغيرهم ﴿لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا﴾ ثم الاستجاشة الثانية بوصف ضعف الذرية ﴿ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا ﴾ ثم ما يتعلق بالشفقة التي امتلأت خوفاً ﴿خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ ﴾ فجميع تلك الأوصاف تستثير القلب والعقل نحو محامد القول والفعل، وسواء كانوا أوصياء، أو كانوا ممن حضر احتضار ميت أو مريض يوصي بوصية.

ثم إن السياق احتمل الأوجه التي ذكرها أهل التفسير، بما يفيد بسط سلطان دلالة الآية الكريمة على جميع تلك الأوجه والمعاني والدلالات، ليكون عطاء الآية الكريمة أعم وأشمل، فيستوعب ما يحتاجه المقام من جميع الأوجه. وهذا من بلاغة القرآن الكريم العظيمة، لأن أبلغ الكلام ما تعددت أوجه إفادته، واستوعبت جميع المراد من غير تكرار.

ثم يأمرهم الله تعالى بالتقوى وموجبها ﴿فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ فيأمر الله تعالى الْمُخَاطَبين والمعنيين بالخطاب أن يتقوه، وأن يقولوا القول العدل والصواب. وهذا يفيد أن التقوى تُوجِب على المتقي أن يقول القول السديد الصحيح في كل وقت وعلى كل حال. وفيه كذلك أهمية التذكير بالتقوى، فإن لها أثر بالغ على النفس البشرية المؤمنة. وهذا يستلزم منهم أن يعاملوا الأيتام معاملة كريمة، بعيدة عن الحيف وعن الإهانة والإذلال.

ودلالة لفظة ﴿سَدِيدًا﴾ تعني: قول الصواب، فتفيد عموم الصواب، لتستوعب وتشمل جميع أنوع القول الصائب، سواء كان في النصح والإرشاد، أو عند الإخبار والتصرف، بأن يستصحبوا القول السديد: لفظاً ونهياً وأمراً وزجراً ونصحاً، بل يستوعب القول السديد حتى تعليمهم مصالحهم الدينية والدنيوية، لأنه هرم الصواب وقمته، وهو من القول السديد، وبالتالي قد تركت لفظة ﴿سَدِيدًا﴾ لولي اليتيم مساحة عريضة من الاجتهاد في اللطف والتوجيه والتعليم، ليأخذ بها في تعامله مع اليتيم وشؤونه المتنوعة. فسبحان من استوعب رحاب كلامُه تلك المعاني والدلالات.

ثم يعظ الله تبارك وتعالى من يحاول الاعتداء على أموال اليتامى بأسلوب الزجر والوعيد لأولئك الذين يعتدون على أموال اليتامى، فقال عَزَّ وجل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ ففيها تحذير وزجر للأوصياء خاصة، ولغيرهم، من أكل أموال اليتامى اعتداء وعدوانا بغير حق، وسُمّيَ أخذ مال اليتامى على أي وجه من أوجه الظلم أكلاً، تشنيعاً لما قام به الولي من الظلم، بما تستنفر منه الطباع السليمة، والقلوب المؤمنة، وخص الله تبارك وتعالى البطون ﴿يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾

للتأكيد والمبالغة في شناعة التعدي على مال اليتيم ظلماً وعدواناً، بالرغم من أن المال قد يستعمل في غير الأكل، ولكن بياناً لنقصهم خُلُقاً، وتشنيعاً عليهم بضد مكارم الأخلاق، قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: وسَمَّى العزيزُ الحكيم المأكول ناراً بما يؤل إليه، بأنه حرام، والحرام يوجب النار، فسماه الله تبارك وتعالى باسمه الذي سيؤول إليه[١] وكذلك أنهم ﴿وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ وهي نار من النيران مبهمة الوصف[٢] أي سَيُحْرَقُون ويُشْوَون بالنار، والسعير، هي: النار المستعرة المتوقدة.[٣]

ومن الفوائد: أن الخطاب في سياق أوصياء الأيتام، فيكون الْمَعْنِي به الأوصياء، ولكنه جاء بأسلوب العموم لأي آكل لأموال الأيتام ظلما ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا﴾ وبهذا يمتد سلطان التوجيه لكل متعدي بالظلم على أموال الأيتام، سواء من الأوصياء أو من غيرهم. كما أن السياق جاء على وجه تقرير الحال، وتقرير صورة الفعل إذا حصل، وتقرير نوع الجزاء، بما يفيد بلاغة الزجر والتحذير، ليكون أبلغ أثراً.

ثم من أساليب الزجر، تصوير حال المأكول من أموال اليتامى ظلماً بالنار المستعرة في البطون، وهي صورة بالغة في النهي والتحذير والزجر، مع بيان الجزاء في الآخرة، بأنهم سيصلون السعير ﴿وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ فهو تقرير وبيان مؤثر، لأن عِظَم الجزاء يدل على شناعة الذنب، وهو أكل مال اليتيم. وهذا يفيد حرمة مال اليتيم، وأهمية الاحتراز من التعدي عليه، والطمع فيه، والتحايل عليه بأي صورة كانت.

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣٦/٥) ملخص

(٢) الزمخشري، الكشاف (٤٩٢/١)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٩١/٢)

ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ
لَهُۥٓ إِخۡوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا
تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ ۞
وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ
فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ
ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ
مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ
كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ
أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ
مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾ ﴾

هاتان الآيتان الكريمتان والآية التي هي خاتمة هذه السورة هنَّ آيات علم الفرائض، وهو علم مُستنبط من هذه الآيات الثلاث، ومن الأحاديث الواردة في ذلك، مما هو كالتفسير لذلك[١] وهذه الآية ركن من أركان الدين، وعمدة من عمد الأحكام. وأم من أمهات الآيات، فإن الفرائض عظيمة القدر، حتى أنه ثلث العلم، وروي نصف العلم، وهو أول علم يُنزع من الناس ويُنسى[٢]

ودلالة كلمة ﴿ يُوصِيكُمُ ﴾ تفيد الأمر. أي يأمركم ويعهد إليكم ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ ﴾ بأن تعدلوا في ميراثهم، ثم بعد الإجمال في الأمر يُفصل تبارك وتعالى منهجه

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٦٧/١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣٦/٥)

وحكمه في الميراث، الذي حسم أمره وتفنيده من لدنه عَزَّ وجل، مما يدل على عظيم عنايته ورحمته بخلقه تبارك وتعالى، إذ منع عنهم عناء ومشقة التخصيص والتوزيع لكل من يرث على الأحوال التي يكون عليها الوارث والمورث، وكذلك دفع عنهم ما يوجب الظلم والحيف، بما يستهوي النفوس من الطمع، وما ترتكبه من الظلم، وما قد يكون من الاجتهاد الخاطئ. وهذا يفيد وجوب الالتزام بما حكم الله تعالى به في المواريث، وعدم الحيدة عمَّا أوجب سبحانه وتعالى، بظلم أحد من الورثة في استحقاقه من الميراث.

وقد فارق وفاوت سبحانه وتعالى بين الذكر والأنثى ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ ﴾ فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، لما يحتاجه الرجل من مؤنة النفقة والكلفة، ومعاناة التجارة والتكسب، وتحمل المشاق، فناسب أن يُعطى ضعفي ما تأخذه الأنثى[(١)]

ثم من عظيم تشريعه تبارك وتعالى أن صنف الأحوال التي يمكن أن يكون عليها الورثة ﴿ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ ﴾ وللصورة الأخرى قال تعالى ﴿ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ ﴾ وفي حالة عدم وجود الولد يكون التوريث ﴿ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ ﴾ ثم ذكر سبحانه وتعالى حالة أخرى ﴿ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ﴾ وقد أكد تبارك وتعالى حق المدين في الميراث، بأن يستوفي حقه من ميراث المورث، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدين

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٦٨/١)

مقدم على الوصية(١) وقدم الوصية مع أنها مؤخرة عن الدين للاهتمام بشأنها، لكون إخراجها شاقاً على الورثة، وإلا فالديون مقدمة عليها(٢) مما يبين دقة البيان الكريم وقوة ضبطه.

ثم بين تبارك وتعالى ما يخفى على الإنسان من نفع بعضهم لبعض ﴿ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًاۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ إي أن النفع متوقع ومرجو من هذا كما هو متوقع ومرجو من الآخر، فلهذا فرضنا لهذا وهذا(٣) وجاء في التفسير لا تعلمون أيهم أقرب لكم نفعاً في الآخرة، وقيل في الدنيا، وقيل: لا تدرون أيهم خيرٌ لكم في الدين والدنيا، الوالد أو الولد الذين يرثونكم(٤) وفي هذا تقرير جهل الإنسان عن أقرب الناس إليه نفعاً في الحاضر والمستقبل، وأن حاجته لامتثال ربه تبارك وتعالى هو الصواب الذي لا بعده صواب، وأن ما يتصوره ويتوقعه الإنسان عن أقرب الناس إليه قد لا يكون ختام ذلك كذلك. فقد يكون الوالدان أكثر نفعاً للولد من أبنائه في الدنيا بما قد يقدمه له حاضراً أو مستقبلاً، وفي الآخرة قد تكون شفاعته لولده منقذة له من عذاب ينتظره. وقد يكون الولد أكثر نفعاً لوالديه في الدنيا بما يقدمه لهم من خير وعون، وفي الآخرة ما قد يكون منه من شفاعة لوالديه، فيكون هو أكثر نفعاً لوالديه. وجميع أقوال أهل العلم التي قيلت في النفع هي محتملة أن تكون، مما يفيد أن جميع ما فُهِم من كلام الله تعالى يحتمله التأويل، وهذا من عظيم كلام رب العالمين، فقالوا: أن الوالد إذا كان أرفع درجة من ولده، رفع إليه ولده، وكذلك الولد إذا كان أرفع درجة من الوالد. وقيل: لا تدرون هل موت الآباء أقرب، فينتفع الأبناء بأموالهم، أو موت الأبناء أقرب، فينتفع الآباء بأموالهم. وقيل: أن الآباء والأبناء يتفاوتون في النفع،

(١) المرجع السابق (٤٧٠/١)

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣٢٠/١)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٧٠/١)

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٧١/٦-٤٧٢)

حتى لا يدري أيهم أقرب نفعاً[١] ومن فوائد ذلك إمعان العلماء في النص، وتقليبهم لأوجه دلالاته على المحتمل بالمراد، حتى تفتقت بحورٌ من العلم الكريم من نصوص كلام رب العالمين.

ثم يبين الله تعالى حكمه في قسمة المواريث ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فبين هذا الحكم أنها سهام معلومة، قد فرضها تبارك وتعالى، وأنها واجبة النفاذ، والانقياد لها والعمل بمقتضاها. ثم بين تبارك وتعالى عظيم علمه وحكمته فيما فرض ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فهو عليم بما فرض، وحكيم فيما قسم، مما يفيد أن قسمة الله تعالى للمواريث تتضمن حِكَماً عظيمة وجليلة، نَاسَبَت كل قسمة حالة الوارثين بما قسم، وأنه لن تكون هناك قسمة أبداً خير وأفضل مما قسم الله تعالى، لأن الحكيم المطلق لا يحكم إلا بأحكام مليئة ومُفعمة بالحكمة الظاهرة والباطنة. كما أن هذا البيان من قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فيه تطمين للورثة، بأنه مُحَقِقٌ لمصلحتهم بلا حيف ولا خلل، وأنه لو تُرك لهم، ما حققوا الخير لأنفسهم، لأنه صادر من عليم بهم، حكيم فيما حكم.

وقد تناولت كتب التفسير وكتب الفقه جميع ما يتعلق بتقسم التركات، وأحوالها وما يتعلق بها، والتي يمكن أن ينظرها من أراد في مضانها من تلك الأسفار العظيمة الجليلة، بما فيها من عظيم العلم والقدر.

ثم تناولت الآية الثانية مزيد البيان من تقسيم التركات، فكان ابتداؤها فيما يتعلق بالزوج إذا كان وارث لزوجته ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ فهذا حال أنه لم يكن لهن ولد، ولم يقل تبارك وتعالى: لهم أي: للزوجين، بل قال تعالى (لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ لأنه قد يكون لها ولد من زوج سابق، وهذه من دقائق الألفاظ، وإرادها مواردها من الدقة المستوفاة في كتاب رب العالمين. وأما إذا كان هناك ولد فيكون نصيب الزوج هو الربع ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾ وكل هذا من بعد

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٩٣/٢)

قضاء الدين وإنفاذ الوصية، إن كان هناك دين أو وصية ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖ﴾

ثم ينتقل البيان القرآني الكريم للزوجة، حال وفاة الزوج، ولم يكن هناك ولد ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞ﴾ وأما حال وجود الولد فيكون نصيبها كما قال تعالى ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُم﴾ وكل هذا من بعد قضاء الدين وإنفاذ الوصية، إن كان هناك دين أو وصية ﴿مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖ﴾ ومن الفوائد: أن كرر سبحانه وتعالى الوفاء بالدين والوصية، تأكيداً، ومنعاً لاحتمالات الخلاف.

وتناولت الآية الكريمة حالة الكلالة، وهو الرجل إذا مات وليس له ولد ولا والد، فَوِرثَتُهُ كلالة[1] ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ وقد أكد تبارك وتعالى مرة أخرى أن قسمة التركة بعد إنفاذ سداد الدين والوصية، ثم وجه تبارك وتعالى إلى عدم الإضرار بالوصية ﴿غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾ أي: يوصي بالوصية غير مُلحق ومُدخل الضرر على الورثة. أي: لا ينبغي أن يوصي بدين ليس عليه، ليضر بالورثة، وكذلك لا يُقر بدين.

فالإضرار راجع للوصية والدين، أما رجوعه للوصية فبأن يزيد على الثلث، أو يوصي لوارث، فإن زاد فإنه يرد، إلا أن يجيزه الورثة، لأن المنع لحقوقهم لا لحق الله تعالى، وإن أوصى

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥١/٥)

لوارث فإنه يرجع ميراثاً. وأجمع العلماء على أن الوصية للوارث لا تجوز[١] فهذا عهد من الله تعالى إليكم فيما يجب عليكم من ميراث، فيلزم ويجب الالتزام بوصيته سبحانه وتعالى ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فلا يجوز التهاون والتلاعب بوصيته سبحانه وتعالى،

ثم بين العليم الحليم أنه عليم، وأنه حلم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ فإنه تبارك وتعالى عليم بأحوال وأقوال وأعمال الجميع، مما يوجب الحذر من أن يكون منكم ما ينافي مراده ووصيته تبارك وتعالى، كما أنه حليم، فلا يغتر أحدٌ بحلمه، فيتمادى في المعصية والمخالفة.

ومن الفوائد: تأكيد أهمية إنفاذ الوصية وسداد الدين، بتكريرها في أربعة مواضع في تلك الآيتين الخاصة بالمواريث، وجميعها تنص على قسمة الميراث من بعد إنفاذ الوصية والدين. وهذا يؤكد أهمية الوفاء بالوصية والدين، وشناعة من يتهاون فيها بأي صورة كانت، فضلاً عن تعطيلها أو تأخيرها. بل يجب ألا يتم تقسيم الميراث إلا بعد الوفاء بها.

ومن الفوائد العامة: أن قدم تبارك وتعالى لآيتي الوصية بمقدمات عظيمة عن اليتامى، وعن العدل في أوجهه المتعددة، وعن رعايتهم، وحفظ أموالهم، وعن حفظ الأموال من السفهاء، ومن القاصرين عن القيام بحفظ وتنمية أموالهم، وعن منهجية تعامل الأوصياء مع مال اليتامى، وعَمَّا يحرم فيه من التعامل وما يباح، وكذلك بين تبارك وتعالى أن للنساء نصيب من الميراث، كما أن للرجال نصيب من الميراث، وفق ما نص عليه تقسيم الله تعالى لهم. ويستفاد من هذا استخلاص المنهجية في البناء العلمي والدعوي والتعليمي، بأنه عندما يحتاج إلى مقدمات بيانية وحكمية، فإنه يشرع بها في ترتيب يبني ذهن الْمُخَاطَب على ما يجب.

ومن الفوائد العامة: أن نصوص تقسيم الميراث جاءت كقواعد مستوفية لجميع ما يمكن أن يكون عليه حال الوارث والموروث والمورث، وجميع الصور والاحتمالات التي يمكن أن تكون حتى في مسابقة الأجل للمولود قبل الوالد، أو الوالدين قبل الأولاد، أو الزوج قبل الزوجة، أو الزوجة قبل الزوج، ومع وجود الولد، أو احتمال عدم الوجود، وحال وجود الأخوة، وحال الكلالة، وما

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥/٥٣)

يمكن أن يرتبط بها الوجود والعدم، والكثرة والقلة من الوارثين فيها. فجميع تلك المضامين المستوفاة تؤكد عظمة البيان القرآني الكريم، وأن الإنس والجن عاجزون أن يأتوا ولو بآية من مثله، فسبحان من أبهر وأعجز ببيانه خلقه، وجعله آية لمن أراد لنفسه خيراً في الدنيا، وعاقبة خير وفضل وتفضل في الآخرة من الله الكريم الرحمن.

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾

ثم يشير تبارك وتعالى لتلك الأحكام بأنها حدود ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ والحدود موانع يلزم عدم تجاوزها وتخطيها، بل يجب الوقوف عندها، وإنفاذها. قال ابن عباس: يريد ما حدَّ الله من فرائضه في الميراث. ثم بين الحق تبارك وتعالى جزاء المطيع، وجزاء العاصي ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ فهذا جزاء المطيع لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم فيما أوصى به تبارك وتعالى، وذلك بإنفاذ وصية الله تعالى وقسمته، فإنه ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أي بساتين تجري الأنهار من تحت غرسها وأشجارها، وباقين فيها أبداً لا يموتون فيها، ولا يفنون، ولا يخرجون منها، وذلك هو الفلاح العظيم(١)

وفي هذا حث من الله تعالى بأسلوب الإثابة، والترغيب في إنفاذ ما أمر الله تعالى به في أمر المواريث، وهذا الأسلوب القرآني الكريم لهذا النص البياني يستوعب لعمومه ثمرة الطاعة في

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/٤٩٠)

جميع ما أمر به سبحانه وتعالى ورسولُه صلى الله عليه وسلم، وهذا من الإعجاز البياني أن يأتي السياق في قضية، ولكنه يستوعبها ويستوعب جميع ما يجب مما يُماثلُها، إذ أن طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم في الميراث فقط لا تحقق ذلك الثواب. فجاء السياق البياني بما تستوعبه الأفهام، دون اختلاف. وكذلك جاء السياق فيمن يعصي الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي: لكونه بَدَّل وغَيَّر ما حكم الله تعالى به، وضاد الله في حكمه، وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله تعالى وحكم به، ولهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم[١] فمن لم يرض بقسمة الله تعالى، فإنه يدخله ناراً، فإن قيل: كيف قطع للعاصي بالخلود؟ فالجواب: إنه إذا ردَّ حكم الله، وكفر به، كان كافراً مخلداً في النار[٢] قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: ومن يعص الله ورسوله في العمل بما أمراه به من قسمة المواريث على ما أمره بقسمة ذلك بينهم، وغَيَّر ذلك من فرائض الله تعالى، مخالفاً أمرهما إلى ما نهياه عنه ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ ﴾ ويتجاوز فصول طاعته، التي جعلها فاصلة بينها وبين معصيته، إلى ما نهاه عنه من قسمة تركات موتاهم بين ورثته، وغير ذلك من حدوده ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا ﴾ باقياً فيها أبداً، لا يموت ولا يخرج منها، وله عذاب مُذل مخزٍ[٣]

ومن الفوائد أنه جاء اقتران طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم مع طاعة الله تعالى ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ وكذلك تكرار الاقتران في حق من يعصي الله تعالى ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ ليتأكد أن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم هي من طاعة الله تعالى، وأن معصية الرسول صلى الله عليه وسلم هي من معصية لله تعالى. فاقتران طاعة

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٧٢/١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٩٦/٢)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٩١/٦)

الرسول مع طاعة الله تعالى، وكذلك اقتران معصية الرسول مع من يعصي الله تعالى، دليل على منزلة هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى في هذه السورة الإحسان إلى النساء، وإيصال صدقاتهن إليهن، وفرض ميراثهن مع مواريث الرجال، ذكر أيضاً التغليظ عليهن، فيما يأتين به من الفاحشة، لئلا تتوهم المرأة أنه يسوغ لها ترك التعفف. وقد ابتدأت الآية بقوله تعالى ﴿ وَٱلَّٰتِي ﴾ وهو جمع التي، وهو اسم مبهم للمؤنث[1] ليشمل جميع النساء بلا استثناء. وهذا من جميل أو جماليات اللفظ والعبارة، مما يتعلم منه الإنسان لطف الكلام. ومن دقة البيان القرآني الكريم أن ذكر الزنى بلفظ ﴿ ٱلۡفَٰحِشَةَ ﴾ لتشمل وتستوعب فعل الزنا، وصفته الفاحشة، المتفحشة من الفعل القبيح. وفي نفس الوقت لم يجردهن من الإيمان، بأن نسبهن إلى المسلمين ﴿ مِن نِّسَآئِكُمۡ ﴾

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥/٥٥)

فلم يجردهن من دينه. وكذلك حصر الشهادة عليهن في المسلمين ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡ﴾ أي: منكم أيها المسلمون.

فقد كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبينة العادلة، حُبِست في بيت، فلا تُمَكَّن من الخروج إلى أن تموت(١) ولَمَّا أن في هذا الأمر من الجرم ما يتصل بالعِرض، فقد شدد الله تبارك وتعالى في البينة ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡ﴾ وجعل العقوبة هي الإمساك عن الخروج حتى وفاتهن أو أن يأتي حكم آخر من الحكيم الرحيم ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾ فجاء الحكم والسبيل في سورة النور. وفي أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجلد والرجم، قال صلى الله عليه وسلم (خذوا عني، خذوا عني. قد جعل الله لَهُنَّ سبيلا، البكر بالبكر، جلد مائة ونفي سنة. والثيب بالثيب، جلد مائة والرجم)(٢) وقد فَصَّلَتْهَا كتب التفسير والفقه فيما يخص المحصن والثيب.

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى ما يخص النساء في أمر الفاحشة، ذكر الله تعالى المزيد فيما يخص من أتى الفاحشة من الذكور والإناث ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ﴾ والمعنى: فاللذان يأتيان الفاحشة منكم، والهاء والألف في قوله ﴿يَأۡتِيَٰنِهَا﴾ عائدة على الفاحشة. فأمر تبارك وتعالى بالإيذاء ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ الذي هو التوبيخ والشتم والتعيير والضرب، وكان الحكم كذلك حتى نسخه الله تعالى بالجلد والرجم(٣) وفي هذا من الفوائد: ما يدل على مشروعية التأديب، بالألفاظ والحبس والمنع، بما يحقق المقصود، من غير تجاوز ﴿فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٧٢/١)
(٢) مسلم، صحيح مسلم (١٣١٦/٣) برقم (١٦٩٠)
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٧٣/١)

عَنۡهُمَآ ﴾ فإن تابا وأقلعا وأصلحا، وصلحت أعمالهم وحَسُنَت ﴿ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآ ﴾ أي: اقطعوا عنهما الأذى من التعنيف والتوبيخ.

ومن الفوائد: أن الله تعالى جعل العقوبات للردع من الفاحشة، بتأديب الفاعل، وتخويف وترهيب الغير، فينصلح حال الفرد والمجتمع، ثم إن من رحمته تبارك وتعالى أنه لم يقطع المذنب من التوبة والعودة إلى صفاء السلوك وحدود الإسلام، فجعل التوبة وما يدل عليها من الصلاح، علامة الإقلاع ﴿ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا ﴾ ثم أمر بالامتناع عن إيذائهما ﴿ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآ ﴾ فلا يجوز لأحد أن يذكرهما بما كان منهما، لأن من تاب من ذنبه كمن لا ذنب له. وفي هذا تأديب للمجتمع، وتعليم لهم بالمنهج الصحيح في التعامل مع من أقلع عن ذنبه. بل رَدَّهُمُ الله تعالى إلى تعامله عَزَّ وجل مع المذنب بعد توبته ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴾ فإن ربكم متصف بقبول توبة التائب، ورحمته به بعد إقلاعه عن ذنبه وتوبته بأن لا يعود إليه. بل إن قبول التوبة هو من رحمته، فتأسوا بربكم في قبول التائبين.

فجمع سبحانه وتعالى صفتي التوبة والرحمة، فهو عظيم الرحمة ويقبل التوبة، وإذا كان الخالق يقبل التوبة ويرحم سبحانه وتعالى، وهو صاحب الحق، وله الحكم، فيجب على عبيده الامتثال لأمره والتخلق بهديه سبحانه وتعالى، بأن يقبلوا التائب ويُحِيطُونَه برحمتهم وشفقتهم والعناية به، وأن لا يذكروه بما سبق منه من الذنب أو الذنوب. وهذا من سماحة الإسلام في منهجية التعامل، وجمال وكمال عدله وتنظيمه ورحمته.

ثم يبين الله تعالى مزيداً من رحمته بعباده، إذ يعلمهم ما يجب عليهم من التوبة حيال سيئاتهم، وأنه يقبل التوبة منهم ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ فقد أوضح وبين مطلع الآية الكريمة فضل الله تعالى، بقبوله التوبة ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ قال الحسن:

إنما التوبة التي يقبلها الله[١] كما أفاد النص الكريم: أن عمل السوء يلزم ويجب فيه التوبة ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ مما يفيد أن الله تعالى يبغض عمل السوء، وأن على المسلم الابتعاد عنه وإذا عمله تاب إلى الله تبارك وتعالى.

ومعنى عمل السوء: ارتكاب المعاصي، وسُمِّيَة بالسوء لعاقبتها السيئة. ثم بين حال الإنسان في عمله للسوء ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون: كل ذنب أصابه عبد فهو بجهالة. وعن قتادة رضي الله عنه، قال: اجتمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأوا كل شيء عُصي به فهو جهالة، عمداً كان أو غيره[٢] مما يفيد أن المذنب يعمل الذنب إما بجهله أنه أذنب، أو بمعرفته، ولكن بجهله لحق نفسه، وما يجب عليه تجاهها من الابتعاد بها عن الذنوب، أو بجهله لعذاب الله تعالى. لأن عمل السوء يدعو له السفه وليس التعقل والحكمة. ويفيد هذا ويبين قدر وعلم فهم الصحابة رضي الله تعالى عنهم لدلالة مراد الله تعالى، بما عايشوه أثناء مرافقة النبي صلى الله عليه وسلم. وهذا دليل لطف الله تعالى بعباده.

وبعد بيان ارتباط التوبة بحال المذنب مع الذنب، تبين الآية الكريمة ارتباط التوبة من المذنب بالزمن ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: القريب فيما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت. وعن الضحاك: كل شيء قبل الموت فهو قريب[٣] قال الزمخشري رحمه الله تعالى: والزمان القريب ما قبل حضرة الموت، ألا ترى إلى قوله سبحانه وتعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ فبين أن وقت الاحتضار وهو الوقت الذي لا تقبل فيه التوبة، فبقي ما وراء ذلك في حكم القريب. وذكر رحمه الله تعالى من الفوائد البيانية: عن جملة ﴿مِن قَرِيبٍ﴾ معناه التبعيض، أي يتوبون بعض زمان قريب، كأنه سمى ما بين وجود المعصية

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٩٨)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/٥٠٧)

(٣) المرجع السابق (٦/٥١٢-٥١٣)

وبين حضرة الموت زماناً قريباً. ففي أي جزء تاب من أجزاء هذا الزمان فهو تائب من قريب(١) فهؤلاء الذين تابوا من قريب، أي قبل ورود الموت لهم فإن الله تعالى يتوب عليهم ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ﴾ وهذا من عظيم فضله وكرمه سبحانه وتعالى، إذ يتوب على التائب من الذنب، إذا تاب قبل معاينة الموت. وهذا يدل على وجوب الاستعجال في التوبة من كل ذنب حال وقوعه، لأن الإنسان لا يدري متى يُعاين الموت وسكراته.

ثم ختم الله تعالى الآية الكريمة بما هو له من كمال الإحاطة بأعمال العباد وتوبتهم ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ فإن ربكم سبحانه وتعالى عالم عليم بالعبد وذنبه وتوبته، ومحيط بعلمه لكل حدث وخائنة، وأنه حكيم في قبوله لتوبة عبده، وحثه عليها، فليس أمره وفعله إلا بحكمة بالغة جَلَّ شأنه. ومن الفوائد أن دلالة ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ وردت في سياق التوبة، بما يفيد أنها عن التائب والتوبة، ولكن جاء بيانها على وجه العموم، لتفيد أن الله تعالى عليم بكل شيء، والتي منها ما يخص العبد وذنبه وتوبته، وأنه حكيم سبحانه وتعالى في كل فعل وأمر ونهي، ومنها أمر التوبة وقبولها وما يتعلق بها. فسلطان حكمته في كل شيء، كما أن في إثبات العلم والحكمة له تبارك وتعالى يفيد نفي الضد، فلا يجهل ربنا تبارك وتعالى شيء من أعمال عباده، وكذلك لا يخفى عليه شيء، وليس هناك عبث فيما يقضي ويفعل ويأمر وينهى جَلَّ جلاله. فإن كمال العلم والحكمة تامة له تبارك وتعالى.

وبعد إثبات التوبة والحث عليها، يبين تبارك وتعالى من تنتفي عنهم قبول التوبة ﴿ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾ فنفى تبارك وتعالى التوبة عن الذين يعملون السيئات التي هي: المعاصي. فليست التوبة

(١) الزمخشري، الكشاف (٥٠١/١)

للذين يعملون السيئات من أهل الإصرار على معاصي الله عَزَّ وجل[١] فليس لهؤلاء توبة إذا عاينوا الموت، وأرادوا التوبة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ وكذلك الصنف الثاني: الذين يموتون وهم كفار ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ فهذه توبة اضطرار ومعاينة لفراق الدنيا، وليست توبة مبنية على الاختيار، والرغبة في طاعة الله تعالى، والخوف من عاقبة الذنب ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فجزاء هؤلاء عذاب أليم، وموجع، ومقيم إن كانوا غير مسلمين. وأما العصاة من المسلمين فلا يُخلَّدون في العذاب، فإن شاء الله تعالى غفر لهم ذنوبهم، وإن شاء عذبهم دون خلود لهم في العذاب، فمآلهم الجنة. والله رحمان رحيم. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى في دلالة الآية: وإن كانت الإشارة بقوله إلى الجميع، فهو في جهة العصاة عذاب لا خلود معه، وهذا على أن السيئات ما دون الكفر. أي ليست التوبة لمن عمل دون الكفر من السيئات ثم تاب عند الموت، ولا لمن مات كافراً فتاب يوم القيامة. وعن الوجه الثاني قال رحمه الله تعالى: وقد قيل: إن السيئات هنا الكفر، فيكون المعنى وليست التوبة للكفار الذين يتوبون عند الموت، ولا للذين يموتون وهم كفار[٢]

ومن فوائد هذا البيان القرآني الكريم التشديد والتهويل لأهل المعاصي من المسلمين، بأن يبادروا إلى لتوبة، حيث قرن الله تعالى بين الصنفين من أهل المعاصي والكافرين في الجزاء. وهذا على أساس القول بأن الذين يعملون السيئات هم من أهل المعاصي من المسلمين. وأما في حال أن المقصود بالذين يعملون السيئات هم الكفار، فعذابهم خلود. وهذان الوجهان فيهما فائدة: نوع الزجر وقوته في البيان القرآني، بما يهول ويخوف أهل المعاصي من المسلمين، فيدفعهم إلى المسارعة في الطاعة، والمبادرة إلى التوبة، والإقلاع عن المعاصي، والرجوع إلى الله تعالى. والخوف من أن يدركه الموت على معصيته، وهذه دقة في المقصد، ومعجزة بيانية، ذات قيمة تربوية، وإصلاحاً رفيعاً، إذ أنها تجعل المؤمن العاصي في وجل وخوف من دلالة النص التحذيري والترهيبي، وأما من حيث

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥١٦/٦)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦٢/٥)

الوجه البياني فإنها ذات إعجاز بياني عظيم، إذ كيف احتضنت دلالتين محتملتين، فأكرم به من إعجاز رباني كريم.

ومن الفوائد: أن هذا النص القرآني الكريم يحمل أسلوب الترهيب العميق، لما فيه قوة الزجر والتهويل والتعظيم لحال العاصي الذي يتهاون في التوبة، والذي لا يدري متى يأتيه الأجل، وقد يأتيه وهو في حال المعصية، وربما بعد المعصية وقبل التوبة. فاسأل الله تعالى أن يوفقني والمسلمين للتوبة النصوح، وأن نفوز بها كما يحب ربي ويرضى.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾

يعالج السياق التوجيهي الكريم حقوق المرأة، ومنهجية التعامل معها بما يمنع الإضرار بها، وظلمها. فقد توجه خطاب رب العالمين إلى أولياء المرأة بصيغة النداء، وبصفة الإيمان التي تمثل المنزلة الرفيعة للمسلم، فقال الله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ يا من آمنتم وصدقتم. فقد حمل هذا النداء في دلالته لفتة الانتباه، وإرعاء السمع، وأخذ الأمر بما تضمن من توجيه، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان، التي يلزم مضمونها الامتثال بما آمنتم به، وكذلك تَحْمِلُ في دلالتها، التكريم للمُخَاطَبين، إذ ناداهم ربهم بصفة الإيمان، وهي رتبة عظيمة، ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده المؤمنين بها، والتي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر عن عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له، وخُوطِبُوا من أجله، وأُمِرُوا به، وكل هذا في شأن المرأة، مما يدل على مكانتها ومنزلتها في الإسلام، حتى حظيت بالرعاية والوصية بشأن تكريمها، وعدم هضم حقوقها والإضرار بها.

ثم يبدأ التوجيه الرباني الكريم بالنهي عن أول نوع من أنواع الإضرار ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا ﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كانوا إذا مات الرجل، كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها، وهم أحق بها من أهلها. فنزلت هذه الآية[١] وهذا يبين أن من فوائد نزول القرآن الكريم منجماً، أن فيه معالجة لواقع الناس، وبيان لما كانوا عليه من ظلم بعضهم بعضا، بموجبات مجحفة في حق بعضهم بعضا، فكان الإسلام رحمة على العالمين.

وقد جاء النهي بصيغة النفي ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمۡ ﴾ فنفى الحلال، ليُثبت به أن الفعل المنهي عنه حرام، وهو في هذه الصورة أكثر تصويراً وتأثيراً للنفس البشرية، فلا يحل لكم ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا ﴾ فلا يحل لكم هذا النوع من التوارث، فهو محرمٌ عليكم أن تأخذوهن على سبيل الإرث، مع كرههن لذلك. فبينت الآية الكريمة موقف المرأة من ذلك بأنها كارهة مُكْرَهَةٌ على ما يُصْنَعُ بها.

ومن الفوائد البلاغية: أن موقع لفظة ﴿كَرۡهٗا ﴾ إما أن تكون متعلقة بالنساء، فيكون دلالتها: كارهات لهذا التعسف، وإما أن تكون متعلقة بالأولياء، فيكون دلالتها أنها مُكرهة على ذلك من ورثة زوجها، فشملت واستوعبت الدلالتين الحاصلتين من الورثة، ومن كرهها لذلك. وهذه من العمق البلاغي للقرآن الكريم، بأن يؤدي موقع اللفظة أكثر من دلالة مقصودة، فيستوعب ما أُحيط بالأمر من بيان. فسبحان من استوعب كلامه مقصده، وسبحان من أبهر وأعجز كلامه عباده من الناس والجن أجمعين. ومن الفوائد أن جاء النهي بعد آيات وقضايا المواريث، ليخرجن النساء عن صنف ما يتوارثه الوارثون من أهل المُتَوَفَّى. وهذا في باب التناسق والتكامل وجمال ودقة الترتيب البياني المتدرج، ومقاصده في الاستيعاب والفهم.

---

(١) البخاري (٣/٢١٦) برقم (٤٥٧٩)

وتستوعب رحابة الآية الكريمة المزيد من الدلالات، قال مجاهد: كان الرجل يكون في حجره اليتيمة، هو يلي أمرها، فيحبسها رجاء أن تموت امرأته فيتزوجها، أو يزوجها ابنه. وقال ابن كثير: فالآية تعم ما كان يفعله أهل الجاهلية، وما ذكره مجاهد ومن وافقه، وكل ما كان فيه نوع من ذلك، والله أعلم[١] مما يبين استيعاب ذلك لجميع ما كان يدور في أعراف أهل الجاهلية من ظلم للمرأة، واعتبارها كالسلعة، والمال.

ومما نهى الله تعالى عنه لضبط حقوق المرأة، هو عضلها ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ فنهى عَزَّ وجل عن عضلهن، وهو المنع والحبس والتضييق والإكراه، بهدف أن تفتدي نفسها بصداقها، أو بما عندها من مال. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي لا تُضاروهن في العِشْرَة، لتترك ما أصدقتها، أو بعضه، أو حقاً من حقوقها عليه، أو شيئاً من ذلك، على وجه القهر لها والإضرار. وعن عباس رضي الله تعالى عنهما: لا تقهروهن ﴿لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ يعني الرجل تكون له المرأة وهو كاره لصحبتها، ولها عليه مهر، فيضرها لتفتدي به، وكذا قال الضحاك وقتادة وغير واحد[٢] مما يبين ويفيد قوة وحكمة معالجة الإسلام لشأن المرأة، وإنقاذها مما كانت فيه من القهر والذل.

ثم استثنى تبارك وتعالى ما يُوجب ذلك، وهو ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ فموجب ذلك أن تقترف فاحشة. ولفظة فاحشة تشمل: الزنا، النشوز والعصيان وبذاء اللسان، وسوء العشرة قولاً وفعلاً، فهذا يبيح مضاجرتها حتى تُبرئه من حقها أو بعضه، ويفارقها[٣] والفاحشة لفظة لما عظم قبحه من الأفعال والأقوال[٤] لتستوعب العظيم، وتستثني الصغائر التي لا يسلم منها أحد من الناس، وهذا من عدل الإسلام في مراعات الطبيعة البشرية، المتمثلة في عدم

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٧٦/١)

(٢) المرجع السابق (٤٧٦/١)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦٣/٥) وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٧٧/١)

(٤) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (٣٧٣-٣٧٤)

العصمة من الخطأ كما في هذا المقام. ومن فوائد هذا الاستثناء تحقيق المصلحة للطرفين، بأن في ذلك تأديب للمرأة المتعدية، واستيفاء الزوج حقوقه منها.

ثم بين سبحانه وتعالى منهجية المعاشرة بأقصر الألفاظ وأشمل وأعم المعاني، لتستوعب جميع أنواع ومساحات المعروف، والمستوعبة لكل القدرات في البذل حسب الوسع والممكن من طيب المعاملة، فندب جَلَّ جلاله إلى حُسن العشرة ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ فأمر تبارك وتعالى بالمعاشرة الجميلة المتلئة بالمعروف من طِيب الكلام والإحسان في الأقوال والأفعال والهيئات، كما يحب كل واحد من الآخر أن بكون له عشيره، وقد دلت وبينت سنته صلى الله عليه وسلم ومعاشرته ووصاياه ذلك بياناً وتفصيلاً واضحاً وكاملاً.

ولفظة عاشروهن من العشير والمعاشر، والعشيرة هم أهل الإنسان الذين يتكثر ويتقوى بهم، ويصيرون له بمثابة العدد الكامل، وذلك أن العشرة هو العدد الكامل[١] ومن هذه المعاني والدلالات للفظة ومشتقاتها ما يدل على عظيم المعايشة بين الزوجين، وما يطلبه الأمر من الاحتمال لكل واحد منهم للطرف الآخر، فدلالة ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ ﴾ تتطلب المعايشة مع التحمل والبذل، وجاءت بصيغة الأمر، الذي يفيد الوجوب، وأن تكون صفة هذه المعاشر ﴿ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ وهي لفظة مستوفية لكل محتويات ومشتقات الإحسان والجميل من التعامل، في القول والعمل والنفقة، وهذه من الدقة البيانية للقرآن الكريم في استيعاب ألفاظه وجُمَله لكل المعاني المقصودة والمطلوبة، والمنهي عنها، أو التشريعية والإيضاحية والبيانية.

ثم ندب سبحانه وتعالى إلى الصبر في المعاشرة، وعلى ما يبدر مما لا يتحمل العشير ﴿ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ أي: فعسى أن يكون صبركم في إمساكهن مع الكراهية فيه خير كثير لكم، في الدنيا والآخرة، كما قال ابن

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (٣٣٥)

عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: هو أن يعطف عليها، فيرزق منها ولداً، ويكون في ذلك الولد خير كثير[(١)]

وفي منهجية المعالجة التي تضمنها التوجيه الكريم من رب العالمين أنه لم يجرد الإنسان من مشاعره، كما لم ينف عنه ما يكنه القلب من الكراهية التي تحدث نتيجة سوء العشرة، بل أثبتها ﴿ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ ﴾ ثم بين ما قد يختفي وراء هذه الكراهية من الخير، التي يجهلها، ولا يعرف نوعها ولا قدرها إلا الله سبحانه وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ وفي هذا استحثاث للعشير بالصبر، لتلقي ما خفي من الخير خلف ما يكره. وهذا الخير الذي يكمن خلف الصبر على ما يكره العشير من عشيرته، ليس هو نتيجة محدودة معروفة: نوعاً وقدراً، فيتمخض عنها الصبر، بل هي أعظم من ذلك بكثير، وذلك من خمسة أوجه: **الوجه الأول:** أن الله تعالى هو المتكفل بذلك ﴿ وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ **والوجه الثاني:** أنه خير، لا شر فيه ﴿ وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ **والوجه الثالث:** أنه كثير ﴿ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ **والوجه الرابع:** أن هذا الخير مضمون، وغير محدود بنوع معين، ليستوعب كل وجه من أوجه الخير التي لا يعلمها إلا الله الغني الكريم، فإنه ﴿ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ والكثير من عند الله تعالى ليس كالكثير من عند غيره من المخلوقين، لأن خيره عطاء بلا حساب. **والوجه الخامس:** أن هذا الخير لم يُحدد بالدنيا فقط، بل كان عاماً، ليرجوا العشير الخير من ذلك في دار معاشه ومعاده.

ومن الفوائد: أن دلالة ﴿ فَعَسَىٰٓ ﴾ تفيد الطمع والترجي، وهي هنا تحفز وتستطلع قلب المؤمن ليكون متعلقاً بالله تعالى وبما سيعطيه الغني الكريم، فيكون أكثر قرباً من الله تعالى، وتعلقاً به عَزَّ وجل، حينما يتشوف ويستطلع ويترقب ويترجى عطاء ربه جَلَّ في علاه، وإلا فهي في حق الله تعالى ضمان وعطاء، لأنه المالك والمعطي الذي لا يَرْتَجِي شيئاً. فتضمنت دلالة الآية الكريمة

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٧٧/١)

التشجيع والتحفيز على الصبر، مما يفيد أن المعاشرة الزوجية مبنية على التصبر والتحمل، واليقين بأن الله تعالى سيمنحه خيراً كثيراً على ما صبر عليه.

ثم يبين الله تعالى منهجية المفارقة لمن رجَّح فراق الزوجة واستبدالها بزوجة أخرى، لعدم قدرته على احتمال ما هو منها ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ فعالج الله تبارك وتعالى الأمر معالجة أخلاقية كريمة في حق الزوجة المفارق لها زوجها، بأن لا يأخذ شيئاً من صداقها الذي أعطاها، ولو بلغ هذا الصداق من الكثرة قنطاراً، وهو الشيء العظيم في كثرته، وفي هذا ما يفيد جواز بذل المال الكثير في الصداق.

وفي جملة ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ ﴾ ما يفيد أن الرغبة صادرة من الزوج، وبالتالي جاء المنع من أخذ شيء من الصداق، ولو كان المدفوع مُبَالَغ في قَدْرِهِ من الكثرة، فإنه حق لها، مما يفيد أن الأصل في الصداق أنه حق للزوجة. ودلالة ﴿شَيْـًٔا ﴾ تفيد الجزء والبعض، بمنع الأخذ ولو جزءاً يسيراً من القنطار الكثير.

ثم بين تبارك وتعالى حكم أخذ هذا المال ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ أي: ظلماً، أي أتأخذونه مباهتين آثمين[1] وفي وصفه بالبهتان والإثم ما يُزَهد الزوج من أخذه، أو يفكر فيه، وهو أسلوب علاجي قطعي باستثارة الشعور بالإثم والظلم، والذي يُوقف النفس عن أخذه، بل تستكره لأن الله تعالى أحاط أخذه بحكم البهتان والظلم والتعدي الواضح البين الذي لا غموض ولا شبهة في بهتانه وإثمه ﴿بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ وورد تقبيح أخذه بصيغة السؤال الاستنكاري، الذي يستنكر إخراجه من أصل تملكها له. فيكون ﴿بُهْتَـٰنًا ﴾ وهو الافتراء، والظلم، والزور، والإفك ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ معصية واضحة بينة، فتأثمون بأخذه.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٠٢/٢)

ومن الفوائد الفقهية أن هذا في حق من وطئها، أو خلا بها، وقد بينت ذلك الآية التي بعدها. قال القاضي أبو يعلى: وإنما خص النهي عن أخذ شيء مما أعطى بحال الاستبدال، وإن كان المنع عاماً، لئلا يظن ظان أنه لما عاد البضع إلى ملكها، وجب أن يسقط حقها من المهر، أو يظن ظان أن الثانية أولى بالمهر منها، لقيامها مقامها[١]

وفي هذه الآية الكريمة ما يفيد عناية الإسلام بحق الزوجين، إذ أباح له مفارقتها، وحَصَّنَ صداقها من الأخذ، مهما بلغ من الكثرة. ومن الفوائد منهجية إقناع الزوج من الالتفات لما أعطى من مهر وذلك بتصوير أخذه بالظلم، وأن من يأخذه فهو ظالم مباهت وآثم في ذلك، وهو أسلوب منع وتحذير من الالتفات إليه، ومن وجه آخر فيه تطمين للمرأة بأنه حق لها، وأنه حلال، لأن أخذه إثم وظلم. لتطيب نفسها بما هو عندها من الصداق. فيكون بذلك معالجة نفسية للطرفين، بإباحته للزوجة، وإعفاف الزوج عنه، بعدم التطلع إليه، أو التفكير فيه.

وقد جاء النهي عن أخذه بأسلوب الاستفهام الاستنكاري ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ الذي يفيد أن أخذه لا يليق بالزوج، ثم يتأكد هذا باستفهام استنكاري آخر، اسْتَطْلَعَت به الآية التي تلتها ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي: كيف تستجيزون أخذ الصداق، وقد حصلت بينكم الخلوة والجماع؟ ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾ سؤال استنكار، وإعفاف للزوج بما كان منهما. وهذا يفيد أنه أصبح حلالاً عليها، ومحرمٌ على الزوج، فكيف تستبيحون أخذه، وعلى أي وجه تأخذونه من نسائكم.

ثم إن هذا النهي جاء في صيغة الاستفهام الاستنكاري، الذي يفيد التغليظ والتهديد والوعيد، والذي يستنكره الحق والصواب. ثم يُورد تبارك وتعالى بعده التعليل مباشرة، وهما علتان قويتان: فالأولى: بسبب ما حصل بينكم من الإفضاء ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ

(١) المرجع السابق (١٠٢/٢)

بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ والثانية: أخذ الميثاق الغليظ ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ وهو ما أُخذ للمرأة على زوجها عند عقد النكاح من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.

وفي هذا الأسلوب الاستفهامي ما يفيد الاستنكار، مع عضده بالتعليل الذي يستجيش القلب، ويستثير العقل نحو العدل والحق، والتعفف، والارتقاء بالنفس وأخلاقها، إذ كيف تستحلون أخذ الصداق ﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ والإفضاء: الخلوة والجماع، ولكن الله تعالى يكنى بذلك، لأنه كريم، حيي سبحانه وتعالى، وأصل الإفضاء في اللغة المخالطة. وهناك تفصيل فقهي حول هل يتقرر المهر بالخلوة أم لا [(١)] مما يفيد أهمية الحياء، وتربية النفس على الحياء لفظاً وفعلاً، وأهمية انتقاء الألفاظ التي تؤدي المعنى، دون التصريح.

فالعلة الأولى الموجبة لترك المهر هو ﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ والعلة الثانية: هي المواثيق ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ وهو ما أُخذ للمرأة على زوجها عند عقد النكاح من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، وفي وصفه بالغليظ ما يفيد قوة هذا الميثاق وعظمة محتواه، وما انطوى عليه واستلزمه من الحقوق والمعروف والإحسان.

ومن مزيد الفوائد في الأساليب: أن الله تعالى بدأ بالبيان، ثم بالحكم في الصداق ﴿ فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ ثم النهي عن أخذه بأسلوبين: الأول ﴿ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ مشتملاً على علة النهي، المتضمنة أنه عدواناً على الصداق، وأنه افتراءً وإثماً واضحاً بيناً. والأسلوب الثاني: التعليل الاستنكاري المتضمن لما حصل بين الزوجين من المعاشرة ﴿ وَكَيْفَ

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٤٠/٦-٥٤٨) والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦٧/٥-٦٨) وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٧٧/١-٤٧٨)

تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ فكأنه سؤال، كيف يليق أخذه بعد هذه المعاشرة التي وصلتم بها إلى الخلوة والجماع، ثم تنتهي المعاشرة بينكما بأخذ مهرها والطمع في مالها، فإنه لا يليق ذلك بمقام هذه العشرة ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ففيه مخاطبة للنفس والعقل والعاطفة، والنخوة ومكارم الأخلاق التي تستثير الإنسان وتجعله يستيقظ من غفلته. ثم العلة الأخرى، التي تمثل عقد النكاح، وما أُخذ من العهود والوصايا ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ ودلالة ﴿ وَأَخَذْنَ ﴾ تفيد التوثق والإمساك بما معهن مما قلتم من العهود والمواثيق، فكيف تنقضون مواثيقكم وما تعهدتم به. فهو أسلوب غاية في البلاغة والمحتوى البياني، والمحتوى الأخلاقي، والمحتوى التأثيري على النفس والعاطفة والعقل، بما يدفع المُخَاطَب إلى التعقل، والأخذ بما وجَّهَهُ به النص والحكم القرآني الكريم. وهذا من كريم ربنا تبارك وتعالى، إذ لم تكن أحكامه خالية من جوانب التأثير النفسي والعقلي والعاطفي. فالحمد لله على كريم فضله وعطائه، وجميل بيانه وخطابه.

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَۚ

فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةًۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾

تعالج وتبين هذه الآيات الكريمات ما يحرم نكاحهن من النساء، فتصدرت الآية الأولى الكريمة بما يتعلق بالأب، الذي هو أصل للولد، وخاطبت الولد بالنهي الذي يتحقق به التحريم ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ فحرم الله تبارك وتعالى زوجات الآباء تكرمة لهم، وتعظيماً واحتراماً أن تُوطَأ من بعده، حتى أنه تحرم على الابن بمجرد العقد عليها، وهذا أمر مُجْمَعٌ عليه[١] ومن عفو الله تعالى وكرمه أن تجاوز عما سلف من الإثم فيمن فعل ذلك ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ فلا تنكحوا ما نكح آباؤكم، فإنكم تُعَذَّبُون به، إلا ما قد سلف، فقد وضعه الله عنكم[٢] ولعظيم التجاوز في هذا النكاح المحرم، فقد عَظَّم اللهُ تعالى فعله واقترافه بأشد الأوصاف، فقد عَقَّب الله تبارك وتعالى ذلك بالذم البالغ والمتتابع، بما يدل على عظيم شناعته ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ فأنكره وقبحه تبارك وتعالى بثلاثة أوصاف:

فسماه فحشاً ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ وهو ما تناها قبحه من الأفعال والأقوال، وهو كناية عن الزنا[٣] وسماه كذلك ﴿وَمَقْتًا﴾ وهو البغض الشديد لمن تراه تعاطى القبح الشديد، وكان يُسَمَّى نكاح الرجل من امرأة أبيه: نكاح المقت[٤] وهذا في الجاهلية، وقد كانوا يُسَمُّون الولد منه المُقتي. فكأنه قيل: هو فاحشة في دين الله تعالى بالغة في القبح، وقبيح ممقوت

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٧٩/١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٠٣/٢- ١٠٤)

(٣) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (٣٧٤)

(٤) المرجع السابق، ص (٤٧٠)

في المرؤة، ولا مزيد على ما يجمع بين القبحين[١] ثم مقت الله تعالى سبيل وطريقة هذا النكاح ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي بئس طريقاً ومنهجاً ما كنتم تفعلونه في جاهليتكم، من المناكح التي كنتم تناكحونها[٢]

وهذا النوع من النكاح يشمل الأب وإن علا[٣] وذكر ابن كثير رحمه الله تعالى: أنه على كل تقدير فهو حرام في هذه الأمة، مُبْشِع غاية التبشع. وزاد عن بشاعة الزنا أن وصفه بالمقت ﴿وَمَقْتًا﴾ حيث قال تعالى عن الزنا في سورة الإسراء ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ فذكر المقت في نكاح ما نكح الآباء ولم يذكره في الزنا، أي بغضاً، أي هو كبير في نفسه، ويؤدي إلى مقت الابن أباه بعد أن يتزوج بامرأته[٤] وهذا أشد التشنيع في التقبيح له، فأصلح الله تعالى بهذا الدين جميع أصناف أعمال الجاهلية السيئة.

وبعد بيان تحريم نكاح ما نكح الآباء، جاء بعده تحريم المحارم من النسب، والرضاع والمصاهرة، واقتصر البيان القرآني الكريم على الحكم، وهو التحريم، دون ذكر نكاحهن، ليدل على أنه واقع على النكاح، فقال عَزَّ وجل ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ فدل التحريم أنه واقع على النكاح بدلالة الكلام، وكذلك لما سبق من قوله تعالى ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ وهذا من دقائق البيان البلاغي، الذي يستغني بكفاية ودلالة غيره عليه. وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: ولأن تحريم نكاحهن هو الذي يُفهم من تحريمهن، كما يفهم من تحريم الخمر: أنه تحريم شربها، ومن تحريم الخنزير: تحريم أكله[٥] قال الإمام ابن جرير

---

(١) الزمخشري، الكشاف (١/٥٠٥)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/٥٥٣)

(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٣٣٤)

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٤٧٩)

(٥) الزمخشري، الكشاف (١/٥٠٦)

الطبري رحمه الله تعالى: وترك ذكر النكاح اكتفاء بدلالة الكلام، وكان ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يقول: حَرُم من النسب سبعٌ، ومن الصهر سبعٌ، ثم قرأ ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾ فكل هؤلاء اللواتي سمَّاهن الله تبارك وتعالى، وبين تحريمهن في هذه الآية، محرمات، غير جائز نكاحهن بإجماع جميع الأمة، لا اختلاف بينهم في ذلك إلا في أمهات نسائنا اللواتي لم يدخل بهن أزواجهن، فإن في نكاحهن اختلافاً بين بعض المتقدمين من الصحابة[١] وذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أن الله تعالى ذكر في هذه الآية الكريمة: ما يحل من النساء وما يحرم، كما ذكر حليلة الأب، فحرم الله سبعاً من النسب، وست من رضاع وصهر، وأَلْحَقَتِ السنَّةُ المتواترة سابعة. وذلك الجمع بين المرأة وعمتها، ونص عليه الإجماع. وكذلك الجمع بين المرأة وخالتها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تُنْكَح المرأةُ على عمتها، ولا على خالتها) [٢] وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وسلم (لا تُنكح العمَّة على بنت الأخ، ولا ابنة الأخت على الخالة) [٣]

فإن السبع المحرمات من النسب: الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت. والسبع المحرمات بالصهر والرّضاع: الأمهات من الرضاعة، والأخوات من الرضاعة، وأمهات النساء، والربائب، وحلائل الأبناء، والجمع بن الأختين، والسابعة: ما نكح الآباء ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ قال الطحاوي: كل هذا من المحكم المتفق عليه، وغير جائز نكاح واحدة منهن بالإجماع، إلا أمهات النساء اللواتي لم يدخل بهن أزواجهن، فإن جمهور السلف ذهبوا إلى أن الأم تحرم بالعقد على الابنة، ولا تحرم الابنة إلا

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/٥٥٣-٥٥٥)

(٢) مسلم (٢/١٠٢٩) برقم (١٤٠٨)

(٣) مسلم (٢/١٠٢٨) برقم (١٤٠٨)

بالدخول بالأم. وبهذا قول جميع أئمة الفتوى بالأمصار. وقالت طائفة من السلف: الأم والربيبة سواء، لا تحرم منهما واحدة إلا بالدخول بالأخرى(١)

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أما أم المرأة فإنها تحرم بمجرد العقد على بنتها، سواء دخل بها أو لم يدخل بها. وأما الربيبة وهي بنت المرأة، فلا تحرم حتى يدخل بأمها، فإن طلق الأم قبل الدخول بها جاز له أن يتزوج بنتها، ولهذا قال تعالى ﴿وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا جناح عليكم في تزويجهن، فهذا خاص بالربائب وحدهن. وقد فهم بعضهم عود الضمير إلى الأمهات والربائب، فقال: لا تحرم واحدة من الأم ولا البنت بمجرد العقد على الأخرى حتى يدخل(٢) وقال رحمه الله تعالى: فالجمهور على أن الربيبة حرام، سواء كان في حجر الرجل أو لم تكن في حجره(٣)

وذكر سبحانه وتعالى الأمهات من الرضاعة ﴿وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ وسماهم أمهات لموضع الحرمة(٤) مما يفيد مكانة الرضاعة، ومكانة المرضع، وثمن معروف ما أرضعت، حتى وصلت بما أرضعت إلى مصاف الأم من الحرمة، فبلغن مبلغ الأم، فوجب لها من الحقوق والمنزلة مبلغاً رفيعاً. قال الإمام الزمخشري رحمه الله تعالى: وقد نزل الله تعالى الرضاعة منزلة النسب، حتى سمى المرضعة أماً للرضيع، والمراضعة أختاً، وكذلك زوج المرضعة أبوه، وأبواه جداه، وأخته عمته، وكل ولد وُلِدَ له من غير المرضعة قبل الرضاع وبعده إخوته وأخواته لأبيه، وأم المرضعة جدته، وأختها خالته، وكل من ولد لها من هذا الزوج فهم أخوته وأخواته لأبيه وأمه، ومن ولد لها

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥/٧٠)
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٤٨١)
(٣) المرجع السابق (١/٤٨٢)
(٤) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/١٠٥)

من غيره فهم إخوته وأخواته لأمه[١] فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم في بنت حمزة (لا تَحِلُّ لي، يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب، هي بنت أخي من الرضاعة)[٢]

وذكر سبحانه وتعالى أمهات الزوجات ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ﴾ فهن من المحارم، إذ يحرمن بمجرد العقد على بنتها. مما يفيد منزلتها التي تغيرت بعد العقد على ابنتها، لتصبح من المحارم، فيكون لها من التكريم والحقوق ما يساوي هذا التغيير في العلاقة التي أوصلتها إلى هذه المنزلة، كما أن في هذا من الناحية الأخلاقية والبناء الأسري، ما يزيل كل سبب سوء قد يحصل بسبب الاختلاط. فيستبعد به كل مظان السوء. فما أعظم أحكام الله تعالى.

وذكر سبحانه وتعالى الربائب ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾ وهي بنت امرأة الرجل من غيره، وسُمِّيت ربيبة، لأن الرجل يربيها، ويقوم عليها بما تحتاجه، كما يربي الآب ابنته. فإذا دخل الرجل بأمها أصبحت ربيبة، فتحرم عليه، لأنها أصبحت في منزلة بناته، وفي كنفه، فإن طلق الأم قبل الدخول بها جاز له أن يتزوج بنتها، ولهذا قال تعالى ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ وقوله تعالى ﴿ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ فهو قيدٌ خرج بمخرج الغالب، والربيبة تحرم ولو لم تكن في حجره[٣] ولكن للتقييد فائدتان: إحداهما التنبيه على الحكمة في تحريم الربيبة، وأنها كانت بمنزلة البنت، فمن المستقبح إباحتها. والثانية: فيه جواز الخلوة بالربيبة، وأنها بمنزلة من هي في حجره من بناته ونحوهن[٤] واستثنى حالة عدم الدخول ﴿فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ

(١) الزمخشري، الكشاف (٥٠٦/١)

(٢) البخاري (٢٤٩/٢) برقم (٢٦٤٥)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٤/٥) وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٨٢/١)

(٤) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣٣٥/١)

دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ لأنه لم يتحقق لها شيء من الرعاية والتربية، وما هو في حكمه، فلم تكن في حجره. وهذا التقدير في الحكم من فضل الله تعالى وكرمه، ليمتنع به أسباب التقاطع الأسري، وتحتجب به مضار أخلاقية عديدة. ومن فوائد ذلك كذلك أن الله تعالى هَدَى العباد إلى هذه المحرمات من النسب والمصاهرة والرضاع، وما كان لأحد أن يهتدي إليها لولا هداية الله تعالى بما بينه العزيز الحكيم، بل كان في الجاهلية ما يضاد ذلك، مع ما كانوا عليه من النباهة الفكرية، حتى تحداهم الله تعالى بأن يأتوا بمثل هذا القرآن العظيم الكريم.

وذكر تبارك وتعالى زوجات الأبناء ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ ﴾ أي وحُرِّمت عليكم زوجات أبنائكم الذين ولدتموهم من أصلابكم، احترازاً بذلك عن الأدعياء الذين كانوا يتبنونهم في الجاهلية[١]

وذكر سبحانه وتعالى الجمع بين الأختين ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ أي: وحُرِّمَ عليكم الجمع بين الأختين معاً في التزويج، وكذا في ملك اليمن، إلا ما كان منكم في جاهليتكم، فقد عفونا عنه وغفرناه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ وقد أجمع العلماء من الصحابة والتابعين والأئمة قديماً وحديثاً على أنه يحرم الجمع بين الأختين في النكاح، ومن أسلم وتحته أختان خُيِّر، فيمسك إحداهما ويطلق الأخرى لا محالة. وأما الجمع بين الأختين في ملك اليمين فحرام أيضاً لعموم الآية[٢]

وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله تعالى ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ ﴾ إلى آخر الآية، أن النكاح، وملك اليمين في هؤلاء كلهن سواء،

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٨٣/١)

(٢) المرجع السابق (٤٨٣/١)

وكذلك يجب أن يكون نظراً وقياساً الجمع بين الأختين وأمهات النساء والربائب، وكذلك هو عند جمهورهم، وهم الْحُجَّةُ المحجوج بها من خالفها وشذ عنها[(١)]

وتناولت الآية الأخرى من المحرمات: المحصنات من النساء ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ والمحصنات: هن ذوات الأزواج، لأن الأزواج أحصنوهن، ومنعوا منهن. والمحصنات الحرائر، وإن لم يكن متزوجات، وليست كالأمة[(٢)] والمحصنة: أي: العفيفة، والمحصنة إما بعفتها، أو تزوجها، أو بمانع من شرفها وحريتها. ومن الفوائد اللغوية: أن المُحْصن إذا كان حصنها من نفسها، والمُحْصَن إذا كان حصنها من غيرها[(٣)] فشمل لفظ ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾ نوعين: أحدهما بسبب زواجها، والنوع الثاني: الحرائر باعتبار أنهن لا يدخلن في مُلك اليمين.

والمراد بقوله تعالى ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ يعني ذوات الأزواج، حرم الله نكاحهن إلا ما ملكت اليمين، التي يحصل طلاقها ببيعها. وكذلك يدخل في المحصنات: العفائف، فهو حرام عليكم حتى تملكوا عصمتهن، بنكاح وشهود ومهور، وولي، سواء واحدة، أو اثنتين، أو ثلاثاً، أو أربعاً. وما عدا الأربع حرام عليكم إلا ما ملكت أيمانكم[(٤)] وبالتالي ضبطت معاني ودلالات لفظة المحصنات ما هو متعلق بغير المحارم من النسب والمصاهرة والرضاع، من المتزوجات، والحرائر، والنكاح بما تجاوز الأربع. ومستثنى من ذلك مُلْك اليمين. وهذا يفيد جوانب متعددة: أولاً: حفظ

---

(١) المرجع السابق (٤٨٥/١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٠٦/٢)

(٣) الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (١٢١)

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٨٥/١)

حقوق الأزواج الآخرين في زوجاتهم، فلا يتعدى عليهن أحدٌ، وحفظ وضبط الحكم الشرعي بعدم مجاوزة الأربع، وإباحة ملك اليمين من غير عدد. وكذلك حفظ حقوق النساء. وثانياً: أن في مضمون كلام ربنا تبارك وتعالى منهجية علمية وعملية في كيفية ضبط النصوص والاحترازات، والأنظمة المتعلقة بالمصالح المرسلة، وتحريرها بما يضبط ويسد جميع الفجوات الممكنة.

وفي هذا الاستثناء من المحصنات كما جاء في الآية الكريمة ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ استنبط واستدل بها بعض العلماء تفريعاً آخر للمفهوم، ليستوعب النص القرآني الكريم مضامين غزيرة من الأحكام بهذا النص الواحد، وذلك بسبب دلالة المعنى، وبسبب الارتباط اللفظي والدلالي للكلمة بما قبلها، وبما بعدها. وهذا يدل على غزارة المعطيات الفقهية للنص الواحد، الذي يؤكد ويبين غزارة البلاغة البيانية والإعجازية والفقهية للقرآن الكريم ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ فنقل الإمام القرطبي أقوال بعض الصحابة والعلماء: بأن المراد بالمحصنات هنا، المسبيات أي السبايا ذوات الأزواج خاصة، أي هن محرمات إلا ما ملكت اليمين بالسبي من أرض الحرب. فإن تلك حلال للذي تقع في سهمه وإن كان لها زوج[1] وذلك أن جيش المسلمين إلى أوطاس أصاب فيه المسلمون سبايا لهن أزواج من المشركين، فكان المسلمون يتأثمون من غشيانهن، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية[2] وهذا يفيد في بيان الحكمة من نزول القرآن منجماً، ليعالج القضايا التي كانت ترد على المسلمين، فتزيدهم علماً وفقهاً في دينهم، وتعالج قضاياهم، وما يعترضهم من حيرة حول بعض أمورهم. ولتكون قاعدة وحكماً لهم ولمن بعدهم.

ولقد أكد تبارك وتعالى النهي عن ذلك بحكم التحريم في مطلع الآية الكريمة ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ ثم يتأكد ذلك بتقرير تشريعه ﴿ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ فهذا التحريم كتاب، كتبه الله كتاباً عليكم، وفرضه فرضاً، فلا تخرجوا عن حدوده، والتزموا بشرعه وما فرضه عليكم.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥/٨٠)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/٥٦٣)

وفي هذا البيان وتنوع التأكيد ما يفيد التغليظ والتحذير، والردع، والحرص على الالتزام بما شرعه الله تعالى، وهذا يفيد كذلك عناية الشريعة بحصانة الفروج، وحفظ الأنساب والحقوق، ودلالة على أن هذا الدين هو دين نظام، وتنظيم عميق في أهدافه وغاياته، ودقيق في مقاصده وأحكامه، وأنه بهذه الدقة المتناهية لا يمكن أن يكون من عند غير الخالق الكريم. وهي نعمة عظيمة، إذ كفى عباده بتشريعه جهد التشريع والتنظيم الذي تعجز عن أن تأتي بمثله البشرية جمعاً، ودفع سبحانه وتعالى بأحكامه الشرور والعداوات والبغي والبغضاء والفساد.

ثم بين سبحانه وتعالى بعد حصر المحرمات الحكم العام ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ فكل ما لم يُذكر في هاتين الآيتين فإنه حلال طيب، فالحرام محصور، والحلال ليس له حد ولا حصر، لطفاً من الله تعالى ورحمة وتيسيراً للعباد[١] وقد بين جَلَّ ثناؤه المحرمات بالنسب والصهر والرضاع، ثم المحرمات من المحصنات من النساء، ثم أخبرهم جَلَّ ثناؤه أنه قد أحل لهم ما عدا هؤلاء المحرمات المبينات في هاتين الآيتين، أن يبتغيه العبد بماله نكاحاً وملك يمين، لا سفاحاً[٢] وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أن هذا التحليل ورد بلفظ العموم، وأنه عموم دخله التخصيص، والمخصص له، نهي النبي صلى الله عليه وسلم أن تنكح المرأة على عمتها، أو على خالتها[٣] وقد بين تبارك وتعالى علة طلب النكاح ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ فأول فوائد ذلك: تقرير المهر ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم﴾ ثم تقرير إحصان النفس عن الزنى ﴿مُّحْصِنِينَ﴾ وهو التعفف عن الزنى، ثم هدف التمنع عن السفاح بهذا الزواج والإحصان ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ أي غير زانين. وفي هذا التعليل الأخلاقي ما يفيد أهمية التعليل ليتأكد به الذهن أهمية المطلوب والمأمور به، وكذلك معرفة علة المنهي عنه، وهو من دوافع الأخذ والالتزام الإقناع. وفي هذا من الفوائد: أنه بالمقابل

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٣٣٦)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/٥٨٢)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/١٠٨)

للنص القرآني الكريم، فإن في ذلك تقرير حرمة الزنا، وحرمة دفع المال للمرأة من أجل الزنا، وذلك أن العلة في دفع المال هو مهراً لها وتحصناً، وليس سفاحاً ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ وفي ذلك من الفوائد البيانية: أن تضمن النص القرآني الكريم للحكمين: الأول: دفع المهر تحصناً، والثاني: ما هو ضده، وهو دفع المال سفاحاً، وهذه من روائع البلاغة البيانية.

ثم بين سبحانه وتعالى العلاقة بين متعة النكاح والمهر ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ فقرر تبارك وتعالى ما في النكاح من متعة، وقرر لهن تلك المهور فريضة مفروضة، وليس عطاء تبرع. فمن تزوجتموها فأعْطُوهَا المهر مقابل استمتاعكم بها. ومن الفوائد الجليلة: ترتيب وتنظيم العلاقة الزوجية، وفق ضوابط شرعية، وكذلك بأن أمعن العلماء النظر في دقائق النص، فقال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: الاستمتاع هو التلذذ، والأجور: المهور، وسمي المهر أجراً لأنه أجر الاستمتاع، وهذا نص على أن المهر يسمى أجراً، وذلك دليل على أنه في مقابلة البضع، لأن ما يقابل المنفعة يسمى أجراً. وقد اختلف العلماء في المعقود عليه في النكاح، ما هو؟ بدن المرأة أو منفعة البضع، أو الحل. ثلاث أقوال، والظاهر المجموع، فإن العقد يقتضي كل ذلك[١]

ثم يبين تبارك وتعالى حكم التراضي بعد أنفاذ ما يجب ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾ نفي الإثم عما يحصل من التراضي بين الزوجين: بإسقاط الزوجة شيئاً من مهرها، أو زيادة الزوج لزوجته في مهرها، وذلك عن رضا وطيب نفس[٢] ومن الفوائد اللغوية أن كلمة ﴿جُنَاحَ﴾ تعني الميل، لأن الإثم يميل بصاحبه عن الحق مثل جناح الطائر الذي يميل بالطائر. فهذا الإثم الذي يميل بصاحبه عن الحق، منفي بين الزوجين فيما يخص التراضي على الزيادة والنقصان في المهر عَمَّا تم الاتفاق عليه. فرفع اللهُ تبارك وتعالى الحرج، وفي

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥/٨٤)

(٢) ذكر ذلك الكثير من أهل التفسير، ومنهم الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/٥٩١)

هذا ما يفيد سماحة هذا الدين فيما فيه خير وفضل على الزوجين. ثم أتبع تبارك وتعالى ذلك بقوله العظيم عن علمه وحكمته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ فهو عليم بكم وبما أنتم عليه، فلا يخفى عليه شيء من أعمالكم ورغباتكم ومصالحكم، وهو حكيم في تشريعه لكم، إذ شرع لكم من الأحكام ما يضبط العلاقة بينكم، ويحق الحق به، وتتحقق به المصالح، وتندفع به المفاسد. فله سبحانه وتعالى الحمد والشكر وعظيم الثناء.

وقد أفادت دلالة ﴿عَلِيمًا﴾ شمول وكمال العلم، بحيث لا تخفى على الله تعالى خافية. وسواء ما كان، أو ما سيكون. فهو سبحانه وتعالى عليم بما كان وما يكون، وما سيكون من عموم خلقه، ومنهم الإنسان. فأعطت دلالة ﴿عَلِيمًا﴾ شمول وكمال علمه عَزَّ وجل، بحيث لا تخفى على الله تعالى خافية سبحانه وتعالى.

وأفادت دلالة ﴿حَكِيمًا ﴾ إنه عَزَّ وجل هو الحكيم الذي له كمال الحكمة. أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، وكمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. وكذلك ربكم حكيم فيما يأمر به، وينهى عنه. فإن أمره ونهيه عن علم وحكمة، مما يستوجب الأخذ والتمسك به. وبالتالي فإن من كان له كمال العلم والحكمة، عرف ما كان وما سيكون منكم، ومن كل شيء.

ومن دقائق البيان الكريم أن ورد العليم والحكيم ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ بصيغة المبالغة التي تفيد امتداد المعنى إلى أقصى غايته وكماله. كما استطلع البيان وابتدأ بحرف التوكيد ﴿إِنَّ ﴾ الذي يؤكد ما بعده من بيان، ثم بحرف ﴿كَانَ ﴾ الذي أفاد: أن الله تعالى عليم حكيم منذ الأزل، فهما صفتان عظيمتان جليلتان لله عَزَّ في علاه. ومن فوائد دلالة ﴿كَانَ ﴾ أنها تعطي اتصال الزمن من غير انقطاع بعلمه وحكمته تبارك وتعالى، لتعطي معنى الإخبار عن الصفة الدائمة المستمرة التي لا تنقطع، سابقاً ولاحقاً.

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا
مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ
فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ
وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى
ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ
وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٥) ﴾

تعالج هذه الآية الكريمة أمر من فقد استطاعة الزواج من المؤمنات الحرائر، لعجزه عن المهر ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ فمن عجز عن مهر الحرة فله أن يتزوج من الإيماء، التي هي ملك اليمين.

وفي اشتراط عدم الاستطاعة دليل على أنه لا يذهب إلى الإيماء إلا بحصول العجز، فمن عجز عن مهر الحرة وهو معنى ﴿طَوْلًا ﴾ فإن له أن يتزوج من الإيماء، التي هي ملك اليمين ﴿ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ فتزوجوا من الإيماء المؤمنات اللاتي يملكهن المؤمنون. وهذا يفيد أن الأولى نكاح الحرائر من المؤمنات، وتقديمهن على الإيماء، ولا يذهب إليهن إلا في حالة العجز عن مهرهن. كما أن في هذا التوجيه المبارك معالجة منهجية لقضايا المؤمنين من جميع الأوجه، وفي جميع الاحتمالات الممكنة، وأخذ الاحتياط بما يُحَصِّن المسلم، فكان التشريع في دقته متضمناً لأحوال الإنسان في قدراته الممكنة. والتي منها هذا الوجه الذي بصدده هذه الآية الكريمة.

وجاءت مساحة الاستطاعة بما يتناسب مع أحوال الفرد، والأزمان، فلم تُحَدَّد بمقدار محدود أو معدود، لتستوعب الأحوال والأزمان، فمقدار المهر الذي يكون في زمن قد لا يكون هو نفسه في جميع الأزمان، وما كان في بلد قد لا يكون هو المقدار في البلاد الأخرى.

ثم عزا علم الإيمان فيما بين الناس إلى علمه سبحانه وتعالى ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ﴾ فارتفع بذلك الحرج عن معرفة البواطن، ليأخذ المؤمن بالظاهر من غيره، وأما السرائر فعلمها عند الله تبارك وتعالى. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: إن الله تعالى أعلم بتفاضل ما بينكم وبين أرقائكم في الإيمان، ورجحانه ونقصانه فيهم وفيكم، وربما كان إيمان الأمة أرجح من إيمان الحرة، والمرأة أفضل من إيمان الرجل، وحق المؤمنين ألا يعتبروا إلا فضل الإيمان، لا فضل الأحساب والأنساب، وهذا تأنيس بنكاح الإيماء، وترك الاستنكاف منه[1] وفيه كذلك من الفوائد: أن الله تعالى هو العالم بحقائق الأمور وسرائرها، وإنما لكم الظاهر، فرفع الحرج عن علم البواطن في التحري عن حقائق

---

(1) الزمخشري، الكشاف (١٥١٢-٥١٣)

الإيمان. كما أفاد عظيم علمه عَزَّ وجل التحذير من تعدي حدوده وشرعه. ودلالة ﴿أَعْلَمُ﴾ تفيد أنه سبحانه وتعالى هو أعلم بحقائق إيمانكم من أنفسكم. فليس هناك أعلم من الله تعالى. بل أفاد قوله عَزَّ وجل ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾ حصر هذا العلم الدقيق له عَزَّ في علاه.

ثم أرشد سبحانه وتعالى إلى حقيقة أخرى، وهي ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ فلينكح بعضكم من بعض، فلينكح هذا فتاة هذا، وهذا فتاة هذا[1] فالله عليم ببواطن الأمور، ولكم ظواهرها، وكلكم بنو آدم، وأكرمكم عند الله أتقاكم، فلا تستنكفوا من التزوج بالإيماء عند الضرورة[2] وفي هذا توجيه للحقيقة التي تمنع التأفف من زواج الإيماء، بسبب النسب، أو بسبب كونها أمة. فتفاضل الإيمان، وحقيقة بعضكم من بعض عاملان قويان في معالجة التمنُّع لأسباب العادات، أو الترفع، ونحو ذلك. وفي هذا ما يفيد أهمية بيان الحقائق الغائبة عن المتعلم والمنصوح، والعودة به إلى الحقائق المزيلة للمتعلقات الفكرية الخاطئة، حتى يقبل صواب الحقائق، وينتصر بها على نفسه، وعلى ما كان متعلق بها من المفاهيم غير الصحيحة.

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: فأعلم اللهُ عَزَّ وجل أن أمر العبيد وغيرهم مستوفي في باب الإيمان، وإنما كره التزويج بالأمة وحَرُمَ إذا وُجِد للحرة سبيلا، لأن ولد الأمة من الحر يصيرون رقيقاً[3]

ومن الفوائد: أن العلماء استنتجوا من قوله تعالى ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ دلالة على تحريم نكاح إيماء أهل الكتاب، فإنهن لا يحللن إلا بملك اليمين، ذلك أن الله جَلَّ ثناؤه أحل نكاح الإيماء بشروط، فإذا لم تجتمع الشروط التي سماهنَّ فيهنَّ، فغير جائز للمسلم نكاحهن[4]

([1]) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٠١/٦) والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩٣/٥)

([2]) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩٣/٥)

([3]) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١١٠/٢)

([4]) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٠٠/٦) والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩٢/٥)

ثم نَظَّمَ تبارك وتعالى عملية الزواج بثلاثة شروط أو قواعد. فالأول: إذن الأهل ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ﴾ فشرط للزواج بالأمة إذن أهل الأمة. فدل على أن السيد هو ولي أمته، وكذلك هو ولي عبده، فليس لهما التزوج إلا بإذنه. والشرط الثاني: دفع المهر ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أي ادفعوا مهورهن بالمعروف، أي عن طيب نفس منكم، ولا تبخسوا منه شيئاً، استهانة بهن، لكونهن إماء مملوكات. والشرط الثالث: متعلق بنزاهتها ﴿مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖ﴾ ظاهراً ومتخفياً، مما لا يخفى ﴿مُحۡصَنَٰتٍ﴾ أي عفائف عن الزنا، لا يتعاطينه ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ﴾ وهن الزواني المعلنات لزناهن، فلا يمنعن أحداً أرادهن بالفاحشة. ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖ﴾ ذات الخليل والصديق للفاحشة(١) وبانضمام الشرط الْمُتَقَدِّم في الآية تكون أربعة شروط، وهو قوله تعالى ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ فالإيمان شرط في الأمة المراد نكاحها.

وهذا التنظيم الرباني المشروط بشروط الإنصاف والعدل في المهر، وتحقق الإيمان، وإذن الأهل، والعفاف والنزاهة من الفاحشة بطرقها المختلفة، ما يبين حرص الإسلام ودقته على مصالح الأفراد، ونظافة المجتمع، ونزاهة البيت، كما أن في ذلك تربية وهجراً للفاسدة حتى ينصلح شأنها، وتتعظ بها غيرها. مما يفيد أن الهجر والترك للفاسدات، أسلوب تربوي ووعظي وعلاجي ووقائي.

وهذا الإذن في الإيماء لمن خاف من نفسه ارتكاب الفاحشة، فيتزوج من الإيماء ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡ﴾ كما سيأتي بيانه في موضعه قريباً.

ثم يبين تبارك وتعالى ما عليهن من الحدود بعد الإحصان ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ فإذا الإيماء تزوجن أو أسلمن، فعليهن نصف ما على الحرائر من العذاب الذي يمكن تنصيفه إلى نصفين، وهو الجلد، وأما

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٨٧/١)

الرجم فليس عليهن رجم لأنه لا ينتصف[١] وللعلماء تفصيل وتنويع في ذلك بحسب دلالة جملة ﴿ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ ﴾ والتي من فوائدها اللغوية والدلالية: أن أُحْصِنَّ أي تزوجن، ومعنى أُحْصِنَّ زُوِّجْنَّ، والحصان في الجملة المُحْصَنَة، إما بعفتها، أو تزوجها، أو بمانع من شرفها وحريتها. والْمُحْصِن من كان حِصْنُهَا من نفسها، والْمُحْصَن إذا كان حصنها من غيرها[٢] مما يفيد أن المسلمة، محصنة بإسلامها، والحرة محصنة بسبب حريتها إذ ليست أمة، والمتزوجة محصنة بزواجها، والعفيفة الحرة المسلمة جمعت إلى حصانتها الذاتية حصانتها بما يمنعها، بإسلامها وحريتها، وإن كانت متزوجةً تحصنت أيضاً بزواجها.

ومن الفوائد اللغوية ما اختلف فيه القراء، قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أن من قرأ بفتح الألف في كلمة ﴿ أُحۡصِنَّ ﴾ أراد: أسلمن، أي مسلمة، فصرن ممنوعات الفروج عن الحرام بالإسلام، ومن قرأ بالضم، أراد: فإذا تزوجن، فصرن ممنوعات الفروج من الحرام بالأزواج[٣] قال ابن كثير رحمه الله تعالى: والآية الكريمة سياقها في الفتيات المؤمنات، فتعين أن المراد بقوله ﴿ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ ﴾ أي تزوجن، كما فسره ابن عباس وغيره[٤] ومن الفوائد: التأمل في طريقة ومنهجية العلماء في الفهم والاستدلال فيما سبق بيانه.

ثم بعد أن أباح تبارك وتعالى الزواج بالإيماء، أوضح وبين علة تلك الإباحة، بقوله عَزَّ وجل ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡ ﴾ وهو الخوف من الإثم الذي يؤدي إليه غلبة الشهوة، وأصل العنت: انكسار العظم بعد الجبر، فاستعير لكل مشقة وضرر، ولا ضرر أعظم

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣٣٨/١)

(٢) الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (١٢١)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١١٠/٢-١١١)

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٨٧/١)

من مواقعة المآثم[١] والعنت: الهلاك، وكذلك الزنا[٢] ومن الفوائد أن لفظة ﴿ٱلۡعَنَتَ﴾ جمعت دلالة الزنا والهلاك والمشقة، وأن عقوبة الحد تُعنته، وذلك للترابط بينها، فهو يخشى مما يعانيه من مشقة الصبر، والخوف من هلاك النفس في الإثم، ومن عقوبة الحد، ومن سمعة الشرف، والخوف من الله تعالى وعقابه، فجمعت كلمة ﴿ٱلۡعَنَتَ﴾ في دلالاتها جميع ما يحيط بالذي يخاف على نفسه ﴿ٱلۡعَنَتَ﴾ واستوعبت جميع المشاعر التي يجدها الخائف من العنت، ولذلك أباح له الرحمن الرحيم نكاح الأمة، وأرشده سبحانه وتعالى إلى الفاضل إن استطاع، وهو الصبر ﴿وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أي الصبر على العُزْبَة خير من نكاح الأمة، لأنه يفضي إلى إرقاق الولد[٣] فإذا تزوجها، جاء أولاده أرقاء لسيدها[٤] فالصبر فاضل، ونكاح الأمة مفضول، وفي حالة الخوف على النفس من الإثم يأخذ بالمفضول على الفاضل لأنه هو الأفضل في حقه.

وفي هذا من الفوائد أن الإسلام عالج واقع المسلم بأحواله المختلفة، وردَّه للأفضل والأحسن، وحثه عليه، وأباح له المفضول، وعالج قضاياه حال الخوف على النفس من الحرام بشروط وضوابط، وفاضل له بين حال القدرة على الصبر وبين تحصيل المفضول. وهذا من تيسير الله تعالى ورحمته، ورفعه للمشقة. وأنه سبحانه وتعالى ما أراد بهذا الدين المشقة، بل أراد به سعادة الإنسان، وتنظيم حياته بأصلح ما يكون.

وخُتمت الآية الكريمة بقوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فإن ربكم سبحانه وتعالى مُتَّصِف بمغفرة الذنوب، ورحمته بالعباد. قال السعدي رحمه الله تعالى: وختم الله تعالى هذه الآية بالاسمين الكريمين: الغفور، والرحيم. لكون هذه الأحكام رحمة بالعباد، وكرماً وإحساناً إليهم، فلم يضيق عليهم، بل وسع غاية السعة، ولعل في ذكر المغفرة بعد ذكر الحد، إشارة إلى أن الحدود

(١) الزمخشري، الكشاف (٥١٣/١)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦١٦/٦)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩٧/٥)

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٩٠/١)

كفارات، يغفر الله تعالى بها ذنوب عباده[١] وقد أفاد قوله عزَّ وجل ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ أنه يغفر السيئات ويمحوها عن التائبين، فلا يعاقب عليها إذا أقلعوا عن ذنوبهم وتركوها، بل يمحوها ويسترها، وكذلك هو ﴿رَّحِيمٌ﴾ فهو المتصف بالرحمة، والمبالغ فيها من غير تخصيص. بما يدل على كثرتها. أي: الموصل رحمته إلى خلقه أجمعين. فالرحيم باعتبار الفعل، هو إيصال رحمته إلى خلقه. مما يستحث به العباد على طاعته تبارك وتعالى، ولزوم شرعه وأحكامه، وهذا والله من عظيم كرمه ورحمته سبحانه وتعالى. إذ يرغبهم فيما يصلون به إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة.

فإن الله تعالى كثير المغفرة، وواسع الرحمة بعباده. وفي هذا زيادة من الترغيب لهم في تصحيح أحوالهم، والانتقال بأنفسهم إلى الطاعة والامتثال. مما يبين حكمة الله تعالى في معالجة قضايا العباد، وأنه رحيم ودود، يشجع ويدفع العباد إلى التزام شريعته، والبعد عن معصيته.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾

تبين هذه الثلاث الآيات العظيمات مراد الله تعالى بعباده المؤمنين، من الرحمة والمغفرة والتيسير والهداية والتوفيق، وتسهيل التكاليف، فبدأت الآية الأولى بما يريد الله تعالى بالمؤمنين من الهداية والتأسي بالأنبياء والصالحين من أجل أن يتوب على المؤمنين ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ فالله يريد أن يبين أمر الدين وما خفي على المؤمنين من المصالح وفضائل الأعمال التي تقربهم إليه سبحانه وتعالى. فيبين ما أحل لهم، وما حَرَّم عليهم. وجاءت جملة ﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ مستوعبة لما تقدم من هذه السورة ولغيرها من القرآن الكريم، ولشرعه الحكيم، لأن جميع ما نزل

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣٣٨/١-٣٣٩)

من القرآن والسنة هو من عند الله تبارك وتعالى، وهو بيان منه عَزَّ وجل. وهذه من البلاغة القرآنية التي تستوعب بها اللفظة أو الجملة المقاصد الخاصة والعامة.

وكذلك من مراده سبحانه وتعالى بعباده المؤمنين الاهتداء بالقدوة الصالحة، والتمثل بما تمثلت به من أعمال الطاعة لله تعالى، والعزوف عَمَّا نهى عنه الباري عَزَّ وجل، وقد ذهبت وتولت تلك القدوات، ولم يبق إلا الأثر ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وجملة ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ تفيد بيان حال من يُقْتَدى بهم من أهل الحق السابقين، فيخرج منهم أهل الباطل في الاقتداء والتأسي، ليكون أهل الباطل للاعتبار بهم وبما حل بهم، وكلاهما ذهبا بأعمالهم، فلم يبق لهم إلا الأثر الصالح أو الباطل.

ودلالة كلمة ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ بمعنى: ليبين لكم طرق الذين من قبلكم من أهل الحق وأهل الباطل، لتقتدوا بأهل الحق، وتعتبروا بأهل الباطل والضلال قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: والبيان من الله تعالى بالنص تارة، وبدلالة النص أخرى، ونقل عن الزجاج: فيدلكم على طاعته، كما دل الأنبياء وتابعيهم، وقال غيره، معنى الكلام: يريد الله ليبين لكم سُنن من قبلكم من أهل الحق والباطل، لتجتنبوا الباطل، وتُجِيبُوا الحق، ويهديكم إلى الحق[١] وهذا يفيد أهمية التربية والتنشئة من خلال بيان حال من مضى من الأمم، فإن في تاريخ حالهم وسيرتهم مواعظ، وبيان وهداية.

ثم بين الله تبارك وتعالى مراده من ذلك ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يريد أن تستقيموا وتتوبوا فيتوب عليكم. قال الزجاج رحمه الله تعالى: يريد أن يدلكم على ما يكون سبباً لتوبتكم[٢] وهذا يفيد أن مراد الله تعالى بعباده هو الخير والتوبة والمغفرة، فما دلهم إلا على خير ليعملوا به، وما نهاهم إلا عن شر ليبتعدوا عنه، وجعل لمن عصى باباً مفتوحاً من التوبة ما لم تغرغر. وهذا دليل رحمته تبارك وتعالى. وأنه ما أراد بهذا التشريع إلا رحمة وهداية وتوفيقاً بالعالمين.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١١٢/٢)

(٢) المرجع السابق (١١٢/٢)

ثم ختم الله تعالى الآية الكريمة بقوله عَزَّ وجل ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فتبارك وتعالى عليم بشرعه وبما شرع، وعليم بعباده وما يعملون في سرهم ونجواهم، فلا تخفى عليه خافية، كما أن من صفاته أنه ﴿حَكِيمٌ﴾ واجتمع مع العلم الحكمة في تشريعه، فهو حكيم في ذاته وحكيم في أمره ونهيه، بوضعه الأمور موضعها، ويعالج الشأن بأحسن الأحكام والتشريع. وأن ربكم موصوف بكمال الحكمة في تشريعه، وفي أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأنكم وشأن خلقه، مع كمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. كما أن الحكيم يعطي دلالة الإحكام والإتقان في التصرف والتقدير، بأنه سبحانه وتعالى حكيم في تشريعه، وفي أمره، وتدبيره، إذ يضع الشيء موضعه الصحيح، وهو الحكيم في تدبير ملكه، وتصريف خلقه.

وهذا يستوجب الاستسلام لشرعه سبحانه وتعالى، دون مناقضة له، أو اعتراض عليه، أو شك، أو ترجيح غيره عليه، مهما غاب العقل عن فهم الحكمة، أو غابت الحكمة عن فهمه. وهو الاستسلام والانقياد لله عَزَّ وجل.

ثم تؤكد الآية الثانية المزيد من مراد الله تعالى لعباده مما ينفعهم من الخير، وما يصرفه ويصرفهم عنه من الشر ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يريد توبتكم، فيقبلها، ليتجاوز عن ذنوبكم، ويريد التخفيف عنكم، قيل هذا في جميع أحكام الشرع، وهو الصحيح[1] وفي تكرار إرادة الله من عباده التوبة في الآية السابقة وفي هذه الآية ما يفيد بيان منزلة التوبة، ففي الآية السابقة ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ وفي هذه الآية ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ففي هذا تأكيد وبيان لمقصد التوبة، وعظمتها ومنزلتها، وكذلك رحمة الله تعالى لعباده بالتوبة، ففي الأولى يريد أن يتوب عليكم بما هداكم وأرشدكم إليه، وفي الثانية مقارنة بين مراده سبحانه وتعالى ومراد أهل الباطل.

ففي الآية الثانية مقارنة بين مراد الله تعالى وبين مراد أهل الشهوات وأهل الباطل، من اليهود والنصارى وغيرهم من أهل الكفر، فإن الله تعالى يريد لكم ما تحصل به التوبة، وأما أهل

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥/٩٨)

الباطل فيريدون أن تميلوا عن الحق إلى الباطل ميلاً عظيماً، فتتحقق به رغباتهم وشهواتهم، وهذا الميل فيه بيان لحرص أهل الباطل على أن يكون ميلكم ميلاً شديداً ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾ وهذا يفيد أولاً: أسلوب المقارنة بين مراد الله تعالى وبين مراد أهل الباطل، وهو الأسلوب الذي يخاطب العقل، والأسلوب الذي تنكشف به المضادات، والتضاد في المراد والنوايا، بما يكشف للمؤمن ما يجب أن يحذر منه، وهو أسلوب تربوي عميق الأثر في الإقناع والانتباه. والفائدة الثانية: أن في ذلك تنبيه وتحذير من اتباع أهل الباطل، بعد أن كشف الله تعالى مرادهم، مما يلزم الحذر من تزيينهم للمعصية، وتحريك قلوب الناس إليها.

ومن الفوائد: أن الله تعالى بين أن الشهوات هي دافع ومسلك الذين يريدون ضد ما أراد الله تعالى ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾ ويريد أهل الشهوات الذين ينقادون لشهواتهم أن تنحرفوا مثلهم عن دينكم، فتتابعوهم في انحرافهم وانقيادهم لشهواتهم الفاسدة. وقائد هؤلاء هي الشهوات، فليس لهم ما يمنعهم من شهواتهم، بما يعني أنهم أطلقوا العنان لملذاتهم المحرمة. ولفظة ﴿ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ تجمع جميع أنواعها وأصنافها المتعددة، فالذي يحرك سلوكهم وأفعالهم وأقوالهم هي تلبية مطامع هذه الشهوات، فليس لهم ما يمنع من ذلك. ودلالة كلمة ﴿ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ تجمع جميع مفردات وأصناف الشهوات، ومفردها شهوة، مما يفيد أن مرادهم ليس في شهوة النساء فقط، بل تتجاوز ذلك إلى شهوة المال، والرئاسة، والملذات من مشروب ومأكول ومركوب وملبوس، فرغبتهم لا حَدَّ لها في أن يخرج المؤمنون عن طاعة الله تعالى إلى هذه الشهوات، دون اعتبار للدين أو للأخلاق والحياء، أو أي مانع آخر. مما يجب على المؤمن الحذر من الميل إليهم وإلى شهواتهم ومرادهم بمساعدتهم أو موافقتهم على اتباع الشهوات.

ثم بينت الآية الثالثة مراد الله تعالى بالمؤمنين من التخفيف عليهم بالرخص ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ أي التخفيف في شرائعه وأوامره ونواهيه سبحانه وتعالى، بتسهيل التكاليف، كإباحة نكاح الإماء وفق الشروط التي بينها سبحانه وتعالى فيما سبق من الآيات الكريمات. وما رَخَّص به للمسافر والمريض، وغير ذلك من التيسير. وفي

تخفيفه سبحانه وتعالى ما يفيد رحمته ورأفته بالعباد، وهو الرؤف الرحيم، وكان هذا التخفيف بما يتناسب مع ضعف الإنسان الذي قرره تبارك وتعالى ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴾ فضعف الإنسان في مقاومته، وفي صبره، وفي عزمه، وفي همته، وفي نفسه، فمواطن الضعف متنوعة عند الإنسان، فجاء التخفيف ومعالجة قضاياه بالأحكام الشرعية السديدة، وفق ما يتناسب مع حال ضعفه. وهذه المعادلة تفيد تربوياً أهمية النظر للحقائق، وأهمية مراعاتها عند وضع الأوامر والتكاليف في جميع مجالات الإنسان التي يمكن أن يكون فيها: سواء كان في إدارته أو مهنته، أو أسرته، وكذلك عند كونه رئيساً أو مرؤوساً، أو طالب حاجة، أو ساداً ومُعطياً لحاجة، وكذلك في مرضه وسفره، وتعبه، ومصابه، وعند حزنه وهمه. فلم يُجَرِّدِ ٱللَّهُ تبارك وتعالى عبده من حاله، بل قرر حاله، وعامله بما يناسبه، وهذا يدل على أن هذا التشريع لا إعضال فيه على أتباعه، بل هو سهل ميسور في جميع تكاليفه، وفي هذا ما يدل على أنه من رحيم رؤف عليم حكيم سبحانه وتعالى.

ومن فوائد معرفة الإنسان ضعفه، حتى يحذر من حاله أمام الشهوات، وأمام المعاصي، وأن يقاوم ضعفه بالطاعة، ويسأل الله تعالى أن يمده بما يجعله قوياً بعصمته وتوفيقه وهدايته، كما تفيد هذه المعرفة أهمية أن يلجأ المسلم للقوي العزيز المتعال، وذلك بالدعاء وكثرة السؤال والإلحاح، بأن يعينه على مغالبة ضعفه أمام الهوى والشهوات، وأن يُكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، وحسبي الله ونعم الوكيل.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ ﴾

ينتقل السياق القرآني الكريم إلى توجيه ووعظ المؤمنين بما ينفعهم في دينهم ودنياهم، وتحذيرهم مما يُفسدُ عليهم آخرتهم ودنياهم. فابتدأ التوجيه الرباني الكريم بالمناداة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ الذي يحمل في دلالته لفة الانتباه، وإرعاء السمع، وأخذ الأمر بما تضمن من توجيه. وفي تسميتهم بالذين آمنوا ما يفيد: أنه حري بكم أن تستجيبوا لما تسمعون من خطاب رب العالمين،

لأنكم آمنتم به وبرسوله صلى الله عليه وسلم، كما أن فيه مدح وثناء لهم بتقرير إيمانهم، وأنه ينتفي معه التعذر عن عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له. كما أن في مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيستدعي أسلوب النداء الإصغاء، والتَّعَقُّل مع شد انتباه المُخاطَب إلى ما بعده من كلام وخطاب.

ويُعطي هذا الأسلوب الرباني ويعلم ويبين القيمة الأخلاقية في خطاب الآخرين، فإذا كان الله تعالى يخاطب عباده بهذا النداء الذي يحمل المدح والتكريم، وهو من الأعلى للأدنى، فإن قيمته الأخلاقية ومنزلته مُتَحَتِّمة بين من يتساوون في عبوديتهم لله تعالى، فكلهم عبيد لله تعالى، والاقتداء بذلك حق أخلاقي بين المسلمين في مخاطبة بعضهم بعضا بأحسن الألفاظ والعبارات. كما أن في هذا الأسلوب استحثاث وتشجيع للمخاطَب نحو ما خُوطِب به.

ثم يقول تبارك وتعالى ﴿لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾ فجاء النهي بأسلوب الأمر الذي ينهى فيه المؤمنين من أكل أموالهم بينهم بغير الحق، وهو الباطل. وفي دلالة كلمة ﴿أَمۡوَٰلَكُم ﴾ ما يفيد أموال بعضكم بعضاً. ولكن تحمل الجملة جانبين من الأكل، فالدلالة الأولى: أن يأكل البعض مال البعض الآخر، والدلالة الأخرى: ما يأكله الشخص من ماله الذي اكتسبه بالباطل. فلم يقل تبارك وتعالى: لا تأكلوا أموال بعضكم بينكم بالباطل، ليخص المعنى أكل مال الغير، ولكن سياق لفظ الآية الكريمة اتسع سلطان الفهم فيه أيضاً إلى مال الآكل الذي اكتسبه بالباطل. ولفظة ﴿بَيۡنَكُم ﴾ تفيد التداول للمال، فلا تتداولونه بينكم بالباطل.

كما أن البيان الكريم لم يخصص نوع المداولة، لتستوعب جميع أنواع التداول المعروف، وما يستجد من أنواع التداول الباطل. كما أن هذا النهي عام ليستوعب التعامل التجاري الباطل، وما كان كذلك من الأوجه الأخرى، كاغتصاب المال والسرقة، والرشوة وغيرها، كما أن دلالة لفظة ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾ استجمعت كل ما لا يحل في الشرع نوعاً وأسلوباً، فيدخل في ذلك أنواع المحتوى التجاري من مبيوعات كالخمر والخنزير والمخدرات، والأساليب المتعلقة بأنواع المتاجرة وطرق تداول المبيوعات، كالجهالة، والغرر، والقمار، والربا. فهذه المعاني الدقيقة في شموليتها وجمعها واستيعابها لجميع متعلقات المقصود والمراد؛ تدل على غزارة سياق القرآن الكريم ودقة ألفاظه المحققة للمعاني

البلاغية العظيمة، سواء في بيانها وسعة معطياتها، أو في نفوذ سلطانها لدقائق المعاني والمراد. لتؤكد الإعجاز البياني والبلاغي والأخلاقي للقرآن الكريم. إذ أن موقع اللفظة في التراكيب الكلامية، واختيارها دون غيرها حقق هذا الإعجاز البياني من جميع الأوجه.

ثم استثنى تبارك وتعالى من ذلك التعامل التجاري المنهي عنه ما استوفى التراضي ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ ذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى أن التجارة هي البيع والشراء، والمعاوضة، وكل معاوضة تجارة على أي وجه كان العوض. إلا أن قوله تعالى ﴿ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ أخرج منها كل عوض لا يجوز شرعاً[١] كما اشترط أن تكون التجارة عن تراضي طرفي المعاوضة ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ ليخرج منها الغصب والإكراه. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: هو استثناء منقطع، كأنه يقول لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال، لكن المتاجرة المشروعة التي تكون عن تراض من البائع والمشتري فافعلوها، وتسببوا بها في تحصيل الأموال[٢] أي في التجارة غير المنهي عنها. واشتراط التراضي، دليل على تحريم ما كان ضده من الغصب المباشر، أو الإكراه بأنواعه، وجملة ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ قد استوفت واستجمعت الرضى من الطرفين، لأن المشتري قد يأخذ السلعة وهو مكره عليها، كأن يكون له مديونية أو قرضاً أو حاجة عند البائع، فأحاله إلى ما لا يشتهيه ويرضاه من العوض، فكان أخذه مرغماً.

ثم يُحَرِّمُ اللهُ تعالى قتل النفس بصيغة النهي الذي يفيد التحريم ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ وقد تضمن النهي دلالتين: الأولى: لا يقتل الإنسان نفسه وهو ظاهر النص. والثانية: لا يقتل بعضكم بعضا، لأن دلالة ﴿أَنفُسَكُمْ ﴾ يُقصد بها نفس الإنسان ذاته، ويقصد بها نفس غيره، لأن أمة الإيمان كالنفس الواحدة، وهذا من غزارة البيان القرآني الكريم، بأن يكون مَبْنَى الجملة يستوعب أكثر من وجه، وجميعها حقيقة مقصودة ومعنية، ولا تضاد بينها. فحققت الجملة الدلالات المقصودة كلها. وهذا من البلاغة البيانية للقرآن الكريم.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥/١٠٠)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٤٩١)

ومن عظيم الفوائد أن استوعبت دلالة الآية الكريمة خمسة معاني كما ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أحدها: أنه على ظاهره، وأن الله تعالى حَرَّم على العبد قتل نفسه. وهذا الظاهر. والثاني: لا يقتل بعضكم بعضا. وهذا قول ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وقتادة. والثالث: لا تُكَلِّفُوا أنفسكم عملاً ربما أدى إلى قتلها. والرابع: لا تغفلوا عن حظ أنفسكم، وهذا قول الفضيل بن عياض. والخامس: لا تقتلوها بارتكاب المعاصي[١] وهذا دليل على غزارة محتوى الآية الكريمة، والذي استوعب واحتوى جميع تلك الأقوال من غير تعارض ولا تضاد، بل في تكافل وتوافق، فليس هناك دلالة تُبطل غيرها أو تمنعها.

ومن الفوائد: بيان نعمة الحياة، ورفع منزلتها وقيمتها، بأن حرم الله تعالى على الإنسان قتل نفسه، وذلك بتقييد حريته في نفسه من خلال الحكم الشرعي، بما يحميها من الاعتداء عليها، مما يؤكد ويفيد أن الحياة نعمة عظيمة جليلة، وكذلك وجوب حفظ حياة الآخرين من التلف إلا بموجبه، كتطبيق الحد. وهذا يفيد كذلك أهمية حفظ النفس من التلف، ومن الأسباب المؤدية لذلك. وبالتالي لا يكلف الإنسان نفسه، ولا يكلف غيره ما يؤدي به إلى القتل، وقد تأول عمرو بن العاص رضي الله عنه في غزوة ذات السلاسل. قال: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيممت ثم صليت بأصحابي الصبح. فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم. فقال (يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جُنُب؟) فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال، وقلت إني سمعت الله تعالى يقول ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئاً[٢]

فهذا التشريع نعمة عظيمة من الله تعالى على عباده، كما أن دلالته دالة على رحمته عَزَّ وجل، كما بينته تمام الآية الكريمة، حيث قال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ فعلة النهي عن أَكل الأموال بالباطل وقتل الأنفس: هي رحمته بعباده سبحانه وتعالى. فمراده عَزَّ وجل ومُراد تشريعه في أحكامه ومواعظه هو مقتضى اسمائه وصفاته من الرحمة، فإن من رحمته عَزَّ وجل أنه حَرَّمَ قتل الإنسان نفسه، كما حَرَّمَ دماء المسلمين بينهم، وحَرَّمَ كذلك أَكل أموالهم بينهم بالباطل، إلا بما اشترط

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١١٣/٢)

(٢) أبو داود، سنن أبي داود (٢٣٨/١) برقم (٣٣٤)

سبحانه وتعالى من التجارة والرضا، ولولا رحمته بما شرع، لهلك الخلق، وأهلك بعضهم بعضاً، أكلاً للأموال بالباطل، وقتلاً للأنفس ظلماً وعدوانا.

ثم يقول تبارك وتعالى عن من تجرأ وانتهك ما نهى عنه وزجر جَلَّ جلاله ﴿ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ فإن من يتجاوز ويتخطى ما حكم به ربكم تبارك وتعالى، فسوف يُورِدُهُ ناراً يحترق فيها. وقد تضمن هذا التحذير علتين عظيمتين، هما: العدوان والظلم ﴿ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا ﴾ فالعدوان يفيد تجاوز الحد، والظلم يفيد فعل الشيء بغير ما أذن الله تعالى به، وهو وضع النهي في غير موضعه، ولم يأبه به، فما يحصل من العبد من المخالفة بعد البيان هو تعدي وتجاوز ﴿ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗا ﴾ فسوف يُورِدُهُ الله تعالى ناراً يحترق فيها.

وهذه العقوبة يسيرة على الله تعالى ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ مما يبين عجز المخلوق عن أن ينفك عن عقوبة ربِّه بقدرته، إلا بفضل من الله تعالى. ومن الفوائد أن جاء إثبات عجز المخلوق بإثبات تحقيق الجزاء وإيقاعه بيسر وسهولة على العاصي المتجاوز للحد، مما يفيد التحذير والتهديد وشدة الوعيد.

فبعد أن ذكر الله تبارك وتعالى نهيه وعقابه لمن أكل الأموال بالباطل، وقتل النفس. جاء الترغيب في ترك الكبائر، وتحفيز النفس على ذلك بمثوبة تكفير الصغائر ﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴾ فاشتملت الآية الكريمة على تحفيز وتشجيع المؤمنين على ترك الكبائر بأسلوب العطاء والمنح مقابل الترك. واشتمل العطاء الْمُقَابل على إثابتين: الإثابة الأولى: ﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ ﴾ أي: الإثابة بتكفير الصغائر مقابل ترك الكبائر. والإثابة الثانية: ﴿وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴾ وهو دخول الجنة. فاشترط سبحانه وتعالى لتكفير السيئات التي هي صغائر الذنوب أن تُجْتَنَب الكبائر. ومن الفوائد أن في قوله تعالى ﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ ﴾

ما يدل على أن ما نهى الله عنه فيه كبائر وفيه صغائر، وخص هنا الكبائر، فإذا اجتنب المؤمن الكبائر كَفَّرَ اللهُ عنه صغائر الذنوب، فضلا منه وكرماً. وهذا يفيد من حيث الأساليب: الأسلوب الشرطي، وأنه من الأساليب الدافعة والمشجعة على فعل الخيرات والتسابق إليها.

ومن الفوائد كذلك أن في القرآن العديد من الأساليب التربوية التي تتسع ساحتها التطبيقية في مجالات العمل الاجتماعي، كالعمل الإداري والمهني وغيرها. بل ويتضاعف التحفيز والترغيب بدخول الجنة ﴿وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾ وهي الجنة. ومن الفوائد تسمية الجنة بالمدخل الكريم، لأن في دخولها إكرام من الله تعالى للداخل، بما أعدَّه فيها من كرمه وفضله سبحانه وتعالى.

وأما ما يخص عدد الكبائر فقد ذكر العلماء أنها كل ذنب وعد الله تعالى بالنار على من اقترفه. وقيل هي: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، وشهادة الزور[١] وقيل: كل ذنب يختمه الله تعالى بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب، والحد في الدنيا. رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس[٢] وجاء في الحديث بيان أكبر الكبائر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر. (ثلاث)اً. قالوا بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين. وجلس وكان متكئاً، فقال: ألا وقول الزور. فمازال يكررها، حتى قلنا ليته سكت)[٣]

﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٥/١٠٤-١٠٥) وابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/١١٤-١١٦)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/١١٤-١١٦)

(٣) البخاري (٢/٢٥١-٢٥٢) برقم (٢٦٥٤)

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى بناء النفس بناءً يحقق لها الرضا والطمأنينة، ويُزيل عنها ما يُقلقها ويُتعبها، وذلك بالنهي عن تمني ما فاضل الله تعالى به بين عباده في العطاء ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ فأثبتت وقررت الآية الكريمة التفاضل والتمايز بين العباد في عطاء الله تعالى، من حيث الكثرة والقلة والنوع، كما أن هذا التفاضل ليس بفعل العبد لنفسه وتقريره لذاته، وإن كان منه الأخذ بالأسباب، فقد نسب اللهُ تبارك وتعالى هذا الفعل له عَزَّ وجل ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ وفي هذا التقرير الإثباتي إذا أدركه المؤمن حقيقة اطمأنت نفسه، والتجأ للمعطي سبحانه وتعالى أن يعطيه.

ومن المعالجة النفسية كذلك في هذه الآية الكريمة النهي عن تمني ما عند الغير ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: التمني: نوع من الإرادة، يتعلق بالمستقبل. كالتلهف، فإنه نوع منها، إذ يتعلق بالماضي. فنهى الله تعالى المؤمنين عن التمني، لأن فيه تعلّق البال ونسيان الأجل. واختلف العلماء، هل تدخل الغبطة في هذا النهي، والتي هي أن يتمنى الرجل أن يكون له حال صاحبه، وإن لم يتمنَّ زوال حاله. والجمهور على إجازة ذلك.[1] وفي الحديث أنه قال صلى الله عليه سلم (لا حسد إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق. ورجلٌ آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويُعَلّمُها)[2] قال المهلب رحمه الله تعالى: بين الله تعالى في هذه الآية ما لا يجوز تمنيه، وذلك ما كان من عَرَض الدنيا وأشباهها. قال ابن عطية رحمه الله تعالى: وأما التمني في الأعمال الصالحة فذلك هو الحسن[3]

وفي هذا الآية الكريمة معالجة لنفسية المؤمن، مما يراه من التفاضل بينه وبين غيره، مع طمع النفس وتلهفها لما عند الغير، إذ لو أُعطيت ما تمنت لانتقل وارتقى التمني لِمَا عند الآخرين في سلسلة متعاقبة من الأمنيات التي لا تنقطع، فينشغل بأمنياته وأطماعه لما عند غيره عن آخرته التي هي أفضل وأبقى. كما أن في هذا التوجيه ما يربي ويغرس في المسلم موانع حسده لغيره، وذلك

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠٧/٥)

(٢) البخاري (٤٣/١) برقم (٧٣)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠٧/٥)

لالتفاته وانشغاله بما هو عنده عن غيره. فجاءت المعالجة بمرتكزات ثلاث: الأول النهي، والثاني: إثبات التفاضل وتقريره. والثالث: أن التفاضل بين العباد منه سبحانه وتعالى، وليس لاجتهاد العبد، وإن كان اجتهاده من باب الأخذ بالأسباب، لأنه كم من مُتَسَبِّب لم يحصل على مثل ما حصل عليه غيره ممن ماثله في الأخذ بالأسباب نفسها. فهذا المنهج الرباني يُحدِثُ عند المتأمل للآية الكريمة المعالجة النفسية الشافية الكافية.

وذكر الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى، أنه لا تشتهوا ما فضل الله به بعضكم على بعض. وذُكِر أن ذلك نزل في نساء قد تمنين منازل الرجال، وأن يكون لهم ما لهم، فنهى الله تعالى عباده عن الأماني الباطلة. وقيل هي تمني النساء أن يكن مثل الرجال في الجهاد، يغزون في سبيل الله تعالى، وكذلك لهن نصف الميراث. فأمر الله تعالى أن لا يتمنى الرجال والنساء الذي فضل الله به بعضهم على بعض من منازل الفضل ودرجات الخير، وليرض أحدُكُم بما قسم الله له من نصيب، ولكن سلوا الله من فضله[1] فيرضى المؤمن ويسأل الله تعالى في طمأنينة، من غير تشوف لما عند الغير.

ثم يبين الله تبارك وتعالى القسمة الإلهية العادلة من المثوبة الربانية، فقال جَلَّ جلاله ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾ أي لكل من الرجال والنساء جزاء عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. فكما أن للرجال مهامهم المناسبة لتكوينهم الرجولي، فكذلك للنساء مهمهن المناسبة لأنوثتهن. فإن لكل من الرجال والنساء مهامه المتناسبة مع تكوينه الجسمي والنفسي، فكل مكلف بما يناسبه، وكل له نصيبه مما كسب، فالرجال يقومون بالجهاد، ولهم ضعف ما للمرأة من الميراث، وأوجب على الرجل النفقة على الزوجة، ولم يفرض عليها النفقة، وهي التي تحمل وتنجب، ولها الرعاية ولها ثواب ذلك، ويتفقون في العبادات من صلاة وزكاة وصيام وحج. فيجب ألا ينضر كل أحد لما عند الآخر. فلكل نصيبه وأجره على ما اختص به.

وفي هذا ما يبين أن نهج الإسلام قائم على التنظيم في العلاقات الأسرية والاجتماعية، وأن من مقاصد هذا الدين في تشريعه كبح التنافس الذي يؤدي إلى التحاسد والتباغض. وأن لكل من الرجال والنساء خصائص ومهام لا يستطيع أن يقوم غيره بها، فعليه أن ينظر لِمَا خصَّهُ الله

---

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/٦٦٣-٦٦٧) ملخص

تعالى به، ولا يتطاول على غيره بالتمني، ويُشغل نفسه وعقله وجوارحه عن الذي يهمه في دينه ودنياه.

ثم أرشد تبارك وتعال المؤمنين إلى الطريق الصحيح، فقال لهم عَزَّ وجل ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ فإذا أردتم أيها المؤمنون شيئاً فلا تلفتوا إلى ما عند غيركم، بل اتجهوا إلى سؤال الله تعالى ما تريدون، فادعوه وتوسلوا إليه. وقد عمم السؤال وعمم الفضل تبارك وتعالى ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ فاسألوا ما شئتم من جميع أنواع فضله، ولا تتجهوا لمجرد المماثلة للغير، لأن فيه عناء على النفوس. وقد أفادت دلالة ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ التعميم لكل شيء، وحصرت السؤال في الله جَلَّ جلاله ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ لأنه صاحب الفضل ومالكه ومعطيه. وورد الفضل عاماً، ليشمل كل خير يحتاجه المؤمن.

ولتنتهي الآية بتقرير علمه سبحانه وتعالى بكل شيء، فلا يغيب عن علمه أمر من الأمور. ثم في جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ بيان الإحاطة التامة، والتي منها احاطة علمه بكم وبأمنياتكم وبما تسألون. وقد تضمن هذا البيان الكريم التقرير بأنه سبحانه وتعالى لا يغيب عنه شيء، إذ ورد ﴿عَلِيمًا ﴾ بصيغة المبالغة التي تفيد امتداد المعنى إلى أقصى غايته وكماله. كما استطلع البيان وابتدأ بحرف ﴿إِنَّ ﴾ الذي يفيد التوكيد، ثم تلاه بعد لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ ﴾ حرف ﴿كَانَ ﴾ لإفادة: أن الله تعالى عليم منذ الأزل، فهو وصف عظيم لعلم الله عَزَّ في علاه. ومن فوائد دلالة ﴿كَانَ ﴾ أنها تعطي اتصال الزمن من غير انقطاع بعلمه وحكمته تبارك وتعالى، لتعطي معنى الإخبار عن الصفة الدائمة المستمرة التي لا تنقطع، سابقاً ولاحقاً.

ثم تأتي بعد ذلك الآية الكريمة التي تبين حكم الله تعالى في ميراث العَصَبَة، وكذلك من عُقِدَة معهم الأيمان ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴾ والمقصود بالموالي هم أهل الميراث، أي الْعَصَبَة. والمولى نوعان: مولى يرث ويُورَّث فهم العَصَبَة، ونوع يُرَث ولا يَرِث

وهم المعتوقون. والمعنى: أي ولجميعِكم أيها الناس جعلنا عَصَبَة يرثون به مما ترك والده وأقاربه من ميراثهم[(١)] فلكل من الناس جعل الله تبارك وتعالى له عصبة، أي ورثة يرثونه، فلينتفع كل واحد بما قسم الله تعالى له من الميراث، ولا يتمنَّ مال غيره.

وفي هذا من الفوائد: عدل الله تعالى وتنظيمه للعلاقة بين الوارث والمورِّث، وكذلك أن على كل أحدٍ أن يرضى بما قسم الله تعالى له، ولا يتطلع لنصيب غيره. وفي هذا ما يحقق صفاء النفوس، ويربيها على التآلف، وقصر النظر على ما يحققه، وصرف القلوب عمَّا يبعث التحاسد.

ثم ذكر سبحانه وتعالى نوعاً آخر من الموالي ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ﴾ أي والذين حالفتموهم بالأيمان المؤكدة، أنتم وهم، فآتوهم نصيبهم من الميراث كما وعدتموهم في الأيمان المغلظة. وقد كان هذا في ابتداء الإسلام، ثم نُسخ بعد ذلك.[(٢)]

وتتضمن الدلالة القرآنية أيضاً قول من قال في معناها: فآتوهم نصيبهم من النصر والنصيحة من غير الميراث[(٣)] وفي هذا ما يدل على عناية الإسلام بالوفاء بالأيمان، والوفاء بالتعاقد، وأهمية النصرة والنصيحة، وتحقيقها للمتحالفين. مما يؤكد أن هذا الدين هو دين أخلاق ووفاء.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴿٣٤﴾ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ﴿٣٥﴾﴾

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/٦٧٢)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٥٠٠-٥٠١)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/١١٩)

تبني وتبين وتعالج هاتان الآيتان الكريمتان العلاقة بين الرجل وزوجته في أهم المرتكزات والمحاور التي لا تستقر الأسرة إلا بتحقيقها. فأول ذلك هو بيان زمام القيادة والتوجيه، بأن ذلك للرجل، فقال عزَّ وجل ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ فأول فوائد الألفاظ أنه تبارك وتعالى لم يقل الأزواج قوامون على النساء، بل قال تعالى ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ ودلالة لفظة ﴿ٱلرِّجَالُ﴾ تعم الزوج وغيره، كالأب، والأخ، والعم، والخال، وغيرهم من الرجال. لتكون القوامة والإدارة والرئاسة للرجال مع اختلاف المواضع وتعددها. فيكون هذا المفهوم قاعدة عملية في الحياة، ويتفرع من القاعدة ما يتعلق بقوامة الزوج. وهذا من دقة تحرير وانتقاء الألفاظ التي وصلت إلى درجة الإعجاز في البيان كما هو الإعجاز في تحرير تنظيم العلاقة الرئاسية بين جنس الرجال وجنس النساء.

ثم يأتي تعليل التفضيل لهذه القاعدة بأمرين: الأول: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ فهذا تفضيل اختصاص من رب العباد، فليس لأحد فيه اعتراض. وقال بعض أهل العلم رحمهم الله تعالى: إن الرجال لهم فضيلة في زيادة العقل والتدبير، وقوة في النفس والطبع ما ليس للنساء، لأن طبع الرجال غلب عليه الحرارة واليبوسة، فيكون فيه قوة وشدة، وطبع النساء غلب عليه الرطوبة والبرودة، فيكون فيه معنى اللين والضعف، فجعل لهم حق القيام عليهنَّ بذلك[١] وكذلك في طبعهم الحزم والعزم والقوة.[٢] ولعل من أوجه التفضيل هو ما كُلِّف به الرجال من دون النساء، من الجهاد، وحضور الجمعة وحضور الجماعات، ومسؤوليات متفرقة متعددة.

والأمر الثاني في التفضيل: هو من أجل القوامة ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ وهو ما يُدفع من المهر، وما يلزم الزوج من النفقة، فالنفقة من لوازم الرجال على النساء كالزوجة والوالدة والأخوات، وبنات الرجل ما كانوا تحت ولايته. وهذه العلتين مترتبة في حق الرجال، بما يتناسب ويتناسق مع قاعدة التفضيل في أنها خصيصة للرجال عموماً، ومنهم الأزواج.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١١/٥)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٥١٨/١)

وهذا التفاضل لم يكتسبه الرجل بذاته، بل هو تفاضل من العليم الخبير، فهو تفاضل في التكوين الجبلي الفطري، جسمياً، ونفسياً وفكرياً، ومن حيث القوة والعزم والتحمّل، فأدى به ذاك إلى تحمل أعباء ومشاق لا يتحملنها النساء، لِمَا في المرأة من الضعف، فاحتاجت إلى حماية الرجل لها والذود عنها، ولا يترتب على هذا التفاضل تقليل لمنزلتها ومكانتها، لأن المرأة تزيد في جوانب عن الرجل بالحمل والوضع، أي الولادة، والإرضاع. وهي مهام ليست باليسيرة، وقد جاء قبلها تهيئة كريمة، وبمقدمة تقريرية في الثواب والجزاء، الذي هو المحصِّلَة النهائية والختامية لكل من الرجال والنساء، في قوله تعالى ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ لتقرير الجزاء والثواب، بأنه بمقدار ما يكتسب الرجل والمرأة من العمل الصالح، أو ما يكتسبان من المعاصي. فليس لأحدهما مزية عن الآخر.

ثم بين تبارك وتعالى الصفات التي تتحلى بها المرأة الصالحة ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ فالمرأة الصالحة ملتزمة بالطاعة ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ أي: مطيعات لله تعالى، ولأزواجهن. كما تشتمل دلالة ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ على أنهن طائعات وخاشعات لله تبارك وتعالى، ومستكينات بين يدي الله عَزَّ وجل، لأن القانت هو المطيع. ليدل على كمال الإخلاص. وكذلك ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ أي حافظات لأنفسهن عند غياب أزواجهن، في نفسها وماله وولده، وذلك بحفظ الله تعالى لهن، الذي حفظ لهن حقوقهن.

ومن الفوائد: أن دلالة ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ جمعت جميع أنواع أعمال الخير، والانكفاف عن أعمال الشر بأنواعها ودرجاتها، فاستوفت جميع الخير بأكمله، أداءً له، وامتناعاً عَمَّا يُضاده. فمن مستلزمات وعلامات الصلاح ودلائله، ما يَخُصَّ الطاعة التي هي ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ وهذا التخصيص بذكر ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ ما يفيد التنبيه والتأكيد للبيان من أنها من جنس وفروع الصلاح ولوازمه. وكذلك حفظ الغيب ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ الذي هو مقابل الشهادة والحضور والمشاهدة، فبيانه وتخصيصه لتأكيده وبيان أهميته، والتنبيه عليه من الغفلة عنه، وإلا ذلك داخل في الصلاح. وهذه الطاعة لله تعالى وللزوج بالأمر الذي يحفظ حق الله تعالى، من التعفف والتحصن، وحفظ ماله وولده وداره.

وبالرغم من أن السياق في حق الزوجة، إلا أن الله تبارك وتعالى ذكر ذلك بلفظ الرجال ولفظ النساء، ليمتد مفهوم المنطوق وسلطان الأمر للرجال على من استرعاهم من النساء، كالزوجات والأخوات والبنات، أو يتيمات تحت الكفالة، وغيرهن ممن هنَّ تحت كنف رعايته. وكذلك ليمتد سلطان الأمر والتوجيه للنساء في جميع حالاتهن من قوامة الرجال عليهن كالابنة، أو الأخت، أو مَنْ كانت تحت كنف العم أو الخال، أو في كنف كفيل يُتْمِهَا، ونحو ذلك. ويتفرع من ذلك كله العلاقة الزوجية.

ثم تناول النص القرآني الكريم منهج المعالجة التربوية الإصلاحية لشؤون المرأة ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾ فإذا علمتم وتيقنتم عصيانهن، وهو معنى ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ إذ أن الخوف هنا نظير صرف الظن إلى العلم، فالظن هو الشك، ولكن يصرف للعلم إذا كان هو الغالب. والخوف إذا كان مقروناً برجاء، فيكون غلبة العلم. وقد يأتي معنى ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ إذا حصل منهنَّ ما تخافون من أن يحصل به النشوز عليكم. والنشوز هو العصيان والتعالي على الزوج، وارتفاعهن عن فرشهن، وحصول الخوف عليهن مما يلزمهن طاعتهم فيه، بغضاً وإعراضاً عنهم[1] وهذا في كلا الوجهين تحصين للعلاقة، والحيلولة دون امتدادها لتصبح مشكلة قائمة.

وأمر تبارك وتعالى بوعظهن حال نشوزهن، وتعاليهن وترفعهن على الزوج ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ والموعظة هي النصيحة المؤثرة، بما يرقق القلب، ويوقظ العقل من غفلته، ويعيده إلى صوابه. فإن امتنعن وأبين ولم يتعظن، فالهجر ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ وهو أن ينام معها ويوليها ظهره ولا يجامعها[2] ثم المرحلة الثالثة: ﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾ ضرب الأدب، غير

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/٦٩٦-٦٩٧) ملخص

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥/١١٢)

المبرح، وهو الذي لا يكسر عظماً، ولا يشين جارحة، كاللكزة ونحوها، فإن المقصود الصلاح لا غير[١] فليس المقصود الإيذاء وإنما المقصود ما يقع به الإصلاح والصلاح.

ومن الفوائد: أن المعالجة جاءت مُتَدَرجة في استخدام الأساليب، ولم تكن اختياريه وانتقائية للزوج، بل يلزمه التدرج وفق توجيه الله تعالى وأمره، فغالباً ما تنتهي بعد الموعظة أو بعد هجران المضاجع.

وهذا يفيد أنه يلزم الرجل تأديب نساءه، ولا يعمد إلى الضرب ابتداءً، بل يعمد إلى النصح والوعظ، ويتعاهد النساء بذلك، ثم هجر الزوجة، ثم يكون آخر العلاج الضرب غير المبرح. فإذا حصلت الطاعة فيلزم عدم التعدي عليهن ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ فإذا تركن النشوز وعادُنَّ إلى الطاعة، فلا تطلبوا الطرق والسُبُل والتسبب التي تتذرعون بها، لإيذائهن. فكما حفظ تبارك وتعالى للرجال حقوقهم، حفظ للمرأة حقوقها من عدم التعدي عليها، بل نهى الأزواج عن ابتغاء السُبُل التي قد يتذرع بها للإيذاء.

ثم جاء التحذير من التعدي من خلال التخويف بعلمه واطلاعه وعلوه سبحانه وتعالى، فقال تعالى في تمام الآية الكريم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ فإن كنتم قادرين على سُبُل الإيذاء فتذكَّروا قدرة الله تعالى، وعلو قدرته على قدرتكم، وسلطانه على سلطانكم، فلا يستعلي زوج على زوجته بغير ما يجب. فهو وليهنَّ ومنتقم لهنَّ. وفي هذا تهديد لمن يبغي على نسائه من غير موجب للتأديب. فإن ربكم سبحانه وتعالى هو القادر القدير ذو السلطان الأعلى والأكبر. وهذا التحذير يشمل كذلك المرأة من النشوز وأسبابه، فإن الله تعالى عالم بما هو منها ومن زوجها، فإن ربكم هو عالي السلطان والقدرة على الزوجين وعلى غيرهما. ومن الفوائد الدلالية أن قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ جاء في صياغ العموم، وليس قصراً على الزوجين، فكمال علوه وسلطانه وعلمه وكبره وكبريائه عاماً شاملاً على كل شيء، فلم يقتصر السياق في هاتين الصفتين على القضية، بل جاء بيانها عاماً، وهذا من قوة البلاغة البيانية، وكذلك يكون وقعها أعظم أثراً وإجلالاً على النفس، وأكثر تعلياً للعباد.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥/١١٢-١١٣)

وبعد أن عالجت الآية الكريمة السابقة النشوز من طرف الزوجة، عالجت الآية التالية لها ما يكون بين الطرفين، فيدخل في ذلك ما يكون من طرف الزوج وكذلك من طرف الزوجة ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ وجاء مطلع الآية بالعلم المخيف من الشقاق بينهما ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ﴾ فإن علمتم أيها الناس شقاقاً بينهما، وهو أن يأتي كل واحد من الزوجين بما يشق على صاحبه من الأمور، فتتباعد عشرتهما وصحبتهما. لتأتي المعالجة بما يناسب مقام الخوف.

وأما الْمُخَاطَب بذلك، فإن أهل التأويل اختلفوا في المخاطبين بهذه الآية لبعث الحكمين، فقال بعضهم المأمور بذلك السلطان الذي يُرفع ذلك الأمر إليه، وقال آخرون: المأمور بذلك الرجل والمرأة. فليبعث حكماً من أهله، وتبعث حكماً من أهلها[١]

ولكن يُستفاد من عدم التنصيص على المخاطب، أن يُضَاف إلى ما ذكره أهل التأويل رحمة الله تعالى عليهم غير ما ذكروه. كالوالدين، ومن له علاقة بالأسرة، وكذلك ظهر في هذا الزمن لجان إصلاح ذات البين، وجمعيات خيرية لها في هذا الباب شأن وخبرة. فالآية الكريمة ابتدأت بمخاطبة من له علاقة بأمر الزوجين، دون تنصيص عليهما تحديداً، فاستوعبت بذلك من له علم بشأنهما من أقارب الزوجين، أو ممن يجاورونهم من غيرهم، أو ممن له صداقة بهما، أو بمن له ولاية، وإلا فإن الله تبارك وتعالى قادر على التعيين والنص على ذلك، فاستوعب التوجيه الكريم حالات المجتمع، حتى في حالة بُعْدِ وقُرْبِ الزوجين المكاني من الأهل، فقد لا يكون أهل الزوجين بمقربة منهما. وبالتالي لم يقصر الخطاب التوجيهي عن تحقيق المصلحة في جميع الحالات التي يمكن أن تكون. بل استوعب جميع الحالات والمستجدات التي تتناسب مع اختلاف الأزمان والأمكنة والأحوال. وهذا من دقة التشريع وإعجازه وعمقه العظيم بما يبين عظمة الخالق سبحانه وتعالى في تنظيمه وأحكامه وحُكْمِهِ، واستيعاب القرآن الكريم بنصوصه ما لا يستطيع أن يأتي بمثله مخلوق، ولو اجتمعوا وتناصروا على ذلك. كما يفيد هذا من الجانب البلاغي، أن البلاغة القرآنية العظيمة استوعبت في

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/٦١٥-٦١٧) ملخص

كلماتها كمال المراد بأقل الألفاظ، وبعظيم البيان، وسعته واستيعابه للدلالات التي حوت واستوعبت الأحوال والظروف على أوجه تقلبها، فسبحان الله العظيم الذي أعجز بكتابه خلائقه.

وفي دلالة ﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ ﴾ أي: فإن تبادر إلى علمكم ما يفيد الخوف من شقاقهما فبادروا بالمعالجة قبل أن يتفاقم الأمر، بما يفيد معالجة الحذر من وجود بوادر ما يوجب الشقاق، وذلك من خلال ما يَعْلَم الْمُخَاطَبون من حال الزوجين. وهذه من دقة التبكير في المعالجة، بحيث لا تتفاقم، وتصل إلى الفراق وما يترتب عليه من ضرر الطرفين في أنفسهما وفي أبنائهما إن كان لهما أبناء.

فإذا خفتم تباعد عشرتهما وصحبتهما، ومجانبتهما لما يجمعهما، فيكون الشأن والأمر هو الإسراع في حَل ومعالجة هذه الحالة قبل تفاقمها بمنهج الله تعالى الذي قال عَزَّ وجل عنه ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ ﴾ ودلالة ﴿حَكَمٗا ﴾ تستوجب اختيار من يصلح أن يكون حكماً، وهذا يتطلب أن يكون الحكمين مسلمين مكلفين لا صغيرين، وأن يكونا عاقلين عدلين، أمينين، لما يكتشفانه من دقائق الخصوصية بين الزوجين، وأن يكون لديهما من العقل والفطنة ما يحققان به مصلحة الزوجين.

وكون الحكمين من أهل الزوج والزوجة، فإنه يتحقق بهما عظيم الخير بإذن الله تعالى، وذلك لمعرفة كل من الحكمين شأن الطرف الذي يمثله، من طبائعه، وأخلاقه، وقدراته، وصلاحه، ومواطن الصلاح فيه، وكذلك عِلَلَه التي هي مداخل المناقشة والمحاورة، وكذلك معرفتهما لأركان التأثير، وما يتأثر به، وما يؤثر فيه عقلاً وعاطفةً. وكذلك من علل كون اختيار الحكمين من الأقارب لأنهما أكثر طلباً للإصلاح، وأنهما ممن تسكن إليهما النفوس، ويُظهرا الزوجان لهما مالا يظهرانه للأجانب والأباعد، مما يمكن أن يُخْفِياها عن غيرهما. كما أن في كون الحكمين من الأقارب فإنهما الأقدر في الدفاع وفي التماس الأعذار عن الطرف الآخر، لِمَا يعرفانه من حال الزوج والزوجة. فالحكيم الخبير سبحانه وتعالى عَدَلَ عن قضاء وحكم الأباعد إلى الأقارب لما فيه من رجحان المصلحة، وهذا من لطفه سبحانه وتعالى، ومن لطف هديه، وعظيم حكمته بأن هدى عباده لخير ما يصلح به شأنهم في أدق قضاياهم. وهذا نوع من الإعجاز في منهجية الإصلاح.

ثم بين تبارك وتعالى أثر الإرادة التي تحمل النية والرغبة الصادقة على تحقق مصلحة اجتماع الزوجين ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ قيل إن أرادا الزوجان الإصلاح يوفق اللهُ بينهما، وقيل إن أرادا ونويا الحكمان الإصلاح وفقهما الله تعالى لتحقيق ذلك[1] وليس هناك ما يحول بين الدلالتين، فاحتوى النص القرآني الكريم على أهمية النية والرغبة في كلا الطرفين لتحقيق المراد الإصلاحي، سواء من الزوجين أو الحكمين، لأنه بانتفاء الرغبة والنية الإصلاحية من المجموعتين تنتفي معها أسباب المصالحة والإصلاح. ومن جليل الفوائد: أن صياغة الآية الكريمة حوت واشتملت على إرادة الإصلاح من الحكمين ومن الزوجين في لفظ واحد ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا﴾ وهذا من جلال البلاغة في كلام الله تعالى، إذ أعطى النص في استيعابه كمال المراد بأشمله وأكمله، دون تكرار في الألفاظ، أو إعادة الجملة بالبيان وكثرة الألفاظ.

ومن عظيم الفوائد أن الله تبارك وتعالى نسب تحقق التوفيق له عَزَّ وجل ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ فهو المتفرد بتحقق ذلك، وإنما الذي يخص الإنسان هو الإرادة الصحيحة التي تحمل النية الطامعة والطالبة للإصلاح والتصالح ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا﴾ كما يفيد هذا فائدة عظيمة: وهو توفيق الله تعالى لمن أضمر الخير، وصحح نيته، فإن معية الله تبارك وتعالى ونصرته وتأييده معه، وذلك بما يقذفه في القلوب والعقول والعواطف من موجبات تحقيق الصلح والمصالحة،

كما يفيد هذا أن القلوب بيد الله تعالى، وذلك بحصول التوفيق بينهما بهداية وتوفيق من الله الرحمن الرحيم ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ إضافة إلى أن في هذا دعماً وتشجيعاً معنوياً لإرادة الخير عند الحكمين، وعند الزوجين. ودفعاً لهما نحو إصلاح النوايا، والعزم على الخير وابتغائه، وطرداً لنوايا الشر، ووأداً لها. ويفيد أيضاً في أهمية صلاح النية، وأن هناك ارتباط بين النية والتوفيق، وأن الإنسان إذا أصلح نيته يوفقه الله تعالى ويسدده، مما يؤكد أهمية معالجة المسلم لنيته في أسرته وشراكته، وبيعه وشرائه، واجتهاده، وفي قوله وعمله كله. لأن الله تبارك وتعالى عليم قدير.

---

(1) وقد أشار المفسرون من أهل علم تفسير القرآن الكريم إلى ذلك عند شرحهم.

ثم انتهت الآية الكريمة بقوله سبحانه وتعالى عن صفاته العظيمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ فسبحانه وتعالى عليم بكل شأن وأمر، ومن علمه أنه يعلم مراد الزوجين، ومراد الحكمين من الإصلاح أو عدمه، وعالم بالنوايا والخفايا، كما هو عالم بالظواهر تماماً. ويعلم كيف يُصلح بين الطرفين إن رغبا وأرادا الإصلاح، فيعرف جَلَّ جلاله كيف يصرف القلوب والعقول والأَلْسُن على ما يجمع ولا يفرق. وفي هذا ما يعزز مخافة الحكمين من الله تعالى، لعلمهما بعلمه سبحانه وتعالى فيما هو مُعْلَن، وما هو مخفي، فيدفعهما علمهما بعلم الله تعالى إلى الاجتهاد في الإصلاح، والنأي بنفسيهما عمَّا يضاده. ولله تعالى أن يجازيهما بالإحسان إحسانا وبالإساءة عقاباً أو غفرانا.

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾

تتناول هذه الآيات الكريمات بناء الفرد: اعتقاداً وعبادةً وأخلاقاً، وكذلك القواعد اللازمة لذلك. فتناولت الآية الأولى مجموعة العلاقات التي تلزم الفرد مع ربه تبارك وتعالى ومجتمعه بجميع حالاته وتنوعه. فبدأ التوجيه الرباني الكريم بأمر ونهي، بأمر ما يجب على العبد مع ربه وخالقه، ونهي تنزيه لما يجب في حق عبادته لربه سبحانه وتعالى ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ والمعنى كما قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: وذِلُّوا لله بالطاعة، واخضعوا له بها، وأَفْرِدُوه بالربوبية،

وأخلصوا له الخضوع والذلة بالانتهاء إلى أمره، والانزجار عن نهيه، ولا تجعلوا له في العبادة والربوبية شريكاً تعظمونه تعظيمكم إياه[١] وهو أمر ونهي يقتضي الوجوب، ليكون العبد مطيعاً لربه عَزَّ وجل.

فالمأمور به عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وجاء الأمر هنا بما يقتضي الوجوب، فيما يجب على العبد لربه سبحانه وتعالى، وجاء الأمر شاملاً لكل أنواع العبادة، إذ لم يقتصر على نوع منها، مما يفيد أن جميع العبادات يجب أن تُصرف حصراً له وحده عَزَّ وجل، والتي هي شاملة لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأعمال والأقوال والمعتقدات. والعبودية هي التذلل والافتقار لله تعالى، الذي له الحكم، وله الأمر، كما أن العبادة أبلغ في دلالة الخضوع والخنوع، لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال والحق، وهو الواحد القهار.

وأما الْحَقُّ الثاني لله تعالى فهو: تنزيه الله عَزَّ وجل عن أن يُشْرَك به شيئاً، ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ ومن لوازم هذا تنزيه الاعتقاد والعبادة من الشرك. إذ أن دلالة ﴿شَيۡـٔٗا﴾ يفيد استقصاء القليل والكثير بالنهي. بما يفيد احتضان النفي لجميع أنواع ودرجات الشرك، بأن تكون العبادة خالصة لله تعالى وحده دون سواه، لا برياء ولا سمعة، فضلاً عن أن يُجْعَل له نِدّاً تبارك وتعالى، فتصرف عبادة لغيره جَلَّ جلاله.

ثم بعد بيان حَقّه سبحانه وتعالى جاء بيان حقوق من يتعامل معهم المُخَاطَب، من مكونات المجتمع، حيث أورد تبارك وتعالى ذلك في تدرج يتأكد ويتضح به الترتيب والأولويات المنتظمة تنظيماً معضوداً بالأحقية التي تؤكد وتبين عظيم هذا التشريع، وعظيم الْمُشَرِّع سبحانه وتعالى، مُبْتَدِأً عَزَّ وجل التوجيه الكريم بحق الوالدين، ليكون حقهما بعد حقه مباشرة، فلا يقدم المؤمن بعد حق الله تعالى على والديه حقاً ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ مما يدل على منزلة وأهمية حقوق الوالدين.

ودلالة ﴿إِحۡسَٰنٗا﴾ تضمنت واستوفت جميع البر، وتجاوزت العدل إلى المبالغة في الإكرام والعطاء والتعامل، جاء في كتاب المفردات في غريب القرآن عن معنى الإحسان عوماً: أن الإحسان

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٧)

أعم من الإنعام، والإحسان فوق العدل، وذاك أن العدل هو أن يتعاطى ما عليه، ويأخذ ما له. والإحسان أن يعطي أكثر مما عليه، ويأخذ أقل مما له، فالإحسان زائد على العدل. فتحري العدل واجب، وتحري الإحسان ندبٌ وتطوعٌ[١] ولكن الإحسان في حق الوالدين واجب، لأنه مأمور به من الله تعالى على الوجوب لا على الندب والتفضل. فأصبح الإحسان المندوب له مع الغير هو واجبٌ في حق الوالدين، مما يدل على عظيم المنزلة التي للوالدين بنص كتاب الله تعالى. وهذا يدل على عظيم عناية الله تعالى بالوالدين، ورحمته بهما، وأن منهج الإسلام قائم على العطاء والمبالغة في الإكرام، وأنه دين الأخلاق والأدب والرحمة. وأن الله رحيم بعباده، إذ أوصى بالوالدين إحساناً.

وقد قرن الله تعالى الإحسان بالوالدين بعبادته وتوحيده في هذه الآية وفي غيرها من آيات القرآن الكريم، مما يدل على عظيم منزلتها، وأن من أقرب ما يتقرب العبد به لربه سبحانه وتعالى هو الإحسان للوالدين بعد عبادته وتوحيده والإخلاص له سبحانه وتعالى.

وأوضحت الآية الكريمة الإحسان بعمومه، والذي تضمن واستوعب كل أجزائه وأوصافه، ومفرداته، فأغنت دلالة لفظة ﴿إِحْسَانًا﴾ عن جميع التفاصيل لمكوناتها، والتي تُوجِب عدم الإتيان بما يضاد الإحسان من قول أو فعل، أو ترك شيء من أجزاء الإحسان. ومن دقائق البيان أن الإحسان أعم من الإنعام، وهو فوق العدل، بل تجاوز ذلك إلى المبالغة في الإكرام. فإن العدل واجب وأما الإحسان فهو تجاوز العدل إلى المبالغة في الإكرام. فأصبح الإحسان في حق الوالدين واجب. حيث انتقل من التفضيل إلى الوجوب بأمر الله تعالى وحكمه، وبما يصل به الأولاد إلى أقصى ما يمكنهم. مما يبين أن حقوق الوالدين تتعالى بالمبالغة في كمال أدائها، دون حدود محددة لكمالها، خاصة وأن الذي أمر بها هو الله الخالق الكريم. وفي هذا الأمر منه سبحانه وتعالى تكريم للوالدين وعناية خاصة منه عَزَّ وجل بهما. وفي هذا بيان لأخلاق الإسلام وهديه العظيم في بر الوالدين، وهذا من كمال الدين وأخلاقه، ومن رحمة الله تعالى وبركاته وفضله. وفي هذا إعجاز بياني وبلاغي لهذا القرآن المجيد. بل كل ألفاظ هذه الآية معجز في دلالاتها ومعانيها وغاياتها، والتي عبرت عن الكثير العظيم بأقل العبارات والألفاظ. وأفادت الآية الكريمة عظيم حق الوالدين، حيث خصت الوالدين من بين

---

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (١١٩)

ذوي القربى، بالرغم من دخول الوالدين فيهم، كما قدمت حق الوالدين على ذوي القربى وغيرهم. لِتُفيد الأهمية وترتيب الأولويات.

ومن الفوائد جزالة اللفظ بما يتضمنه من معاني ودلالات، فيستوفي بها المراد بأكمله، وهذه من بلاغة القرآن الكريم البيانية التي فاقت منطق الناطقين، فكانت إعجازاً بلاغياً، إذ استوعبت دلالة ﴿إِحۡسَٰنٗا﴾ ما يجب من حقوق للوالدين في أعظم لفظ وبيان، بل وأيضاً اشتملت على منهجية التعامل، لأن لفظة الإحسان تتضمن منهجية تعامل الأداء اللفظي، والتعامل العملي، بل حتى ما يتعلق بتعابير الوجه ونظرة العينين وما تحمله من الإحسان، وكذلك تستوعب الصوت الخارج من الفم، كيف يكون فيه الإحسان. وهي كلمة لو بُسِطّ البحث فيها لاستوعبت شيئاً عظيماً، وكثيراً من التفصيل.

ثم إن موقع الإحسان في الآية الكريمة، بما عُطِفَ عليه مِمَّا بعده، يجعل بساط الإحسان يمتد من الأبوين إلى غيرهم ممن شملتهم وتناولتهم الآية الكريم، حيث عَطَفَ تبارك وتعالى على الإحسان للوالدين الإحسان للقرابات واليتامى، والمساكين، والجار ذي القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل، وما ملكت اليمين.

فشمل الإحسان الأقارب ﴿وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ وهم قرابة الإنسان من قِبَل أبيه وأمه، وممن قربت قرابته برحمه، مما يفيد أهمية القرابة ومنزلتهم، وأهمية التواصل معهم وإسدال المعروف والإحسان إليهم، إذ جعل ترتيبهم بعد الوالدين مباشرة. ثم ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ وهو الطفل الذي فقد والده، مما يَدُلُ على مكانة اليتيم، وحظوة الإحسان إليه، وجعل المولى عَزَّ وجل ترتيبه بعد القرابة مباشرة، مما يدل على أهمية كفالته وحفظ ماله، وتربيته، والعناية بكل ما يتعلق بأمره، والتلطف به ومعه. وهذا يبين عظيم العمل وعظيم الأجر المترتب على كفالة اليتيم والإحسان إليه بكل وجه من أوجه الإحسان، فكيف إذا اجتمعت في اليتيم القرابة، فإن الأمر أكثر وجوباً. مما يفيد علو أخلاق الإسلام، وأنه دين الرحمة والشفقة والإحسان، ودليل على رحمة الله ورأفته بعباده وأنه رحمن رحيم.

ثم جاء في الترتيب رُتبة المسكين ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ وهم الذين أسكنتهم الحاجة وأذلتهم الفاقة، وهذا يدل ويفيد أهمية تفقد أحوال المساكين والعناية بهم، والإحسان إليهم. ثم تلى ذلك ﴿وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ وهو الجار ذي القرابة والرحم، فاجتمع له حق القرابة وحق الجوار، فتم إفراده وتخصيص ذكره من بين ﴿وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ لتميزه بخصيصة الجوار، وهذا يفيد أنه كلما أضيف للفرد خصيصة ازداد مُوجِب الإحسان إليه، وارتفع أمره بقدر مُوجِب تلك الخصيصة، وهذا من دقائق التوجيه في القرآن الكريم، وعنايته في ترتيب الأولويات.

ثم ذكر سبحانه وتعالى ﴿وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ﴾ وهو الجار الذي ليس من القرابة، فيكون أجنبي باعتبار أنه من قوم جُنُب، وهم كل من ليس بينهم قرابة. فله حق الجوار، وهذه من دقائق التفصيل البياني للحقوق الاجتماعية، إذ أن المجاور ليس إلا أحد اثنين: إما أن يكون من ذوي القرابة، أو أجنبي دون قرابة، فيكون قد شملت الوصية الصنفين معاً، وكل بحسبه. وقال الإمام ابن جرر الطبري رحمه الله تعالى: معنى الجُنُب في هذا الموضع: الغريب البعيد، مسلماً كان أو مشركاً. يهودياً كان أو نصرانياً[1] ومن الفوائد التي يمكن استنتاجها: أنه إذا كان غير مسلم فله حق الجوار، وإذا كان مسلماً زاد عليه بحق الإسلام.

ثم ذكر سبحانه وتعالى ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾ وهو الرفيق في السفر، فإن منزله منزل المرافق له، يحل ويرتحل معه، وطعامهم ومسيرهم واحد، لا يفترقان، فأثبت الله تعالى الإحسان له. ويُستصحب له بالقياس الرفيق في العمل، لأنه يلازم صاحبه، ويدخل في ذلك كل من يلازمهم باعتبار الصحبة والملازمة. وقد ذكر الإمام الزمخشري أصنافاً من ذلك، فذكر: أنه هو الذي بجانبك، رفيقاً في سفر، وشريكاً في تعلم علم أو حرفة، وإما قاعداً معك في مجلس، أو مسجد، أو غير ذلك، فعليك أن تراعي ذلك الحق ولا تنساه، وتجعله ذريعة للإحسان، وقيل ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾ المرأة[2] أي: الزوجة لأنها تَصْحُب زوجها، رجاء نفعه، مما يلزم الزوج الإحسان إليها.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧/١٠-١١)

(٢) الزمخشري، الكشاف (١/٥٢٢)

ومن الفوائد أن العلماء استصحبوا تلك المعاني للقاسم المشترك بينهم، من دلالة معنى ﴿بِٱلْجَنۢبِ﴾ الذي هو بجانبك، فاستوعبت هذه اللفظة جميع الحالات المتعلقة بالوصف، وهذا من الإعجاز البياني للقرآن الكريم، الذي استوعبت اللفظة الواحدة فيه جميع ما يحيط وما يتعلق بها من مراد الشارع الحكيم سبحانه وتعالى، فاسْتُغنِيَّ بها عن غيرها. مما يدل على أن جزالة الأسلوب في عمق اللفظة، وفي تراكيب السياق اللفظي، وكذلك موقع اللفظة من الجملة، فإنها جميعاً لَتُحيطُ بالمراد شمولاً ودلالة ومقصداً، فسبحان من أعجز كلامه وبيانه خَلْقَهُ، حتى وصل رتبة الإعجاز في السياق، وفي الأحكام، وفي الأهداف والغايات، وفي كله وأجزائه وتفاصيله.

ثم ذكر العلي القدير ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو المسافر، الذي يجتاز ماراً بغيره في سفره، فحث الكريم الرحيم الإحسان إليه. وذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أن السبيل هو الطريق، فَنُسِب المسافر إليه، لمروره عليه ولزومه إياه، ومن الإحسان إليه إعطاؤه وهدايته وإرشاده(١) ويدخل في هذا ضيافته وإكرامه وإن كان غنياً. وفي هذا ما يدل على أن الإحسان والمعروف ومكارم الأخلاق في منهج الإسلام تمتد وتتجاوز من لا يعرفه المسلم، ولا يمت له بصلة، وقد يكون بمن لم يلتق به إطلاقاً، وقد لا يلتقي به ما عاش في الدنيا، فالإحسان ليس بقصد المعاوضة، بل استجابة لمنهج الله تعالى. كما يفيد هذا: أن الإسلام دين مبادرة وعطاء خالصاً لوجه الله تعالى، من غير رياء ولا سمعة، ولا يتقصد بها منفعة دنيوية.

ثم ذكر سبحانه وتعالى ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ وهم المماليك، أي الرقيق المملوكين، فهو ضعيف الحيلة، وأسير في أيدي من يملكه، فكفل له سبحانه وتعالى الإحسان إليه، بكل وجه يمكن أن يكون، وذكر ابن الجوزي أن بعض العلماء أدخل في ملك اليمين الحيوان البهيم(٢)

ومن الفوائد الكلية لهذه التوجيهات الربانية: أنها شملت علاقات الإنسان بجميع شرائح المجتمع، ومنها درجات الصلة التي بين العبد وبين غيره من الناس، بما فيها الحيوانات، وجميعها محفوفة بالإحسان في التعامل، وهذا من كريم لطفه عَزَّ وجل، بل من مزيد رحمته ولطفه أنه لم يوجه تبارك

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢٤/٥)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٢٣/٢)

وتعالى هذه العلاقة على سبيل المعاوضة، أي بالمماثلة، بل جعلها بالإحسان، لأن الإحسان يفوق المعاوضة والعدل، بل يتجاوزه إلى المبالغة في الإكرام، كما تم بيانه من قبل. ولهذا فإن له أثره العظيم في لحمة المجتمع القريب والبعيد من الناس، بما يؤكد أن من مقاصد الشريعة العليا تحقيق التآلف الاجتماعي. وهذا يدل على أن هذا الدين دين عدل وشمولية في الأخلاق، وأن هذا لا يمكن أن يصدر إلا من خالق هذا الكون العظيم، كما أن عظمة هذه النصوص تدل على عظمة المتكلم بها سبحانه وتعالى.

ثم بعد هذا الأمر بتلك الأخلاق الكريمة، والسجايا الحميدة، يأتي النهي عن سلوك السوء، المناقض لِمَا وَجَّه به تبارك وتعالى من كمال الأخلاق، فجاء التوجيه الرباني في جملة وآية بلاغية عظيمة، لما حوت من المعاني الكثيرة والعظيمة، في كلمات قليلة. قال الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ إن ربكم أيها الناس لا يحب من اتصفت أخلاقه بالفخر. بما يفيد أن المنهي عنه صفة الاختيال الممتلئة بالفخر. والتي تجمع كل ما يضاد الإحسان وجماله، لأن المتفاخر إذا بذل خيراً بذله بفخر وخيلاء وتعالي، فنقل ما فعل من خير إلى بساط الشر والأذى، بفخر الخيلاء، لأن الإنسان بفطرته السوية لا يحب من يفعل له الخير في صورة الشر. وهي التي عادة ما تتمثل فيمن يكون تصرفه بخيلاء مملوء بالتفاخر.

والمختال هو ذو الخيلاء أي الكبر. فإذا أعطى فإنه يعطى بكبر وترفع على الْمُعْطَى. وأما الفخور: فهو الذي يعدد مناقبه وإحسانه ومعروفه كبراً، وفي ذلك بذخ وتطاول. وهذا لا يُرضِي من أُحْسِنَ إليه. بل فيه أذى ومذمة له. فخرج الْمُعْطِي بمعروفه إلى شر الأخلاق ومنكراتها. فمن كانت هذه أخلاقه، فإن الله تعالى نفى حُبَّه له، ومن نفى الله حُبَّهُ له فقد خسر خسراناً مبينا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ وفي نفي محبة الله تعالى دليل على بغض الله عَزَّ وجل لهذه الأخلاق السيئة، ولمن تخلق بها. فجاء النهي عنها بنفي حُب الله تعالى لمن تخلق بها، بما يفيد النهي والتحذير، والتهديد والعقاب. لأن نفي المحبة عقوبة، وكفى بها عقوبة رادعة. فجاء التوجيه الرباني ببلاغة عظيمة، إذ تضمنت جميع صور السلوك السيء في لفظتين ﴿مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ حتى وإن توشح سلوكه بخصلة من خصال البر، ثم اقترنت بالفخر والخيلاء، فقد نقلها من الخير إلى الشر، ومن الفضيلة إلى الرذيلة. فسبحان من جعل من مظاهر إعجازه: بيانه ونظامه وعموم تشريعه.

ومن الفوائد كذلك: أن ختام الآية العظيمة جاء نهياً عَمَّا يُضَاد محتوى المأمور به من الإحسان. وهذا من البديع البلاغي. لأن من البديع البلاغي الختام بالنهي عَمَّا يُضاد محتوى المأمور به. كما أن النهي جاء في صورة النفي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ فنهى سبحانه وتعالى عن أخلاق الفخر والخيلاء بصيغة نفي المحبة عن من تخلق بهذا الْخُلُق الذميم.

ثم يبين الله تبارك وتعالى المزيد من صفة الذين لا يحبهم عَزَّ وجل ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ وهذا يفيد الذم للذين يبخلون بأموالهم من أن ينفقونها فيما أمرهم الله تعالى به من بر الوالدين، والإحسان إلى الأقارب واليتامى والمساكين، والجار ذي القربى والجار الجنب، والصاحب بالجنب وابن السبيل، وما ملكت الأيمان، ولا يدفعون حق الله تعالى فيها، ويأمرون الناس بالبخل[١] وفي كونهم يجمعون بين البخل وبين الأمر به، فقد جمعوا بذلك أرذل صفتين، مما يفيد أن المانع هو داء الحسد للغير، من أن يصيب غيرهم الخير، لأن رغبتهم قد انحصرت في حصرهم أن لا تكون النعمة إلا فيهم، وأن لا يمتد لغيرهم. ولَمَّا أن عطاء غيرهم للآخرين، قد يرفع المعطين قدراً، ويخفض الممتنعين منزلة، أججوا عليهم غيرهم، بدعوتهم إلى الإمساك.

ومن صفاتهم كذلك ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: جمعوا مع الامتناع عن العطاء، ونهي غيرهم عن العطاء، أنهم يُخفُون فضل الله تعالى عليهم. فالكتمان جحود وإنكار لنعمة الله تعالى عليهم، سواء من المال، أو العلم، أو غيره من فضل الله تعالى. ومن دقائق البيان أن الله تبارك وتعالى أضاف ما عندهم من الفضل والخير له سبحانه وتعالى ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فامتناعهم عن إنفاقه هو امتناعٌ عَمَّا خولَهُم اللهُ تعالى فيه من فضله. مما يفيد أن ما يصيب الإنسان من خير هو فضل من الله تعالى، قد استودعه عند من تفضل عليه به، فيلزمه أن يطيع المالك الحقيقي فيما أمره به في هذا الفضل، ثم إن الفاضل عندما يتصرف فيما فُضِّل به من خير، فإنه مُسْتَأمَن عليه، وعندما يقوم بحق الله تعالى فيه، فإنه يُدرك أنه ليس مِنَّةً مِنْهُ على غيره،

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٠٨/١)

بل هو يتصرف في فضل الله تعالى الذي استأمنه عليه، وفضله به على المفضول. وعندما يستشعر المؤمن ذلك، فإن تصرفه فيما أعطاه الله تعالى من الفضل هو تصرف الكريم بما ارتكز في نفسه من حقيقة الفضل وملكه وتمليكه.

ثم قال تبارك وتعالى ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ وقد حمل بعض السلف هذه الآية على ما بخل به اليهود من إظهار العلم الذي عندهم من صفة نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم، وكتمانهم ذلك[1] فجعل الله تبارك وتعالى للجاحدين بنعمته التي أنعم بها عليهم عقاباً مُذِلاً من العذاب.

وهذا يفيد أن أخلاق البخل بالمال والعلم هي من أخلاق الكافرين، فمن اتصف بها من المسلمين فقد اتصف ببعض صفات الكافرين من اليهود وغيرهم. فجمعت الآية الكريمة دلالتين: دلالة خاصة، ودلالة عامة، فالدلالة الخاصة هي بخل اليهود بما عندهم من العلم عن صفات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، والدلالة العامة هي البخل والكتمان عموماً. وهذا من غزارة العطاء المعرفي في دلالات القرآن الكريم. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ولا شك أن الآية محتملة لذلك، والظاهر أن السياق في البخل بالمال، وإن كان البخل بالعلم داخلاً في ذلك بطريق الأولى، فإن السياق في الإنفاق على الأقارب والضعفاء، وكذلك الآية التي بعدها ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فإنه ذكر الْمُمْسِكِين المذمومين، وهم البخلاء. ثم ذكر الباذلين المرائين، الذين يقصدون بعطائهم السُّمْعَة، وأن يُمدَحُوا بالكرم، ولا يريدون بذلك وجه الله تعالى[2]

ثم ذكر سبحانه وتعالى عقوبة هؤلاء الكافرين ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ فجعل الله تبارك وتعالى ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ للجاحدين نِعَمَهُ التي أنعم بها عليهم: من المعرفة بنبوة محمدٍ صلى الله عليه وسلم، فكذبوا به، بعد علمهم به صلى الله عليه وسلم، وكتموا نعته وأوصافه

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢/٧) وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٠٨/١)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٠٨/١)

التي يعرفونها في كتبهم، فجعل عقابهم عقاباً مُشْتَمِلاً على المذلة ﴿ مُّهِينًا ﴾ ففيه مهانة وذلة وصغاراً، وذلك نتيجة جحود النعمة. مما يفيد خطورة جحود نِعَمِ الله تعالى، وأهمية شكر الله عليها، والثناء عليه بما هو أهله عَزَّ وجل، والعمل فيها أنعم وفق ما أمر وشرع عَزَّ وجل.

ثم ذكر سبحانه وتعالى حال الكافرين الذين يَجْمَعُون بين الرياء وعدم الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ فمن صفاتهم أنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، إذ لو كانوا يؤمنون لما كان إنفاقهم للرياء من أجل السمعة، لِيُعَظموهم ويبجلونهم، فيُقال ما أكرمهم وما أجودهم، مما يدل على أن محبة الرياء تدفع النفس إلى محبة الحصول على ما يُعظمها، مبتعدة عن الإيمان بالله واليوم الآخر، الذي يُهَذِّب النفس عند عطائها وإنفاقها.

ثم ذكر سبحانه وتعالى كيد الشيطان الذي يدفع ويحمل الإنسان على مسلك الرياء والكفر ﴿ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴾ مما يلزم الحذر منه، وأن في إدراك هذا ما يتعلم منه المؤمن خطورة الشيطان، وقوة تزيينه بما يصرف العبد عن طاعة ربه تبارك وتعالى، ويجعله ميالاً ومحباً للتفاخر والتعاظم، والعمل من أجله، حتى لو ابتعد به الرياء عن الإيمان، ورماه في ظلمة الكفر والعذاب المهين. فمن يكن الشيطان له خليلاً وصاحباً، فساء هذا الصاحب صاحبه بأشنع الصحبة ﴿ فَسَآءَ قَرِينًا ﴾ فبئس الصاحب الذي يصحبك ويسحبك إلى نار جهنم.

وهذا يفيد أهمية الحذر من الشيطان، وأهمية الحذر من كل قرين يزين للمرء تحصيل الشهوات، والمقاصد الباطلة، التي تمنعه من طاعة الرحمن، وتحبب له معصية العظيم الجبار.

ثم يقول الله تبارك وتعالى في حق الذين لم يؤمنوا به ولا باليوم الآخر، ولا ينفقون مما أعطاهم الله تعالى من الخير ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ فما هو العذر الذي يمنعهم من الإيمان به سبحانه وتعالى وباليوم الآخر، وينفقون مما أعطاهم الله تعالى من الخير.

فجاءت الآية الكريمة بأسلوب الاستفهام الاستنكاري، مما يدل على أنه ليس هناك مانع يمنعهم من الإيمان والإنفاق. والأسلوب الاستنكاري فيه استثارة الفكر والعقل والتأمل في حقيقية الشيء، ومن ذلك امتناعهم عن الطاعة. فليتأملوا في امتناعهم، إذ لو تأملوا لتراجعوا عَمَّا هم فيه من الغواية، والصدود عن الإيمان. ففيه بيان جهلهم بالمنفعة الحقيقية، إذ يعلنون عنها من غير سبب. مما يفيد التوبيخ والذم لهم، وأن عليهم مراجعة أنفسهم حسب موعظة الله تعالى لهم.

وفي هذا الأسلوب الاستفهامي من الفوائد التطبيقية عند التعليم والتوجيه، والدعوة، والنصح أنه أسلوب يُعيد المتعلم والمنصوح للجادة والحق، ومن أمثال ذلك: ماذا عليك؟ وماذا يضرك؟ وما الذي يترتب عليه؟ ونحو ذلك مما يُقاس عليه، لِمَا فيه من استثارة الذهن نحو الحقيقة.

ومن دقائق البيان الكريم أن السؤال في قوله تعالى ﴿ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ قد ورد موجهاً لغيرهم عنهم، بما يفيد أنهم لا يستحقون المخاطبة لصنيعهم الْمُتَعَمَّد، دونما أي ما نع يمنعهم من الإيمان والإنفاق مما رزقهم الله تعالى، مما يفيد التوبيخ واللوم. كما يفيد هذا الأسلوب: التنبيه إلى أنه لا يمنعهم غير غواية الشيطان واتباعهم له. ومن الفوائد في الميدان التربوي والتعليمي والدعوي: التنبيه باستثارة الفكر نحو حقارة وضآلة المانع أو سبب التمنع عن الفهم أو الطاعة والأداء، ليدرك الْمُخَاطَب الخطأ الفكري والتصور الخاطئ الذي يحول بينه وبين مصالحه. وهذا يبين أن كثيراً من المعاصي والمغالطات إنما هي نتيجة الخطأ والقصور في التصور للحقيقة، إما بسبب الكبر، أو الاقتداء الخاطئ دون تَمَعّن وتفكر، وهذا يؤكد أهمية التعليل والتبصير عند التوجيه، لتتسع القدرات الذهنية في التصور والفهم.

ثم يأتي ما يفيد الحث على العدول عن الكفر، بالوعيد الشديد على ما هم فيه من الصدود ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴾ فإن الله تعالى عليم بما هم فيه وعليه، فيكون هذا وعيد وتهديد، لأنه سوف يجازيهم بما هم عليه. وفي نفس الوقت فيه حث لهم على المسلك الصحيح، فهو سبحانه وتعالى لن يضيع أعمالكم وإيمانكم لو آمنتم وأنفقتم، لأنه بكم عليم. وهذا يفيد أن في تقرير علم الله تعالى في النفس ما يدفعها للخير والإخلاص فيه، ويمنع عن الاندفاع للشر، للخوف من الله تعالى الذي

أحاط بعلمه السرائر فضلاً عن الظواهر. وهذا يقرر أهمية العلم والمعرفة بدلالات أسماء الله الحسنى وصفاته العليا.

ثم يبين الله تعالى عدله وكرمه وإحسانه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ فلقد جاء البيان القرآني الكريم بنفي الظلم من الله جَلَّ شأنه لعباده، حتى ولو بلغ في صغره وقلته ما لا يؤبه به، كما قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في معنى ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ رأس نملة حمراء[1] وفي هذا ما يفيد شدة المبالغة في عدم الظلم، حتى ولو كان عمل الإنسان مثل رأس النملة الحمراء التي إذا فُصِلَ الرأس منها يكاد لا يراه الرائي. ومن الفوائد: أن الله تعالى نفى ظلم عباده بما يفيد إثبات العدل وكماله في الجزاء، حتى ولو كان أمراً صغيراً. ومن الفوائد: أن هذا من حكمته وعدله ورحمته سبحانه وتعالى، وإلا فقدرته وعظيم سلطانه لا يُوجب عليه شيئاً، وهو الذي لا يُسأل عَمَّا يفعل ويقضي تبارك وتعالى، وليس هناك من يُعَقِب على حكمه، مما يفيد أن إخباره لعباده بكمال عدله ليندفعوا إلى طاعته، وعدم القنوط من رحمته، وبما يدل على عظيم رحمته عَزَّ في علاه. ومن الفوائد كذلك أهمية بيان الحقائق من القائد للمتبوعين، حتى تطمئن نفوسهم. فإذا كان الله تعالى قد أخبر عباده بكمال عدله وهو الغني عنهم غناء تاماً، فكيف بمن هو دونه مع غيره.

بل من كرمه وجوده تبارك وتعالى هو مضاعفته لثواب الحسنة الواحدة. فقال عَزَّ وجل ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ فمن كرمه سبحانه وتعالى أن ثوابه على الحسنة من وجهين عظيمين: الأولى: المضاعفة ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا ﴾ والثانية: تعظيم العطاء وتكثيره ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ بل وأضاف عَزَّ وجل الأجرَ العظيم له عَزَّ وجل، بأنه من لدنه، وهو غاية الكرم واللطف منه سبحانه وتعالى ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: فإنه يعني: أن يعطيه من عنده أجراً

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٩/٧)

عظيماً، أي عوضاً من حسنته عظيماً، وذلك العوض العظيم: الجنة[١] وقد قال بالأجر العظيم أنه الجنة الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه[٢] وكان بعض أهل العلم يقول: لأن تَفْضُل حسناتي على سيئاتي ما يزن ذرة، أحَبُّ إليَّ من الدنيا جميعاً[٣] قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: إن هذه الآية إحدى الآيات التي هي خير مما طَلُعَت عليه الشمس[٤] وهذا يبين عظيم فقه الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

ومن فوائد دلالات الآية الكريمة أن الله تعالى لم يحدد عدد المضاعفة ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا ﴾ مما يدل على كرم الله تعالى، إذ ربما حسنة صغيرة كالذرة أو الخردل، يضاعفها تبارك وتعالى، فينجو بها المؤمن من العذاب، ويدخل بتلك المضاعفة للحسنة جنات النعيم. وهذا من كرمه ورحمته سبحانه وتعالى، ولذلك قال بعض أهل العلم: لأن تَفْضُل حسناتي على سيئاتي ما يزن ذرة، أحَبُّ إليَّ من الدنيا جميعاً، كما سبق بيانه.

وكذلك من جوده عَزَّ وجل أن قال جَلَّ شأنه ﴿وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾ فلم يحدد هذا الأجر، ولم يحدد مقدار عظمته. فلا يعلم أحدٌ مقدار كرم عطاء الله سبحانه وتعالى إلا هو العزيز الحكيم. ولهذا قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: إن هذه الآية إحدى الآيات التي هي خير مما طَلُعَت عليه الشمس. فاسأل الله تعالى لي ولإخواني المسلمين والمسلمات من فضله وكرمه ما يجعلنا من السعداء.

ثم ينتقل السياق الكريم والتوجيه العظيم بالمخاطبين إلى التأمل في موقف عظيم مهيب، فقال الله عَزَّ وجل ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴾

(١) المرجع السابق (٧/٣٧)

(٢) المرجع السابق (٧/٣٢)

(٣) المرجع السابق (٧/٢٩)

(٤) القرطبي، تفسير القرآن العظيم (٥/١٢٨)

فبدأت الآية الكريمة باستفهام توقف وتعجب، وتأمل لموقف الشاهد والمشهود الذي سيمر به هؤلاء. وفيه استثارة الذهن للتفكر في تبعية المآل، والتفكر في النتيجة، والتأمل فيما سيتحقق من واقع الحال لواقع المآل الذي لا ريب ولا شك فيه. فهو خطاب يستجيش النفس والفكر، بتصوير يستجمع فيه الإنسان صور الشاهد والمشهود عليه، واجتماع الخلائق مع أنبيائهم. حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعبرت عيناه عند هذه الآية الكريمة. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن مسعود رضي الله عنه (اقرأ عليَّ) قال: أقرأ عليك، وعليك أُنزِل؟ قال (إني أُحبُّ أن أسمعه من غيري) فقرأ ابن مسعود رضي الله عنه النساء، حتى بلغ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ فاستعبر النبي صلى الله عليه وسلم. وكَفَّ ابن مسعود. وفي رواية البخاري، قال صلى الله عليه وسلم لابن مسعود ﴿أمسك﴾ فالتفت إليه، فإذا عيناه تذرفان.[١] مما يبين تفاعل وتأثر النبي صلى الله عليه وسلم مع هذا الموقف الذي سيكون بلا شك ولا ريب.

ودلالة ﴿ فَكَيْفَ ﴾ في الآية الكريمة، وفي هذا الموقف تستثير الذهن ليتصور عليه الصلاة والسلام ذلك المشهد، وكأنه يُعايشه، فبالرغم من أن موقف النبي صلى الله عليه وسلم موقف عز وشرف له أن يكون شاهداً، إلا أنه استعبر، وذرفت عيناه دمعاً، صلى الله عليه وسلم لهول الموقف وعظمته ورهبته، ولأن دلالة ﴿ فَكَيْفَ ﴾ في خطاب القرآن الكريم تستثير الذهن، ليتصور ذلك الموقف العظيم والمهول، وكأنه أمامه، وكأنه يعيشه تلك اللحظة، ولأنه صلى الله عليه وسلم يتدبر ويتأمل تلاوة ابن مسعود رضي الله عنه، فكأنه يُشاهد ويُعايش ذلك اليوم المشهود. مما يفيد أهمية التدبر للقرآن الكريم.

قال ابن الجوزي: قال الزجاج: معنى الآية فكيف يكون حال هؤلاء يوم القيامة، فَحُذِفَ الحال، لأن الكلام دليلاً عليه، ولفظ ﴿ فَكَيْفَ ﴾ لفظ الاستفهام، ومعناه التوبيخ[٢] أي فكيف

---

(١) البخاري برقم (٥٠٥٠) ورقم (٥٠٤٩)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٢٦/٢)

يكون حالهم؟ وكيف يصنعون؟ إذا حُشروا يوم القيامة، وتوارى واضمحل واختفى عنهم ما كانوا فيه من لهو الكفر والعصيان. وجاء رسولهم يشهد عليهم بما فعلوا، ويأتي نبي الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم شاهداً على أمته. وهنا يذكر الله سبحانه وتعالى حال الكافرين في هذا الموقف العظيم ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ فيتمنى الكفار لو يُسَوِي اللهُ تعالى بهم الأرض، أي يجعلهم والأرض سواء. أو يتمنوا لو لم يبعثهم الله تعالى، وكانت الأرض مستوية عليهم، فيكونوا من التراب الذي بُعِثُوا منه. أو تمنوا لو انفتحت لهم الأرض فساخوا فيها، أو تنشق، فَتُسَوى عليهم. فتمنوا هذا حين رأوا البهائم تصير تراباً، وعلموا أنهم مخلدون في النار. فتمنوا الزوال والاضمحلال والتلاشي، لأن كل شيء منهم مكشوف لله تعالى، فليس أمامهم إلا العذاب. لأن ما عملوه ظاهر عند الله تعالى لا يقدرون على كتمانه[1] ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ فلا يقدرون على كتمان شيءٍ مما كان منهم، لأنه لا يخفى على الله تعالى منه شيء، ولأن جوارحهم فضحتهم، فهي ناطقة عليهم، فلم يكتموا عن الله حديثاً، فيشمل شركهم، وسرهم وعلانيتهم في حياتهم الدنيا.

مما يفيد أن هناك يوم لا تنفع فيها أمنيات ورجاء العودة، ولا أمنيات التخلي، ولا أمنيات الاضمحلال، ولا يستطيع أحَدٌ أن يكتم شيئاً يُنْقِذ به نفسه. وبالتالي على الإنسان أن يستعد لذلك اليوم بطاعة الله تعالى، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾

ينتقل السياق القرآني الكريم إلى مخاطبة المؤمنين بما يلزمهم من التحرز امتناعاً وأداءً للصلاة، حتى ينتفي المانع ويزول. فأمرهم سبحانه وتعالى بالتحرز من أثر الخمر عليهم عند أداء

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢٩/٥-١٣٠) بتصرف

الصلاة، وكان ذلك قبل تحريمها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ خص الله تبارك وتعالى بهذا الخطاب المؤمنين، لأنهم كانوا يقيمون الصلاة، وقد أخذوا من الخمر، وأتلفت عليهم أذهانهم، فَخُصُّوا بهذا الخطاب[١] حفظاً للصلاة، وإظهاراً لأهمية شعيرتها، إذ لا تصح ممن هو شارد الذهن، وفاقد لما تعتمد عليه الصلاة وهو العقل.

وابتدأت هذه الآية الكريمة بأسلوب النداء الذي يحمل في دلالته لفة الانتباه، وإرعاء السمع، وأخذ الأمر بما تضمن من توجيه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وفي تسميتهم بالذين آمنوا ما يفيد أنه حري بكم أن تستجيبوا لما تسمعون من خطاب رب العالمين، لأنكم آمنتم به وبرسوله صلى الله عليه وسلم، كما أن فيه مدح وثناء لهم بتقرير إيمانهم، وأنه ينتفي مع هذا الإيمان التعذر عن عدم الوفاء بمضمون ما نُودُوا له وأُمِرُوا به. كما أن في مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل.

وهذا يفيد القيمة الأخلاقية في خطاب الآخرين، فإذا كان الله تعالى يخاطب عباده بهذا النداء الذي يحمل المدح والتكريم، وهو من الخالق للمخلوق، فإن قيمته الأخلاقية ومنزلته مُتَحَتِّمة بين المخلوقين، الذين يتساوون في عبوديتهم لله تعالى، فكلهم عبيد لله تعالى، والاقتداء بذلك حق أخلاقي بين المسلمين في مخاطبة بعضهم بعضا بأحسن الألفاظ والعبارات. كما أن في هذا الأسلوب استحثاث وتشجيع للمخاطَب نحو ما خُوطِب به. وهذا من لطفه وتلطفه سبحانه وتعالى بعباده الذي يبين وجهاً من أوجه اسمائه وصفاته تبارك وتعالى **(اللطيف)**

وفي النهي عن إتيان الصلاة سكارى، ما يفيد خُبث المُسْكِر، ورفعة منزلة شأن الصلاة، فلا يجوز أن يجمع مع مقام الصلاة أثر المسكر، فيلزم ويجب الحذر من الجمع بين أمرين متناقضين، مُسكر يُغَيب العقل، وصلاة يلزم لها خشوع القلب والعقل والجوارح، فمن غاب عقله امتنع عنه الخشوع، بل جاء بما يُضاده. ومن الفوائد كذلك: أهمية الخشوع في الصلاة، والاجتهاد في ضبط العقل والقلب من السرحان في الصلاة، وإزالة كل ما يُشغل العقل عن الصلاة، ويخرجه عمَّا يجب

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣٠/٥)

للصلاة. وفيه دليل على منزلة الصلاة، وأنه يلزم لها الخشوع، وبذل أقصى ما يمكن لتحصيله، ودفع كل ما يمكن من موانعه. وكذلك من الفوائد: لطف الله تعالى في تحريم الخمر بالتدرج، لِمَا اعتادوا من تناوله في الجاهلية.

وفي النهي بدلالة لفظة الاقتراب من الصلاة ﴿لَا تَقْرَبُوا﴾ غاية التحذير في النهي، لأنه أبلغ من النهي عن الأداء. إذ لم يَقُل تبارك وتعالى: لا تصلوا وأنتم سكارى، بل جاء النهي عن مجرد الاقتراب ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾ مما يفيد المبالغة في شدة النهي، فَيُعْطِي ويبين منزلة ومكانة الصلاة، لأن النهي عن الاقتراب أبلغ من النهي عن الأداء.

ومن حيث الجانب التربوي، فإن أوقات الصلاة متقاربة، وأن الأوقات المتباعدة هي من صلاة الفجر إلى صلاة الظهر، وهي أوقات العمل والتكسب، فلا تُترك من أجل الخمر، وكذلك من وقت صلاة العشاء حتى صلاة الفجر، وهو وقت النوم والراحة، فيكون في تناولها هذه الأوقات مشقة معيشية، فيكون الامتناع فيها هو امتناع معيشي، وتصبح بقية الأوقات امتناع عبادة، لتقارب أوقات الصلوات، مما يُزَهد في شربها، وتَخِفُّ شدة تحريم تناولها بعد هذه التربية النفسية، مع تربية القدرة على التحكم في الإرادة، وبالتالي لا يمكن أن يكون هذا التشريع في حكمته إلا من لدن عزيز حكيم.

وتناولت الآية شرط الانتهاء من أثر الخمر لأداء الصلاة ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ ودلالة ﴿حَتَّىٰ﴾ يفيد تمام الانتهاء، أي انتهاء أثر السكر تماماً، وهذا يفيد شدة التحرز، بما يدل على منزلة الصلاة، ومنزلة الخشوع، والتحرز له من أي مانع أو مؤثر، حتى ولو كان أثر نهاية السكر. وقد جاء في صحيح البخاري رحمه الله تعالى عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إذا نعس أحدُكُم وهو يصلي فليرقد، حتى يذهب عنه النوم، فإن أحدَكُم إذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يستغفر فيسُبُّ نفسَهُ)[١]

---

(١) البخاري (١/٨٨) برقم (٢١٢)

وقوله تعالى ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ يفيد بالمقابل أن السَّكْرَان يقول بما لا يعلم، وأن كلامه منفي عنه العلم، ومن الفوائد كذلك أن الشرط الذي يتحقق به الخروج من أثر السكر، هو العلم بما يقول. وأن القول أدق أثراً من الفعل في إثبات الخروج من أثر السكر، لأن الله تعالى لم يقل: حتى تعلموا ما تفعلون.

وجاء في كُتُب التفسير أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية التي في سورة البقرة ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ﴾ فدُعي عمر فقرئت عليه. فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في سورة النساء ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التي في سورة المائدة[1] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَـٰمُ رِجۡسٌ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَـٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ وهذا يبين حكمة الله تعالى في الإجابة بتدرج، حتى يقلعوا عما اعتادوه. كما يبين فقه وحرص عمر ابن الخطاب رضي الله عنه.

وهذا يفيد بيان فطنة الصحابة لهذين الأمرين: الخمر والميسر من أنهما ليستا من الصالحات، لما في الخمر من غياب العقل، ولما في الميسر من أكل مال الآخر بالظلم. ويفيد التدرج في نزول تحريم الخمر على رحمة الله تعالى بالمؤمنين، في معالجة ما اعتادوا عليه في الجاهلية من الخمر والميسر، فكان عادة من عاداتهم، حتى أصبح الانفكاك منها ليس بالأمر اليسير على البعض، فجاء التحريم في تدرج. مما يفيد أيضاً مراعاة الله تبارك وتعالى للطبيعة الإنسانية وأحوالها، فيتعامل معها الملك القيوم وفق الْسُنَن التي جُبِلَت عليها النفس البشرية. فتبارك الله رب العالمين في كل حال. وهذا يُفيد أهمية مراعاة الخصائص والطبائع البشرية، عند التوجيه والإرشاد والدعوة والتعليم، وخاصة الجبلية، كصعوبة الانفكاك عن بعض الأشياء مرة واحدة، والتعامل معها من خلال مقتضيات

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٢٦٢)

ذلك، وعدم التغافل عن تلك الطبائع حتى يؤتي التوجيه ثماره. ومن تلك الطبائع: النسيان، والغفلة، وضعف النفس البشرية، فظهرت حاجتها للتذكير المستمر، وخاصة أن النفس البشرية إذا أَلِفَت شيئاً احتاجت للبديل أحياناً، واحتاجت إلى المجاهدة، التي تتطلب المغالبة على الشهوات. وكذلك يسري هذا في اكتساب الفضائل، فقد تحتاج لمثل ذلك من التدرج، وقد أشارت السنة النبوية إلى ذلك، كقوله صلى الله عليه وسلم (العلم بالتعلم والحلم بالتحلم)[١] ومثل (لا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب صديقا)[٢] مما يبين عناية المنهج الإسلامي بأدق أساليب المعالجة للطبائع البشرية.

ثم عطف سبحانه وتعالى على الخمر كذلك النهي عن اقتراب الصلاة في حال الجنابة، حتى يحصل الاغتسال منها ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ واستثنى تبارك وتعالى عابر السبيل، وهو المار بالمسجد غير ماكث به، مما يفيد رفع الحرج عن الْجُنُب من أن يمر بالمسجد مروراً، وهذا من يسر الدين، لأن المسلم قد يمر بالمسجد لعلة وحاجة. ومن الفوائد اللفظية أنه لم يحدد نوع وعلة العبور لتستوعب تنوع مقتضياته الموجبة للعبور، وكذا تعددها وحالاتها. وهذه من الدقة في الاستثناء من حكم النهي. وذكر الإمام ابن جرير الطبري قول يزيد بن أبي حبيب رحمهم الله تعالى: أن رجالاً من الأنصار كانت أبوابُهم في المسجد، فكانت تصيبهم جنابة، ولا ماء عندهم، فيريدون الماء ولا يجدون ممراً إلا في المسجد، فأنزل الله تعالى ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ [٣] وقال بعض الصحابة رضي الله عنهم: لا تقربوا الصلاة وأنتم جُنُب إذا وجدتم الماء، فإن لم تجدوا الماء فقد أحْلَلْتُ لكم أن تمسحوا بالأرض. إلا أن تكونوا مسافرين فلم تجدوا الماء فتيمموا[٤]

(١) الهيثمي، مجمع الزوائد (١٣٣/١)
(٢) أحمد، المسند (٦/ ٢٧٣) برقم (٣٧٢٧)
(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٧/٧)
(٤) المرجع السابق (٥٠/٧-٥١)

وفي هذا ما يفيد أن من فوائد نزول القرآن الكريم متدرجاً أن عالج واقع الحال، الذي امتد أثره لما بعده من الأحوال والأزمان، وأن النص القرآني الكريم يحمل في صياغته معالجة الواقع، ويمتد فيض معانيه وسلطانه إلى ما بعده من الأزمان والأحوال، فازدادت بلاغة النص بهذا عمقاً بيانياً عظيماً. فالجملة في عدد كلماتها القليلة استوعبت نهياً ﴿وَلَا جُنُبًا ﴾ واستثناءً ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ ﴾ وشرطاً ﴿ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ﴾ ومن الفوائد كذلك: أن استخرج منها العلماء أن المقصود لا تقربوا مواضع الصلاة، وكذلك لا تقربوا الصلاة. فلا تقربوا مواضع الصلاة التي هي المساجد، حال كونكم جنباً إلا مارين بها من غير مكوث، ولا تقربوا الصلاة جنباً إلا بعد الاغتسال، وإن تعذر فالتيمم والنص القرآني الكريم يحمل كلا المعنين أو الدلالتين. وهذه من البلاغة البيانية في القرآن الكريم، بأن يعطي النص مرادين، أو وجهين لا تناقض ولا تعارض بينهما، بل يستوعبهما ويستوفيهما في توافق.

ثم بين تبارك وتعالى الأسباب الموجبة للرخصة، وهي حالات وأحوال المؤمن التي يتيمم فيها إذا تعذر وجود الماء، أو تعذرت القدرة على استعماله. فقال عَزَّ وجل ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ﴾ ومن فوائد ذلك رفع الحرج عن المؤمن حال عدم القدرة، والعدول للبديل، فليس في الدين من حرج.

مما يفيد أن من مبادئ هذا الدين رفع الحرج، ليكون مسلكاً في حياة الأمة، وفي تعاملها وتربيتها الذاتية ولغيرها، وقد قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها (ما خُيِّرَ النبي صلى الله عليه وسلم بين أمرين الا اختار أيسرهما، ما لم يأثم، فإذا كان الإثم، كان أبعدهما منه)[١] وكذلك فيه مراعاة أحوال الإنسان التي يمكن أن يكون عليها، فاستدرك الباري برحمته ما قد يعترض العبد، ثم هداه لأيسر السُبُل. وهي منهجية مهمة يُستفاد منها في واقع الحياة، كالتكاليف بين الرئيس

(١) البخاري (٤/٢٤٨) برقم (٦٧٨٦)

والمرؤوس، وبين الآمر والمأمور، وعلى نطاق الأسرة، والإدارة، وغيرها مما يماثلها من الأحوال. وهي منهجية يتعلم منها المؤمن منهج تحرير الأنظمة واللوائح، ووضع الاحترازات المتوقعة في طريق التنفيذ.

فأباح للمريض التيمم مع وجود الماء، إذا كان يتضرر، أو يعجز عن استخدامه. وكذلك في السفر، لأنه مظنة لفقد الماء فيه، أو قلته وشحه، بما لا يكفي سِقاءً ووضوء. وكذلك إذا أحدث الإنسان ببول أو غائط، أو لامس النساء، فلم يجد الماء تيمم حضراً وسفراً. فالإباحة في حالة عدم وجود الماء حضراً وسفراً، أو في حال المشقة في استعماله.

مما يفيد أهمية الرحمة والتيسير عند تولي أمور الغير: في ولاية، وإدارة، ومهنة، وتربية وتعليم، بأن يكون مبدأ الرحمة والشفقة قاعدة ومنطلقاً ومسلكاً في التعامل. وكذلك أهمية إيجاد البديل، ووضع الاحترازات عند التنظيم والترتيب.

وفي قوله تعالى ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ هو كناية عن الجماع، وهذا من تربية الأدب، مما يفيد أهمية الآداب اللفظية، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إن المس واللمس والمباشرة: الجماع، ولكن الله يكني ما شاء بما شاء[١] وهذا يفيد أهمية انتقاء الألفاظ، والتحرز من التصريح الخادش للحياء، وأن هذا الدين هو دين أدب وحياء. وكما جاء في الحديث (إن الله حيي سِتِّيرٌ)[٢] فكان ذلك متوافقاً مع صفة الله تعالى، ومع ما يحبه.

ومن الفوائد: أن الله تبارك وتعالى ذكر علة العدول إلى التيمم بألفاظ غير مقرونة بمساحة يضيق بها المفهوم، فلم يحدد نوع أو حجم أو مكان المرض من الجسم، لتكون المساحة واسعة أمام المريض، فَيُقَدِّر ذلك بنفسه. وكذلك السفر لم يتحدد به نوعاً ومسافة، ليستوعب به المسافر حاله التي هو فيها. والمرض كما عَرَّفَهُ الإمام القرطبي: هو خروج البدن عن حد الاعتدال والاعتياد، إلى الاعوجاج والشذوذ [٣]

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٤/٧)

(٢) أحمد، المسند (٤٨٤/٢٩) برقم (١٧٩٧٠)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤٠/٥)

فَأَذِن تبارك وتعالى بالتيمم عوضاً عن الماء ﴿ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا ﴾ والصعيد هو اسم لوجه الأرض، وهو التراب، وأما الطيّب فهو الطاهر الحلال، لأن الطاهر يَخْرُج به ما أصابته نجاسة، والحلال يُخْرِجُه مما يُحَرِّمُه كاستعمال تراب مغصوب. ولكن خرج الفقهاء من هذا النص بأحكام فقهية مليئة بالفوائد على اختلاف تأويلهم لكلمة ﴿ صَعِيدٗا ﴾ مما يدل على غزارة النص القرآني الذي تفتقت به العقول للوصول منه إلى المقصود. فقال البعض: أنه يشمل التراب والرمل والحجر والشجر. ولكن المتأمل قد يجد أن في هذا التفسير الاجتهادي من الفوائد، ما يُمَكِّن الْمُفْتِي من إعطاء المستفتي من الفتوة المقتضية لحاله، وليس لغيره ممن لا يماثله بأن يأخذ بها، كأن يكون المستفتي في جبل أصم ليس عنده تراب إلا الصخر وربما حجر، ويشق عليه النزول للأرض لأي سبب كان. فإن رحابة النص وسعت الدلالات أنارت الأفهام في فهم كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فكانت السعة المستوفية لحالات وحاجات المؤمن. مما يفيد أهمية بُعد النظر، ورحابة الفكر، وأن المشتغل بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم تتوسع أفكارهم إذا تمعنوا في النص ومساحة دلالته، ومقاصده، وحالات المقصود به من الناس وأحوالهم.

وتضمنت الآية الكريمة صفة التيمم ﴿ فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡ ﴾ وبينة السنة النبوية التطبيق العملي لذلك. وهذا يدل على التكامل بين الوحيين الكريمين: القرآن العظيم، والسُّنَّة النبوية. ثم امتن الله تعالى في ختام الآية الكريمة على المؤمنين بقوله تبارك وتعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ فهو يعفو عن المسيء ويغفر للمذنبين، ومن كانت هذه صفته فإنه يُيَسر ويُسهل، ويرفع الحرج عن عباده، فذلك كناية عن الترخيص والتيسير، كما أن في هذا استحثاث للمؤمنين للاستغفار وطلب العفو منه تبارك وتعالى.

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ

سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ ﴾

ينتقل السياق القرآني الكريم إلى واقع يهود المدينة في العهد النبوي، ويكشف عن طرائق حديثهم، وأهدافهم، ومنهج تعاملهم، وانحرافهم وتحريفهم. فابتدأت الآية العظيمة بمخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ ويشمل ذلك مُخَاطبة المؤمنين، وكل من يسمع أو يقرأ كلام رب العالمين تبارك وتعالى. فإذا خُوطب النبي صلى الله عليه وسلم شمل الخطاب من معه ما لم يكن مخصوصاً به دون غيره. وخاطب الله تعالى بالقرآن الكريم الثقلين: الإنس والجن.

ودلالة ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ تأتي بمعنى ألم ينته إلى علمك خبر أولئك. وكذلك تأتي دلالة ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ بمعنى السؤال التقريري، لخبر من الله تبارك وتعالى، يُقرر فيه واقع يهود المدينة، بالكشف عن حقيقة سلوكهم المشين، وكلامهم السيء، وتحريفهم الباطل، ونواياهم الخبيثة. وعندما يقول الحق تبارك وتعالى لعبده أو لعباده ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ فهو إخبار منه سبحانه وتعالى، والخبر والبيان منه عَزَّ وجل يقع موقع الصدق، الذي لا مجال فيه لأدنى شك. فكأن الْمُخَاطَب قد عَلِمَهُ أو عايشه، أو شاهده، فموقعه موقع الصدق الذي لا جدال ولا مراء فيه.

وقد جاء النص القرآني الكريم بأسلوب لفت وشد الانتباه، بصيغة السؤال التقريري عَمَّا حدث من يهود المدينة ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ وهو في حقهم تعجب من أمرهم، وتوبيخ لهم من حالهم المنافي لما عندهم من الكتاب. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: ألم تر بقلبك يا محمد علماً، إلى الذين أُوتُوا نصيباً، وذلك أن الخبر والعلم لا يجلبان رؤية، ولكنه رؤية

القلب بالعلم بذلك. والمقصود في قوله تعالى ﴿أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي الذين أُعطُوا حظاً من كتاب الله، فعلموه[1] بما يؤكد علمهم بالحق، ولكنهم يعملون بخلاف ما علموا.

وهذا يفيد أن دلالة الرؤيا ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قد لا يُقصد بها رؤية العين، وإنما رؤية القلب المصحوب بالتأمل والتفكر. وهذا يفيد في إدراك دلالة التصرفات البشرية، ومنها تصرفات بعض أهل الكتاب، فإن البعض يظهر بتصرفاته ما يجعلها صحيحة في رؤية بصر العين، ولكن مكنونها ومضمونها وما تؤول إليه من نتائج هو خلاف ذلك تماماً، فهي تصرفات تحمل وراءها خلاف ظاهرها. وهذا من دقائق توضيح السلوك الإنساني من خلال البيان اللفظي البليغ في مُؤَدَّاه ومبناه، وكذلك بلاغة استخدامه. فسبحان من أبهر بكلامه عباده.

وفي هذا التوجيه الكريم من رَبِّ العالمين ما يثير دافعية التأمل في حقائق التصرفات بوجهيها القولي والعملي، مما يستثير الفكر نحو الانتباه لما يحيط به من أحداث وأمور، فيتطلب تفسيرها تفسيراً صحيحاً، ليستخرج منها الحقائق الصحيحة، وذلك لِمَا يترتب عليها من القرارات اللازمة لذلك الواقع. وأن منهج هذه الطائفة هو منهج الاضلال المتعدي ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ فهو متعدي لأنه تجاوز ضلال أنفسهم إلى إرادة إضلال غيرهم.

وقد تضمنت الآية لكريمة بيان المسلك والهدف لأهل الكتاب، فالمسلك هو ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ والهدف هو ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ فهم يدفعون الثمن من أجل شراء الضلالة، ودلالة كلمة ﴿يَشْتَرُونَ﴾ تفيد البذل مقابل الأخذ، فهي تفيد المعاوضة، بما يدل على انكفائهم عن الحق، وسعيهم إلى الضلالة، وذلك بمثابة بذل الجهد ودفع المقابل للحصول على الضلالة، كما يفيد هذا البيان القرآني الكريم: التَّيَقن من عملية الشراء والقبول والدفع، أي ليس هو كائن على جهالة، بل على علم مما هم فيه من الشراء للضلالة، وإرادة إضلال غيرهم.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٩٨/٧)

وقد أوضحت كلمة ﴿يَشْتَرُونَ﴾ عُمق ما كان منهم، وما هم فيه من معرفة للحق، ومع ذلك يبذلون الوسع في دفع الثمن من أجل شراء الضلالة. بما يؤكد حجم العناد والإصرار على الكفر، وشرائه بأغلى الأثمان وهو الإيمان. فيدفعون الإيمان والجنة ومرضاة الله تعالى مقابل الحصول على الضلالة.

فيشترون التكذيب بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهم يعلمون نبوته بما لديهم في الكتاب من وصفه ونعته صلى الله عليه وسلم، ويشترون بذلك ترك الإيمان. وكونهم يعرفون ذلك ويستعيضون عنه بالكفر، فهم بمثابة الذي باع الإيمان واشترى به الضلالة، عامداً متعمِّداً، فأي خسارة أبلغ من ذلك. وقد صور القرآن الكريم كل ذلك في كلمتين ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ﴾ وهذه من البلاغة البيانية القرآنية في كلام رب البرية.

ويهدف أولئك إلى إضلال المسلمين بالكفر ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ فلم يكتفوا بما هم فيه من الضلال، بل تَعَدَّى بهم الأمر إلى إيرادة إضلال المسلمين، بتركهم سبيل الحق، وسلوك سبيل الضلال، لأن الضلال هو: العدول عن الحق بعد معرفته. ولفظة ﴿وَيُرِيدُونَ﴾ توضح مقدار العزيمة القوية، لما تحمله الإرادة من الجزم والعزم والرغبة في الأمر. مما يفيد أهمية الرؤية القلبية الفكرية للرؤية البصرية، لأن الرؤية القلبية الفكرية تفحص وتمحص حقائق الرؤية البصرية. وهذا يفيد أهمية البصيرة وخاصة فيما يكون من أمر العدو، وهذا التنبيه الإلهي يفيد التحذير من مسلكهم، وكذلك التحذير من طرق الضلالة، ولزوم التمسك بطريق الهداية. وسؤال الله تعالى الثبات على الحق، فاللهم ثبتنا والمسلمين على الحق الذي تحبه وترضاه. ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا بفضلك وكرمك، إنك أنت الوهاب.

ثم يبين الحق تبارك وتعالى دقة علمه ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ فإن ربكم يعلم بأعدائكم أكثر منكم ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾ فَيُحَذِّركم منهم ومن مسلكهم. وكفى به ولياً لمن لجأ إليه ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ وكفى به نصيراً لمن استنصر به. لأن الولي هو الناصر والمتولي للأمر والقائم به، فمن كان وليه الله تعالى لم يضره شيءٌ البتة. وهذا

يُعَرِّف المؤمنين بحصانة الله تعالى لهم من أعدائهم إذا أخلصوا لله تعالى، مما يستحثهم إلى ابتغاء ولايته والسعي في تحقيقها، كما يفيد هذا أهمية التوكل على الله تعالى، فهو كافي أوليائه من شر ما خلق. ومن دقائق البيان إيراد علمه عَزَّ وجل ﴿أَعْلَمُ﴾ ونصره ﴿نَصِيرًا﴾ بصيغة المبالغة التي تفيد امتداد المعنى إلى أقصى غايته وكماله. مما يُوجب اتخاذ ربكم ولياً ونصيراً، كما أفادت دلالة ﴿وَكَفَىٰ﴾ كمال الكفاية لمن اتخذ ربه ولياً ونصيراً بطاعته، والتوكل عليه.

ثم يبين الله تبارك وتعالى حال فريق من اليهود، فقال عَزَّ وجل ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ فابتدأت الآية الكريمة ببيان أن بعضاً من اليهود، وليس كلهم، يغيرون ويحرفون الكلام عن مواضعه ودلالته. فيفسرونه بغير مراد الله تعالى، افتراء وقصداً منهم. وأن موضع هذا التحريف يقع على أحد وجهين، أو على كلا الوجهين، وهما: كانوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن الشيء، فإذا خرجوا من عنده، أَولُوا وحرفوا كلامه صلى الله عليه وسلم. والوجه الثاني: يقع على تأويلهم للتورات، فيؤلون ما فيها عن وجُوهِهِ وأماكنه[1] مما يفيد قوة جرأتهم على الله تعالى، وعدم أمانة هذه الطائفة، لأن الأمانة تقتضي إبقاء الشيء على حاله ومراده ومقصده، مما يفيد خطورة تأويل كلام رب العالمين وكلام سيد المرسلين عن المراد الصحيح، وكذلك خطورة تأويل كلام العلماء عن المراد المقصود والمحدد، ويقاس عليه كذلك تحريف كلام الناس عن مقاصدهم. وأنه يجب حمل الكلام على مراد قائله.

وفيه من الفوائد استيعاب كلام رب العالمين للوجهين من الدلالتين، وكلاهما حصل منهم. وهذا من بليغ الكلام، أن يتضمن المعنى ويستوعب المراد، بما يمنع التوسع، اكتفاءً بجزالة النص وقدرته على احتواء المراد.

ومن طُرق تعاملهم: ما بينه سبحانه وتعالى ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ فهم يُثبتون سماعهم وعلمهم، ويدركون مراده صلى الله عليه

---

(1) وقد ذكرت كتب التفسير تلك الدلالتين.

وسلم، إذ اعترفوا بذلك، فأثبت الله تعالى اعترافهم ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا﴾ ولكنهم يؤكدون مع تلك المعرفة الحقيقية عصيانهم وتمردهم، بقولهم ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أي: سمعنا منك يا محمد ولا نطيعك فيه. وهذا أبلغ في بيان كفرهم، وعنادهم، فيتولون عن كتاب الله تعالى بعد أن عقلوه، ويقولون كذلك ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ أي: اسمع غير مقبول ما تقول، وكذلك يحمل معنى اسمع لا سمعت[١] ومن أقوالهم وأفعالهم أيضاً ﴿وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ فهم يوهمون أنهم يريدون راعنا سمعك بقولهم ﴿وَرَاعِنَا﴾ ولكن يقصدون الرعونة، وهي كلمة يتسابُّون بها. فهم يلوون ألسنتهم ويصرفون معاني الكلام إلى ما يريدون من المقاصد السيئة، وهذا هو ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ أي تحريفاً، وكذلك سباً وغمزاً في هذا الدين ﴿وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ مما يفيد قوة الجرأة في تعاملهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم، وعنادهم لربهم جَلَّ جلاله.

ثم يبين الله تبارك وتعالى ما هو الأحسن ولأخير لهم. فقال جَلَّ جلاله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فلوا أنهم استجابوا لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم بالسمع والطاعة، وأجْرَوا الكلام على وجهه الصحيح لكان ذلك هو الخير، والأصلح، وهو النجاة لهم، وهو الأقوم والأعدل، ولكن خذلهم الله تعالى، وأبعدهم بسبب كفرهم ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ مما يفيد الحذر من معاندة نصوص الشريعة والجرأة عليها، فإنها مهلكة له، فقد أهلك أولئك تجرؤهم على دين الله تعالى، وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يأتي الخطاب لهم من الله تعالى مباشرة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ فجاء الخطاب الكريم من رب العالمين بأسلوب النداء، وهو

---

(١) ابن الجوز، زاد المسير في علم التفسير (١٣٤/٢)

يستدعي منهم الاستماع، خاصة وأنه نداء لهم بما ينتسبون إليه مما نزل من الله تعالى عليهم ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ وبالرغم من أنهم اشتروا الكفر بالإيمان، وما حصل منهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم، إلا أن الرحمن الرحيم يخاطبهم بما انتسبوا إليه، وهذا من رحمة الله تعالى لتليين قلوبهم وعقولهم للطاعة والاستجابة. كما أن فيه إثبات علمهم بأمر هذا الدين، وبأمر محمد صلى الله عليه وسلم، لأنهم أهل الكتاب الذي ذُكِر فيه نعت وصفة النبي صلى الله عليه وسلم. وفيه قيام الحجة عليهم، لأنهم أهل الكتاب الذي يلزمهم الانقياد له ولمضمونه وتوجيهه. وفيه كذلك من الدلالات أنه لا يليق بكم وأنتم أهل الكتاب، أن تكفروا بنبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم، الذي عندكم صفته ونعته في كتابكم الذي جاءكم من الله تعالى. وفي هذا الأسلوب استثارة لنفوسهم ومشاعرهم وعقولهم وقلوبهم، واستثارة لهممهم للتعقل والاستجابة لنداء الله تعالى بالإيمان والتصديق. مما يبين رحمة الله تعالى بالعباد، وأن مراده العظيم منهم هو الإيمان والنجاة من العذاب، ولكن البعض يأخذه الاستعلاء والكبرياء.

فبعد كل هذه الدلالات التي يحملها هذا النداء الرباني من الترغيب في الطاعة، يأمرهم سبحانه وتعالى بالإيمان؛ بدلالة أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم لا يناقض ما عندكم من الكتاب، فقال عَزَّ وجل ﴿ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم ﴾ فقد تضمنت هذه الحجة الربانية: أن ما أُنزِل على محمد صلى الله عليه وسلم وهو القرآن الكريم، لا يعارض ما أنزله تبارك وتعالى عليكم، وهو كتاب التوراة. فالذي عندكم يتوافق مع الذي أُنْزِل على محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يأتي التهديد والوعيد لهم بأمرين: الأول: متعلق بتشويه خلقتهم ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ﴾ من قبل أن نطمس أبصار الوجوه، ونمحو آثارها، فنسويها كالقفا. ﴿ فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ﴾ فنجعل أبصارها في أدبارها. يعني بذلك كما قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أي: نذهب بآثار الوجه وتخطيطه حتى يصير على هيئة القفا. وقيل: أنه بعد الطمس يردها إلى

موضع القفا. والقفا إلى مواضعها. وهذا هو ألصق بالمعنى الذي يفيد قوله تعالى ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾[١]

والتهديد الثاني: بما حصل لأسلافهم ﴿أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا﴾ وهو التهديد والوعيد بما يعرفون مما حصل لأسلافهم، بأن نلعنكم ونخزيكم ونجعلكم قردة، كما أخزينا الذين اعتدوا في السبت من أسلافكم. ثم تنتهي الآية التحذيرية ببيان قدرة الله تعالى ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا﴾ فلا يمتنع عليه سبحانه وتعالى أمراً أراده، فهو متحقق بما شاء. وفي هذا تحذير شديد لهم، وموعظة لغيرهم.

وفي هذا من الفوائد الأسلوبية: التهيئة للموعظة بالترغيب، وما يستثير الهمة والإرادة، ثم الترهيب من عدم الطاعة والامتثال للمطلوب، ومن الفوائد كذلك: ضرب المثل، والعبرة بمن سبق، والتحذير والتذكير بالأحوال، وبما هو محتمل من الوقوع إذا حصلت المخالفة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾

أفادت هذه الآية الكريمة أربعة أحكام عظيمة: نفي وإثبات وشرط ووصف. فالحكم الأول: نفي مغفرة الشرك لمن مات مشركاً، مما يفيد أن الشرك ذَنْبٌ عظيم لا يغفره الله تعالى لمن مات مشركاً به سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ والحكم الثاني: إثبات المغفرة من الله تعالى لما هو دون الشرك ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: وقد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة ففي مشيئة الله تعالى، إن شاء عفا عنه ذنبه، وإن شاء عاقبه عليه، ما لم تكن كبيرتُهُ شركاً بالله تبارك وتعالى[٢] وأما الحكم الثالث فهو: اشتراط مشيئة الله

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤٧٥/١)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢٣/٧)

تعالى في المغفرة لمن يشاء سبحانه وتعالى، ومن فوائد هذا الشرط أن فيه تربية وضبط للمسلم، إذ يجعله هذا الشرط بين الخوف والرجاء، خائفاً وطامعاً، فالخوف متعلق بأن لا يُغْفَرُ لَهُ، والطمع متعلق بمشيئة رحمة الله تعالى بأن يغر له ما سلف، مما ينعكس على المسلم في ضبط سلوكه من جهة، ودفعه للبر والتقوى من جهة أخرى، وذلك رجاء أن يمحو الله تعالى عنه ذنوبه بِإِتْبَاعِهِ السيئة الحسنة.

كما يفيد هذا أن لا يُحْكَم على من مات دون الشرك بالعذاب، فقد يغفر الله تعالى له. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: والمراد من الآية: لا يُغْفَرُ لمشرك مات على شركه، وفي قوله تعالى ﴿لِمَن يَشَآءُ ﴾ نعمة عظيمة من وجهين: أحدهما أنها تقتضي أن كل ميت على ذنب دون الشرك لا يقطع عليه بالعذاب. وإن مات مصراً. والثاني: أن تعليقه بالمشيئة فيه نفع للمسلمين، وهو أن يكونوا على خوف وطمع(١)

والحكم الرابع: متعلق بالوصف الرهيب العظيم للشرك ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ فقد اختلق اثماً عظيماً، وإنما جعله عَزَّ وجل مفترياً ﴿فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ ﴾ لأنه اخترع شيئاً في حق الله تعالى بهذا الشرك. وقال زوراً وإفكاً وكذباً، بجحود وحدانية الله تعالى، وإقراره بأن لله عَزَّ وجل شريكاً من خلقه، أو صاحبة، أو ولدا. فقائلُ ذلك مفترٍ، وكذلك كل كاذبٍ فهو مفترٍ في كذبه، مُخْتَلِقٌ له(٢)

ومن الفوائد أن مطلع الآية الكريمة ابتدأ بدلالة ﴿ إِنَّ ﴾ التي تفيد التوكيد. للمبالغة في عِظَمِ أمر الشرك، وفيه تقريع للمشركين بشركهم، وتحذير لهم مما هم فيه. ودعوة لهم بأسلوب الترهيب مما هم فيه من الشرك. وترغيب لهم ولغيرهم في لزوم توحيد الله تعالى، وكذلك انذار وتحذير وترهيب لكل أحدٍ من مغبة الشرك، وعظيم أمره. وأما باعتبار ما قبله من الآيات عن أهل الكتاب، ففي ذلك ترهيب وترغيب وحث لهم على الطاعة والبعد عن الشرك، إذ أن طغيان

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٣٦/٢)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢٣/٧)

محبتهم لأنفسهم جعلتهم يُقَدِّمُون محبتَهُم لأمرهم ومرادهم على محبة طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ
عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ
بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾
أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ
وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾

يعود الخطاب القرآني الكريم إلى بيان المزيد عن حال أهل الكتاب، بلفت انتباه النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لِمَا يسابق ويبادر به أهل الكتاب من تزكية النفس كذباً وبهتاناً، فتصدرت الآية الكريمة بقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ التي تفيد التعجب من حالهم في التزكية لأنفسهم، وكذلك التقريع والتوبيخ لفعلهم هذا، إذ أن التزكية تفيد: طهارة النفس، بحيث يستحق في الدنيا الأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الأجر والمثوبة[1] وهو أسلوب توقف وتأمل، يستثير ويستدعي الذهن للتفكر والتأمل فيما تم التعجب منه، وفي مغبته، وفي منفعته أو ضرره، ليستعيد به الإنسان صحيح الرؤية في الأمر. فيقول الله تعالى عنهم ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ﴾ عجباً من هؤلاء الذين يزكون أنفسهم من اليهود، فيبرؤنها من الذنوب، ويطهرونها[2] فهم يَدَّعُون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنه لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً أو نصرانياً، كما قال تعالى عنهم في سورة المائدة

---

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (٢١٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢٤/٧)

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ وقال تعالى في سورة البقرة ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾

وفي هذا التعجب، الذي يحمل دلالة التوبيخ ما يفيد الذم لهذه الخصلة السلوكية، التي يُزْعَمُون فيها طهارة النفس وخلوها من العيوب، وتَمَثُّلِهَا بكمال الطاعة التي توجب الجنة، بما يؤكد النهي عن تزكية النفس، والتي أكدها المولى سبحانه وتعالى بحصر التزكية له عَزَّ في علاه، بعد التقريع والتعجب ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ فلا عبرة بتزكية الإنسان لنفسه، وإنما العبرة بتزكيته سبحانه وتعالى. مما يفيد جُرْمُ تزكية النفس، وأن الله تعالى ينهى عن هذا الأمر.

قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: فقد دل الكتاب والسنة على المنع من تزكية الإنسان نفسه[١] لأن في المدح حكم بالصلاح والطهارة فيما مُدِحَت به النفس، والإنسان يعتريه القصور حتى في كل ممدوح له، سواء في ظاهر العمل أو في بواطنه، كالنيات أو ما غاب عن غيره، إضافة لما قد يعتري الممدوح من الغرور، الذي قد يجره إلى المهالك. وربما اتخذها المادح وسيلة يستأكل بها عقل الممدوح، ليحصل منه على مطلوب له. بل من دقة الشريعة الغراء أن نهت عن التسمية بالاسم الذي يحمل التزكية، ففي صحيح مسلم رحمه الله تعالى أن محمداً بن عمرو بن عطاء قال سميت ابنتي بَرَّة. فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن هذا الاسم، وسميت بَرَّة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تزكوا أنفسكم، الله أعلم بأهل البر منكم)[٢]

ولكن إذا احتاج الإنسان إلى التعريف بحقيقة نفسه، من أجل دفع شر، أو تحقيق خير، فله أن يبين ذلك بصدق، وبقدر الحاجة. وليس بقصد الظهور والارتفاع على الغير والتباهي، والرياء والسمعة. فالله يعلم علل التزكية ودواعيها. فالمؤمن يخاف على نفسه من التقصير.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦٠/٥)

(٢) مسلم، صحيح مسلم (١٦٨٧/٣-١٦٨٨) برقم (٢١٤٢)

ثم بين الله تبارك وتعالى عَدْله التام، ذو الكمال المطلق، فقال جَلَّ جلاله ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ وهذا ذروة العدل، من أنهم لن يُظلموا شيئاً، ولو كان قدر ﴿فَتِيلًا﴾ وهو الخيط الرقيق في شق نواة التمر، وهو كناية عن دقة عدل الله تعالى من عدم الظلم لهم.

وفي قوله تعالى ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ أن الأمر مرتبط بمشيئة الله تعالى، مما يستحث المؤمن إلى الالتجاء والركون إلى الله تعالى خوفاً وطمعاً، فخوفاً من عدم تزكية الله تعالى له، وطمعاً بتعلق القلب أملاً ورجاءً في تزكيه الله تعالى له، لا بأعماله التي يشوبها الكثير من القصور والتقصير. ولهذا أثرٌ في تهذيب النفس، وغرس التواضع والأمل المنضبط بالخوف، لأن الأمل المطلق يجر إلى التهور والغرور والتعدي، والخوف البحت يجر إلى القنوط. ولكن الخوف المرتبط بالرجاء هو المسلك الحقيقي، الذي يُساند عوامل الانضباط في النفس الإنسانية، ويحقق لها التوازن النفسي والسلوكي. لأن الخوف والرجاء هما جناحي التوافق والتوازن النفسي. وهذا يربي في المسلم التواضع وعدم التعالي بما يراه من خير في نفسه، كما يربي فيه التعلق بالله تعالى من خلال الرجاء في تزكية الله تعالى له، وعدم الغرور بالطاعة.

ثم يتأكد ظلم هذه التزكية وما فيها من افتراء وتعدي في قوله تعالى ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ وفي دلالة ﴿ٱنظُرْ﴾ ما يفيد الأمر بالتأمل والتفكر في شدة إمعانهم في التزكية، إلى درجة مبالغتهم التي استوفت التمادي، حتى بلغ أمر تماديهم إلى الظهور والبروز، وكأنه شيء محسوس، يمكن النظر إليه، وإلا فإن الكذب لا يُبصر بالعين، وإنما يُبْصَر أثره، مما يدل على أن كذبهم القولي قد انعكس على سلوكهم وتماديهم في الباطل حتى أصبح محسوساً بالأفعال، لأن النظر يفيد تقليب البصر وإمعان البصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، والتأمل في مساق المنظور فيه يُظهر مظاهر الكذب القولي والفعلي منهم.

وقد لَحِقَ بفعل النظر كلمة ﴿كَيْفَ﴾ والذي يفيد الاستخبار عن طريق الاستفهام التنبيهي للمخاطب، وتوبيخاً على الكذب الذي افتروه على الله تعالى من أنهم أبناء الله تعالى وأحباؤه، وأنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى. فانظر إلى كذبهم على الله تعالى، الذي

بلغوا به غاية لإثم ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا﴾ مما يفيد خطورة وعِظَم جُرْم الكذب على الله تعالى، وأن في تزكية النفس على الله تعالى تعدي على ما لا يعلم، وليس لديه به برهان.

ومن الفوائد الأسلوبية في قوله تعالى ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ﴾ أنها تلفت الانتباه إلى تقليب البصر والتأمل، وتقليب الفكر في الشيء، لتكتشف ما فيه من الباطل أو الْحُسْن، وأن نظر البصر والبصيرة نعمة عظيمة ليتفقه به الإنسان في المنافع والمصالح والخطأ والصواب، وأنه وسيلة من وسائل المعرفة لاكتشاف الصواب والخطأ. كما أن لفظة ﴿كَيۡفَ﴾ أعطت المزيد في عن حال الأمر ودلالته بالتمادي أو التقصير. وأن لفظة ﴿ٱنظُرۡ﴾ متعلقة بالْمُخَاطَب، بأن يتأمل ويقلب الفكر، وأن دلالة ﴿كَيۡفَ﴾ متعلقة بالْمُتَأَمَّل فيه، الذي هو افتراء الكذب، لِيُمْعِن النظر في التطاول والتمادي، ودواعي الغرور، حتى يخرج الْمُخَاطَب بالنتيجة المقنعة بفساد سلوكهم الذي جعلهم يَدَّعُون التزكية الكاذبة. مما يفيد أنه قد تَكَوَّنَ مقصدٌ عظيمٌ وبيانٌ بلاغي عميق، وذلك من تعاقب لفظ ﴿كَيۡفَ﴾ بعد لفظ ﴿ٱنظُرۡ﴾ بما يدل على عظيم السياق البياني، ودقة مكوناته اللفظية، وهذا من عظيم كلام الله تعالى.

وهذا السياق اللغوي للآية الكريمة يبين الدقة اللفظية، ومحاسن تراكيبها الأسلوبية التي تحمل المعاني الدقيقة، والمقاصد البيانية التي بلغت غاية في البلاغة اللغوية المحققة للمعاني بكل ما يُحيط بها من الفوائد ومن المراد المتعدد. وأن كل لفظة ذات مقام ومقصد في تقديمها أو تأخيرها، أو في وجودها دون غيرها، أو بما يتبعها أو يتقدمها من توجيه. مما يفيد هذا في المنهجية العلمية وكذلك العملية التطبيقية التي يتوسع بها الذهن في البناء الكلامي والخطابي، أو أن يقتبس منها ما تحمله من الفوائد التي استوعبتها المساحة العميقة لدلالة النص وألفاظه ومعانيه. وأما من الناحية التربوية فإن نصوص القرآن الكريم تحمل مقاصد علاجية للواقع، وإنمائية لتنمية الخير والصلاح في النفس البشرية، ووقائية من أن يسلك المؤمن مسالك الشر وعواقبه الوخيمة.

وقد وجه تبارك وتعالى إلى النظر في طرائق افتراء الكذب ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا﴾ إذ أن في كلمة ﴿يَفۡتَرُونَ﴾ ما يدل على أنهم يختلقون ويبتكرون

الكذب، ويُنشئونه إنشاء، ليس له وجود مسبق، أو قرينة يتأولون بها أو منها. وهذا يبين جرأتهم المتناهية على الله تعالى. مما يفيد أنه إذا كان هذا الافتراء هو على الله تعالى مع علمهم بعقابه، فإنه من باب أولى أن يفتروا على من هو دونه، وأن يفتروا ويكتموا ما عندهم من الحق في التوراة عن صفة النبي صلى الله عليه وسلم.

ثم يبين تبارك وتعالى عظيم هذا الافتراء ببيان أنه يكفيهم إثماً واضحاً ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ﴾ فكفى بافترائهم هذا إثماً من بين سائر آثامهم. فقد بلغ هذا الإثم منتهاه وغايته، حتى كفاهم استيعاباً لكامل العذاب. وقد بلغ من قوته أنه مبين واضح، لا شك ولا غموض فيه.

ثم يبين تبارك وتعالى المزيد من خُبث بعض أهل الكتاب، ومكرهم، وصدهم لغيرهم عن الإسلام ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾ فقد بدأت الآية الكريمة بتكرار ﴿ أَلَمۡ تَرَ ﴾ التي تفيد لفت انتباه النبي صلى الله ليه وسلم، وكذلك المؤمنين إلى طرائق اليهود في الصد عن دين الله تعالى، وهي تشير إلى التفكر والتبصر بالبصر والبصيرة إلى هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ فنوه تبارك وتعالى عن نعمته عليهم بأن أُعطُوا حظاً من لكتاب، وهو التوراة، الذي يحمل شريعة الله تعالى، ومع ذلك يُضَادُّون ويَعْصُون اللهَ تعالى من وجهين عظيمين: فالأول: أنهم يؤمنون بكل ما يُعبد من دون الله تعالى ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ والثاني: أنهم يزكون شرك المشركين ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾ يقولون للمشركين أنتم أهدى ديناً وطريقاً من أولئك الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به عليه الصلاة والسلام.

وهذا البيان القرآني الكريم يبين أهمية تكرار أسلوب ما يلفت به الانتباه للتعليم والتأمل والتفكر، بما يمكن رؤيته بالبصر، وما يمكن إدراكه بالبصيرة من مسلك الأفعال. وكذلك أهمية التوصل للنتيجة من خلال المقارنة بين ما يجب، وما يُعمل به من الأضداد، فبالرغم من نعمة علم الكتاب الرباني الذي ينتفي به الجهل، إلا أنهم يعملون بخلافه، وبما يضاده. وقد بينت دلالة

﴿نَصِيبًا﴾ القدر العظيم من الامتنان الذي امتن الله تعالى به عليهم، إذ أن كلمة ﴿نَصِيبًا﴾ تعني الحظ. فقد نالهم بهذا الكتاب حظاً من الله تعالى. ومع خصوصية هذه النعمة العظيمة إلا أن أفعالهم تُضاد وتُخالف نعمة الكتاب الذي أُنْزِل عليهم، فَيُصَدِّقُون بما يُعبد من دون الله تعالى ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ وهما كل معبُود من دون الله تعالى، أو مُطاع في معصية الله تعالى، ومعنى الجبت: الأصنام، والطاغوت الشيطان[1] وهذا يبين أن الهوى وما يتبعه من الغرور والحسد وحُب التعالي أن له أكبر الأثر في رفض الحق، واتباع ما هو ضده، بل والعمل على هدم الحق وصد الناس عنه، مما يلزم المسلم الحذر من مغبة الهوى وأخطاره وحبائله. حتى وصل بهم الأمر أن يقولوا لعبدة الأوثان من مشركي قريش ما أخبر به عَزَّ وجل، فقال الله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ مما يفيد الحذر من غلبة الهوى، وأهمية مغالبته والانتصار عليه بالحق، وسؤال الله تعالى الثبات. كما أن في هذا موعظة تحذيرية من مسلك أهل الكتاب.

ثم بين الله تبارك وتعالى الجزاء الذي يستحقونه على ما فعلوا ويفعلون ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ هؤلاء هم الذين طردهم الله تعالى من رحمته، ومن يطرده الله تعالى من رحمته فقد انتفى عنه النصر والولاية والحماية، وهذا غاية الخذلان. كما أن فيه اثبات أن من لم ينصره الله تبارك وتعالى فلن ينتصر، وأن من تخلى اللهُ عنه فإنه مهزوم مخذول، وأن الناصر والمعين الحقيقي هو الله تعالى، وأن من ينصره الله تعالى فلا خاذل له، وأن من كان الله تعالى معه فهو القوي بنصرة الله تعالى له.

ثم يكشف الله تعالى مقدار حسدهم وطمعهم في حال أن لهم شيئاً من الملك ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ فبدأت الآية الكريمة بأسلوب الاستفهام الإنكاري،

---

(١) انظر في معنى الجبت والطاغوت، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦١/٥) الزمخشري، الكشاف (٥٣٤/١) وغيرها من كتب التفسير.

الذي يتضمن نفي الملك، وفيما لو كان لهم من الملك شيء لما أعطوا أحداً منه شيئاً، ولو يسيراً، وهو النقير ﴿نَقِيرًا﴾ وهي النكتة في ظهر النواة. وهي كناية عن الشيء اليسير والحقير جداً، الذي لا يؤبه به، ليستبين بهذا شدة بخلهم وطمعهم من إعطاء الشيء الحقير واليسير في حال وجود الملك الذي يمكنهم من إعطاء العظيم من العطايا، لو كان لهم من الملك شيء.

وقد صور القرآن بخلهم في أبشع صور البخل، فلو كانوا يملكون ملكاً عظيماً فلن يُعْطُوا غيرهم من الناس شيئاً، ولو كان مقداراً يسيراً، لا يتأثر به ما يملكون. وبهذه الجزالة في الأسلوب ما يبين عمق ودقة البيان القرآني للحقائق، بأقل الألفاظ وأجزل السياق، مع دقة الوصف والبيان. وهذه من الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم.

ثم يبين ويكشف تبارك وتعالى حسدهم لغيرهم ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ فبدأت الآية الكريمة بالاستفهام الذي يفيد تقرير حسدهم، فجمعوا شر الشرين: الحسد والبخل، كما أن هذا الاستفهام يفيد أيضاً الاستغراب من شدة علة الحسد في امتناعهم وتمنعهم عن أخذ الحق ولزومه من غيرهم. مما يفيد التقريع والانكار عليهم من صنيعهم هذا. وذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: أن الله جَلَّ ثناؤه عاتب اليهود الذين وصف صفتهم في هذه لآيات، فقال لهم موبخاً في قيلهم للمشركين من عبدة الأوثان: أنتم أهدى من محمد وأصحابه سبيلاً، على علم منهم بأنهم في قيلهم ما قالوا من ذلك كَذَبَةٌ: أيحسدون محمداً وأصحابه على ما آتاهم الله من فضله.(١)

وفيه كذلك تقرير الفضل، بأنه من الله تعالى، وأنهم يحسدون الناس على فضل لم يكن لهم عون ويد فيه ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ فالذي يؤتي الفضل هو الله تعالى، مما يُوجب الاستنكار على حسد الحاسد، إذ كيف تحسد أحداً، منحهُ اللهُ تعالى شيئاً من فضله، وليس لأحد مِنَّة ولا فضلاً في ذلك الفضل، فموجب التمنع والبغض منتفي على الأصل والحقيقة، طالما أن الفضل هو من عند الله تعالى، غير أن الجهل وعدم التأمل والتفكر يُشعل في

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٥٥/٧)

النفوس المريضة فتيل الحسد، مما ينبه على أن التفكر في حقيقة أمر الفضل وسيلة من وسائل علاج الحسد.

والمقصود بالفضل في هذه الآية الكريمة كما قال ابن جرير رحمه الله تعالى: أن معنى الفضل في هذا الموضع: النبوة التي فضل الله بها محمداً صلى الله عليه وسلم وشَرَّفَ بها العرب، إذ آتاها رجلاً منهم دون غيرهم[١]وهذا يبين أن من فوائد نسبة الفضل لله تعالى تربية النفس على عدم حسد غيرها بما تفضل الله تعالى به، أو التكبر بما أنعم الله تعالى به عليها.

كما أن في معرفة أن أصل عطاء الفضل من الله تعالى ما يربي فيمن لديه فضل أن يتواضع لغيره، وهذا الذي كان منه صلى الله عليه وسلم، إذ لم يكن يوماً متكبراً أو مختالاً بشيء من فضل الله تعالى عليه، ولم يصفه أعداؤه بما هو ضد التواضع. بل كان خلقه القرآن كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لمن سألها عن خُلُقِه عليه الصلاة والسلام، فقالت رضي الله عنها (ألست تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قالت: فإن خُلُق نبي الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن) [٢]

ثم يبين الله تعالى ما خص آل إبراهيم عليهم الصلاة والسلام من الفضل ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ فقد أعطينا ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام الكتاب والحكمة، وملكا واسعاً. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ﴾ إلزام لهم بما عرفوا من إيتاء الله الكتاب والحكمة ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ الذين هم أسلاف محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه ليس ببدع أن يؤتيه اللهُ مِثل ما آتى أسلافه[٣] فهل الحامل لهم على هذا التصرف أنهم شركاء الله ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾ فيفضلون من شاءوا؟ أم الحامل لهم على ذلك الحسد للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، على ما آتاهم الله من فضله؟ وذلك ليس ببدع ولا غريب على فضل الله تعالى، إذ أنعم الله تعالى على إبراهيم وذريته من النبوة والكتاب والملك الذي أعطاه من

(١) المرجع السابق (٧/١٥٧)

(٢) مسلم، صحيح مسلم، برقم (٧٤٦)

(٣) الزمخشري، الكشاف (١/٥٣٤)

أعطاه من أنبيائه، مثل: داود وسليمان، فإنعامه لم يزل مستمر على عباده المؤمنين. فكيف ينكرون إنعامه بالنبوة والنصر والملك لمحمد صلى الله عليه وسلم، الذي هو أفضل الخلق وأجلهم، وأعظمهم معرفة بالله، وأخشاهم له[١]

وهذا يفيد أهمية التذكير والإرجاع لِمَا يعرف الْمُخَاطب من أمور أَقَرَّ بها وأدركها، ليعرف خطأ ممانعته، وإقامة الحجة عليه، وحصره في الاعتراف، أو في الإنكار المتعمد. ولذلك حصل منهم من آمن، وحصل من كابر عناداً ولم يؤمن، كما قال تعالى في هذه الآية ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ وهذا الانقسام فيمن آمن، وفيمن صد عن الإيمان، يشمل ويستوعب مما هو حاصل سواء ما كان متعلقاً بمن آمن منهم بالنبي صلى الله عليه وسلم، ومن صد عنه، وأيضاً بمن آمن وبمن صد عن إبراهيم وآل إبراهيم عليهم الصلاة والسلام. فالمعول عليه هو الانقسام، بلزوم الطاعة، أو بالمكابرة والعناد حسداً من عند أنفسهم.

ثم ختم الله تبارك وتعالى الآية الكريمة بما يستحقونه من العذاب ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ فحسبكم أيها المكذبون برسولي محمد صلى الله عليه وسلم وبما أنزلت عليه نار جهنم تُسَعَرُ وتوقد عليكم.

ومن فوائد دلالات القرآن الكريم أن بعض نصوصه تعطي أوجه متعددة من الدلالات التي تتوافق ولا تتعارض، وإنما تُثْري الموضوع بالفوائد التي استوعبها النص في ألفاظه أو ضمائره، أو في سياق تراكيب كلماته، وهذه من عظيم البلاغة القرآنية، ومن عظيم العطاء الذي يشحذ أذهان العلماء بالفكر والتفكر والأفكار والأدلة، وترويض عقولهم على الاستنباط والقياس وغيرها من أدوات وفروع ومهارات العلم. ومن ذلك: دلالة لفظة ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أنها النبوة، وقيل الفقه في الدين، ولفظة ﴿مُّلْكًا﴾ ملك سليمان، ملك داود، وسليمان، وأنها النبوة، وأنها التأييد بالملائكة،

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣٥٩/١-٣٦٠)

وقيل الجمع بين سياسة الدنيا، وشرع الدين[١] وجميع تلك المعاني لا تضارب بينها، بل جميعها تتعاضد، وكلها من عطاء الله تعالى. وهذه من غزارة الدلالات والمعاني في القرآن الكريم.

ومن الأمثلة كذلك قوله تعالى ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ﴾ وهم اليهود الذين أنذرهم النبي صلى الله عليه وسلم، فمنهم من آمن، ومنهم من صد عنه فكفر. وقيل من آمن بإبراهيم ومن كفر به عليه الصلاة والسلام.[٢] ولا تعارض بين الدلالتين، فليس هناك ما يمنع من أن ذلك ينطبق على من كان في عهد إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم، وكذلك اليهود في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه آمن به بعض اليهود، وكفر به بعضهم. وهذا من استيفاء النص لما حدث لإبراهيم وللنبي محمد عليهم الصلاة والسلام. فسبحان من استوفى كلامه مراده عَزَّ وجل. وأعجز غيره ببيانه وحُسْنِ ألفاظه.

ثم يبين الله تبارك وتعالى نوع العقاب الشديد الذي أعده لمن كفر بآياته ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ فهذا تهديد ووعيد وتحذير للكافرين من مغبة كفرهم، والمآل الذي سيؤول بهم إليه من العذاب الشديد، فمن يكفر بالآيات التي أنزلت على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فسوف يكون عقابهم هو أن تشويهم النار ﴿ نُصْلِيهِمْ نَارًا ﴾ وكلما انشوت وتهالكت، اسْتُبْدِلَت بجلود أخرى، غير التي تهالكت بالشوي ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ﴾ فتجديد الجلود في النار هو من أجل أن يستمر ويدوم عليهم ألم ذوق العذاب الذي لا ينقطع عنهم أبداً.

وهذا تعليل يفيد ديمومة العذاب وشدته التي تنشوي به الجلود وتتآكل. وهذا غاية التحذير والترهيب الذي يشد الانتباه، ويدعو للتأمل والتفكر، ومراجعة النفس، للوقاية من هذا

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٤١/٢)

(٢) ذكرت ذلك كُتُب التفسير. من غير تخصيص كتاب عن غيره.

الوعيد العظيم. وهذا من شديد أنواع الإنذار. لتنتهي الآية الكريمة بصفتين عظيمتين لله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فإن لله تعالى صفة العزة التي تفيد أنه لا يمتنع عليه شيء يريده، وفي تعاضدها مع الوعيد ما يفيد غاية التحذير مما وُعِدُوا به. فإن ربكم لا يعجزه شيء أراده، وذلك لعزته وعظيم سلطانه، وكذلك من صفاته جَلَّ جلاله أنه حكيم، فيضع الشيء موضعه، فلا يعذب إلا بعدل، ولمن يستحق. وفي هذا ما يطمئن المؤمنين من أن الله تعالى حكيم في أمره وتدبيره. فلن يؤاخذ أحداً بغير ما اكتسب.

ومن دقائق السياق أن استطلع البيان وابتدأ بحرف التوكيد ﴿إِنَّ﴾ الذي يؤكد ما بعده من بيان، ثم بحرف ﴿كَانَ﴾ بعد لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ الذي أفاد: أن الله تعالى عزيز حكيم منذ الأزل، فهما صفتان عظيمتان جليلتان لله عَزَّ في علاه. ومن فوائد دلالة ﴿كَانَ﴾ أنها تعطي اتصال الزمن من غير انقطاع بعلمه وحكمته تبارك وتعالى، لتعطي معنى الإخبار عن الصفة الدائمة المستمرة التي لا تنقطع، سابقاً ولاحقاً. ومعنى ﴿عَزِيزًا﴾ أي: الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة. ومعنى ﴿حَكِيمًا﴾ أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، مع كمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. كما أن الحكيم يعطي دلالة الإحكام والإتقان في التصرف والتقدير. مما يعلم المؤمن كيف يتأدب مع ربه في الطاعة والامتثال، وفي الخطاب والسؤال والدعاء، فيمجد ربه عَزَّ وجل بما هو له من الأسماء الحسنى والصفات العليا.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾

بعد أن ذكر تبارك وتعالى مآل الكافرين، وما أعده سبحانه تعالى لهم من العذاب، انتقل السياق القرآني الكريم إلى حال أهل السعادة، فتكون المقارنة أظهر، وأكثر أثراً على المؤمنين وعلى الكافرين، ليجتمع الترهيب والترغيب، الذي يستثير الذهن والفكر نحو تأمل المالات.

فقد بدأت الآية الكريمة ببيان صفة حال أهل السعادة في الدنيا، ثم بينت مآل حالهم وأجرهم وثوابهم في الآخرة، ليرى المؤمن العدل بين العمل والمثوبة. ففي الدنيا يؤمنون بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم وما أمر الله تعالى به من الإيمان، وكذلك يعملون الصالحات. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ ومن غزارة فوائد القرآن الكريم أن جمع في هؤلاء صفتين عظيمتين وذلك في دلالتين متتابعتين، صفة قلبية وصفة عملية. وكل صفة تجمع أفراداً كثيرة من الاعتقادات القلبية، والأعمال العملية، فكلمة الإيمان ﴿ءَامَنُواْ ﴾ جمعت واستوعبت جميع ما يلزم من لوازمها من الاعتقاد القلبي، كالإيمان بالله تعالى وبرسله، وكتبه، وبالبعث والجنة والنار، وعذاب القبر ونعيمه. وأما جملة ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فقد استوعبت جميع الأعمال من العبادات الواجبة والمندوبة، كما أنها موصوفة بالصالحات، لينتفي فيها ومنها وبها جميع الصفات غير الصالحة، مما يفيد أن أعمال هذا الدين كلها صلاح، وليس فيها من الفساد في شيء، حتى فيما يتعلق في تعامل المؤمن مع مخلوقات الله تعالى من الإنس والحيوان والنبات والهوام وغيرها من مخلوقات الله تعالى فإنها مبنية على الصلاح.

فالذين آمنوا وعملوا الصالحات وهو ما جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم، سيدخلون الجنة ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا ﴾ وقد وُصِف الله تعالى الجزاء بأعظم وصف، ليستثير ويُشغل ذهن المؤمنين بالخير والأعمال الصالحة، فأحدهما مُتعلق بصفة الجنة، والآخر متعلق بذواتهم. فالمتعلق بصفة الجنة قد تناول شكل الجنة، وزمن الحياة فيها، فقطع الله الأمر بأنها جنات متعددة، وتجري الأنهار في جميع نواحيها ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ وهذا لوصف يفيد كثرة الجنان، وكثرة أنهارها، وبالتالي كثرة أشجارها، وتنوع أشكالها وأحجامها، وأما فيما يتعلق بزمن الحياة، وهو المتعلق بذواتهم، فقطع تبارك وتعالى أمر هذا الزمن بأنه

خلود أبدي ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ لا يحولون ولا يزولون، حياة أبدية خالدة، وقد أكد ذلك تبارك وتعالى بإثبات الأبدية، والخلود الدائم الذي لا ينتهي.

ثم بين تبارك وتعالى بعد هذا الوصف نوعين من الاستمتاع، نوع متعلق بجنس الآدمي، ونوع متعلق بالجنة التي هي مكان حياة المؤمنين ﴿ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴾ فالأول: ﴿ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ ﴾ فأثبت تبارك وتعالى متعت الأزواج بالزوجات، وأن من صفاتهن أنهن طاهرات من النقص والعلل ﴿ مُّطَهَّرَةٞ ﴾ أي من الحيض والنفاس والأذى والأخلاق الرذيلة، والصفات الناقصة. كما قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: مطهرة من الأقذار والأذى. وقال مجاهد: مطهرة من البول والحيض والنخامة والبزاق والمني والولد[١] والصنف الثاني من الاستمتاع هو: استمتاع الحياة ﴿ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴾ أي كثيفاً لا شمس فيه، ووُصِف بأنه ﴿ ظَلِيلًا ﴾ لأنه لا يدخله ما يدخل ظل الدنيا من الحر والسموم ونحو ذلك.[٢] وكذلك ظلاً عميقاً، كثيراً، غزيراً، طيباً، أنيقاً[٣] اللهم اجعلني والمسلمين من عبادك الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ورزقتهم بمنك وفضلك جناتك يا رب العالمين.

ثم يأمر الله تبارك وتعالى بأمر في غاية الأهمية، وهو من عظائم الأحكام ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ ذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أن هذه الآية من أمهات الأحكام، تضمنت جميع الدين والشرع[٤] وهذا الفهم يدل على أن من خصائص القرآن الكريم البلاغية، أن سعة ألفاظه تحتوي على الكثير والعظيم من الفوائد والدلالات التي استوعبتها آيات القرآن الكريم، فكان

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٢٧/١)
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦٥/٥)
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٢٧/١)
(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦٥/٥)

معجزة بلاغية عظيمة. وقد بدأت الآية الكريمة ببيان أمر الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ ﴾ وهو أمر وجوب، يتأكد به عظيم ما أمر به العباد، بأن يؤدوا جميع ما اؤتُمنوا عليه إلى ذويه وأصحابه، فإن كل ما اؤتمن عليه الإنسان فهو أمانة.

كما يأمركم بالعدل في القضاء بين الناس ﴿ وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾ والبعد عن الجور والحيف. وقد جاء خطاب الأمر عاماً، فتضمن بذلك جميع دلالات التفسير، التي استنبطها العلماء، وكذلك سبب النزول، وهذا من عظيم عطاء الله تعالى، وسعة علمه وأحكامه وتعليمه لعباده، وبلاغة كلامه تبارك وتعالى، فقد ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى اختلاف أهل التأويل فيمن عُني بهذه الآية: فقال بعضهم: ولاة أمور المسلمين[1] فيفيد هذا أنه حقٌّ على الإمام أن يحكم بما أنزل الله، وأن يؤدي الأمانة، وإذا فعل ذلك فحق على الناس أن يسمعوا وأن يطيعوا، وأن يجيبوا إذا دُعوا.[2] وقال آخرون أنها متعلقة بسبب النزول، فالمخاطب بها النبي صلى الله عليه وسلم في أمر مفاتيح الكعبة، بردها على عثمان بن طلحة رضي الله عنه.[3] وذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: بأنه جائز أن تكون نزلت فيه، وأُريد به كل مؤتمن على أمانة، فدخل فيه ولاة أمور المسلمين، وكل مؤتمن على أمانة في دين أو دنيا.[4] وهذا يفيد استيعاب النص القرآني في بسط سلطان دلالته على القواعد الجامعة التي ينتفع بها المسلم في جميع شؤونه، أكان سلطاناً أو كان من الرعية، أو بائعاً، أو كافلاً ليتيم، أو لأي نوع من الكفالة، أو مستعيراً، أو مستديناً، أو في غير ذلك مما يُوجِب أداء الأمانة.

وذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى أنه أجمع على أن الأمانة مردودة إلى أربابها، الأبرار منهم والفجار. وأن الآية شاملة بنظمها لكل أمانة، وهي أعدادٌ كثيرة، وكذلك ذكر في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾ أن هذا خطاب للولاة والأمراء والحكام، ويدخل

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦٨/٧)

(٢) نقل هذا ابن جرير رحمه الله عن علي رضي الله عنه (١٦٩/٧)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧٠/٧)

(٤) المرجع السابق (١٧٢/٧)

في ذلك بالمعنى جميع الخلق... وكذلك العلماء، لأنه إذا أفتى حكم وقضى، وفصل بين الحلال والحرام، والفرض والندب، والصحة والفساد، فجميع ذلك أمانة، تُؤدَّى وحُكْمٌ يُقضى[١] فأفاد هذا استيعاب العلماء لدلالات القرآن الكريم، وامتداد سلطان النص لمقاصد الشريعة، ولدلالة اللفظ والمعنى.

ثم يلي ذلك ثناء الله تبارك وتعالى على ما أَمَرَ وبَيَّنَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ فنعمة الموعظة يعظكم الله تعالى بها، ونعم الشيء يعظكم الله تعالى به. مما يفيد ويؤكد أن ما وعظ الله تعالى به فهو محل المدح والثناء، مما يجب على المسلم الثناء على ما جاء من عند الله تعالى، وأن يتمسك به، ولا يحيد عنه، فليس هناك خير منه البتة. وأن يحمد ويشكر الله تعالى على نعمة شرع الله وبيانه.

ومن الدلالات البيانية أن أفاد حرف ﴿إِنَّ﴾ التأكيد على نعمة موعظة الله تعالى، وذلك للمبالغة الدافعة والْمُرَغِبَةُ في الأخذ بها والتمسك بهدي شرعه عَزَّ وجل، وعدم الحيلولة عن ذلك. ثم تُختم الآية الكريمة ببيان بعض صفات الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ فإن ربكم يسمعكم ويراكم، فيسمع قولكم ويرى أعمالكم. ومن عظيم فوائد الصياغة، أن لفظ السميع والبصير جاءت عامة، لتشمل المخاطب وغيره من مخلوقات الله تعالى، وقد سبقتها ﴿كَانَ﴾ التي تفيد أزلية الصفة وأبديتها وثبوتها، أي من قبل أن تكونوا، ومن قبل أن يكون غيركم من خلقه، فسبحان من له صفات الكمال المطلق. فهو الأول بصفاته وأسمائه، ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء. فسبحانه قيوم السماوات والأرض.

وبعد أن وَجَّه سبحانه وتعالى بأداء الأمانة والحكم بين الناس بالعدل، جاء التوجيه بالطاعة، فقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ فبدأت الآية الكريمة بياء النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ والذي يحمل في دلالته لفة الانتباه، وإرعاء السمع، وأخذ الأمر

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥/١٦٦-١٦٧)

بما تضمن من توجيه، وكذلك تضمن هذا النداء تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان، التي يلزم منها الامتثال والطاعة، وكذلك تحمل في دلالتها، التكريم للمُخَاطَبين، بأن ناداهم ربهم بصفة الإيمان، وهي رتبة عظيمة، ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده المؤمنين بها، والتي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر عن عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له.

وقد تكرر الأمر بالطاعة، فالأول: أمر بطاعة الله تعالى ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ ثم تكرر الأمر ثانياً: بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ وهذا من التكريم للرسول صلى الله عليه وسلم، وبيان مقامه ووجوب طاعته، لأن طاعته من طاعة الله تعالى، فهو المبلغ عن الله تعالى، وكذلك لبيان خصوصيته ومقامه عن مقام أولي الأمر الذين بين طاعتهم بالعطف على ما قبلها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ وهذا من دقة ألفاظ القرآن الكريم، وسياقه البلاغي، وعظيم مقاصده، ودقة بيانه، وجلالة توجيهه، وجمال بلاغته المتناهية.

قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: لما تقدم إلى الولاة في الآية المتقدمة، وبدأ بهم، فأمرهم بأداء الأمانات، وأن يحكموا بين الناس بالعدل، تقدم في هذه الآية إلى الرعية فأمر بطاعته عَزَّ وجل أولاً. وهي امتثال أوامره واجتناب نواهيه. ثم بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ثانياً، فيما أمر به ونهى عنه. ثم بطاعة الأمراء ثالثاً[١] ثم إنه قد يحصل خلاف بين الراعي والرعية، فجعل الله تعالى الحكم في ذلك إلى شريعته عَزَّ وجل، المتمثلة في كتابه وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ ومن فوائد ذلك: التنظيم المحكم للعلاقة بين الراعي والرعية، إذ أن احتمال الخلاف وارد في كل زمان ومكان، فحررت الشريعة الغرَّاء منهجية المعالجة فيما آمنتم به وعملتم به أيها المؤمنون، وهما الكتاب والسنة. وهذا يفيد أهمية الاحتراز أثناء التنظيم، وأثناء وضع وتحرير القواعد والضوابط اللازمة، فهي منهجية تنظيمية وتخطيطية استباقية في تحقيق التصالح والترابط، وتحقيق الأمن.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦٧/٥)

كما أن الله تعالى لم يجرد العباد من احتمال وجود الخلاف، لكنه ضبطه تبارك وتعالى بما يمنع شره ونتائجه الوخيمة، وحاصره بالرجوع للكتاب والسنة ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ وفي دلالة ﴿فَرُدُّوهُ﴾ ما يفيد إعادة الخلاف بين الحاكم والرعية إلى حكم الكتاب والسنة، مما يفيد أنهما متضمنان لحلول الخلاف، وأنهما مستوعبان لحل كل خلاف، كما أنه لم يتكرر لفظ ﴿فَرُدُّوهُ﴾ كما تكرر لفظ الطاعة ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ ليفيد حصر المرجعية في إصلاح الخلاف، وأنه لا يوجد من هو دون الرسول صلى الله عليه وسلم من المخاطبين يُرجع إليه ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ فإن التحاكم مقصور على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

كما يفيد أن العلاقة بين الحاكم والمحكومين هي علاقة دينية، فضلاً عن كونها مصلحة دنيوية، فإن الالتزام بها من لوازم الدين، حتى أن الله عَزَّ وجل ربط ذلك بالإيمان بالله واليوم الآخر ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ وفي ربطها بالإيمان به سبحانه وتعالى وباليوم الآخر ما يفيد الترغيب والتحذير، فالترغيب في التذكير بالمآل، وفناء الدنيا، وأن لا تجعلوا لها حظاً في خلافكم، كما أن في الإيمان باليوم الآخر تحذير لهم منه في يوم التغابن، وكذلك ترغيب في إيثار مقامه سبحانه وتعالى على الدنيا، وتذكير لهم بأهمية تقديم الدار الآخرة على الدنيا فيما تنازعتم فيه. ففي ذلك موعظة عظيمة جليلة.

بل إن الله تبارك وتعالى بَيَّنَ ورجح لهم الخيار الأفضل والأحسن ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ فإن رجوعكم فيما اختلفتم فيه إلى الكتاب والسنة هو الخير والأفضل، مما يفيد أن خير ما يَحْتَكِمُ إليه المؤمنون هو الكتاب والسنة، بل ﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ أفضل مرجعاً وعاقبة ومآلاً من كل تأويل. فاجتمع الخير والْحُسنُ فيما يرجعون إليه من الكتاب والسنة ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ بل إن لفظ ﴿وَأَحۡسَنُ﴾ يفيد المبالغة في الْحُسْنُ. وهذه من جماليات البلاغة القرآنية، ودقتها في تناسب للفظ مع المقصد والتوجيه، والتحفيز والترغيب. وهذا يفيد كثيراً في مجال التعليم

البياني والبلاغي لمن تدبره، وكذلك فيه تعليم منهجية التوجيه، والتشجيع والتحفيز لاختيار الأفضل بين الخيارات الممكنة. فالقرآن مدرسة شاملة في أبواب الحياة المختلفة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى بيان حال من يَدَّعي الإيمان، ويريد أن يتحاكم إلى غير شريعة الله تعالى. فتصدرت الآية الكريمة بقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ التي تفيد الإنكار لحالهم، والتعجب من تناقض أمرهم. وهو أسلوب توقف وتأمل، يستثير ويستدعي الذهن للتفكر والتأمل فيما تم التعجب منه، وفي مغبته، وضرره، ليستعيد به الإنسان فداحة أمر هؤلاء. كما أن جملة ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ تأتي بمعنى ألم ينته إلى علمك خبر أولئك. وهو سؤال تقريري، لخبر من الله تبارك وتعالى، يُقرر فيه واقع حقيقة فكرهم وسلوكهم وإرادتهم ونواياهم الخبيثة. وجملة ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ بمعنى ألم تعلم بخبر أولئك، وهو إخبار وبيان يقع منه عَزَّ وجل موقع الصدق، الذي لا مجال فيه لأدنى شك.

وقد جاء النص القرآني الكريم بأسلوب لفت وشد الانتباه، وذلك بصيغة السؤال التقريري عَمَّا يحدث من هؤلاء. وهو في حقهم تعجب من أمرهم، وتوبيخ لحالهم المنافي لما يجب وما يُوجِبُهُ

الإيمان. وهذا يفيد عُمق الأساليب القرآنية في البيان، وشد الانتباه، وإثارة التأمل والتفكر. فيقول الله تعالى عنهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ عجباً من هؤلاء الذين يَدَّعُون الإيمان بما أُنزل إليك أيها الرسول من القرآن الكريم والسنة النبوية، وما أُنزل على من قبلك من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، ومع ذلك يريدون التحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وهو التحاكم إلى الطواغيت، مما يفيد أن كل تحاكم يستعاض به عن الكتاب والسنة فهو من الطواغيت.

ثم يبين تبارك وتعالى حال تناقضهم بين ما أُمروا به، وبين ما يريدون ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ يؤمرون بشيء، ويذهبون إلى نقيضه فيطلبونه. وفي هذا الأسلوب ما يُثير ذهن المسلم إلى أهمية الوعي بما أمر الله تعالى به، وألا يُناقضونه بما يتنافى معه. وكذلك فيه بيان لخطأ المخطئ، فلعلهم يرجعون عَمَّا صنعوا، وفيه إثارة فكرهم، وفكر غيرهم للتناقض الذي لا تصح به الطاعة.

قال السعدي رحمه الله تعالى: فكيف يجتمع هذا والإيمان؟ فإن الإيمان يقتضي الانقياد لشرع الله وتحكيمه، في كل أمر من الأمور، فمن زعم أنه مؤمن واختار حكم الطاغوت على حكم الله تعالى، فهو كاذب في ذلك، وهذا من إضلال الشيطان إياهم[1] ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ وهذا يفيد أن للشيطان إرادة، والإنسان إما يطيعه أو يعصيه، وأن مراد الشيطان بالإنسان هو إضلاله، وإبعاده بُعداً ليس له حدود ﴿بَعِيدًا﴾ وهو ضد القرب، وهو بعداً يتحقق به الهلاك. وفي هذا بيان وتحذير وموعظة.

ثم يقول تبارك وتعالى في وصف وبيان تمادي هؤلاء ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ فإذا قيل لهم تعالوا

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٣٦٣)

وأقبلوا للتحاكم إلى الكتاب والسنة التي أنزلها الله تبارك وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم، رأيت المنافقين يمتنعون تَمَنُّعاً ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ فهيئة إدبارهم ممتلئة بالعزوف عن الكتاب والسنة. ودلالة ﴿صُدُودًا ﴾ تفيد التوكيد، وقوة التمنع، وهي مفعول مطلق.

ومن الفوائد: أن قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ ﴾ هو نداء بالإقبال والقبول بما أنزل الله تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم. واشتمل ذلك على بيان الحاكم والمحكوم به، وكلاهما من الله تعالى، فالمحكوم به هو ما أنزل الله تعالى من القرآن والسنة، وهو ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ والحاكم سيكون هو رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ ﴾ وسيحكم بما أنزل الله تعالى، وليس بغير ذلك، فيكون الحكم لله تعالى. وفي هذا تزكية من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم، من أنه يعمل بما أمره الله تعالى ولا يحيد عنه.

ثم ينتقل السياق إلى بيان حال الاضطرار الذي يمكن أن يلحق بهم، فيأتوا إليك أيها النبي مُذْعِنِين، عليه الصلاة والسلام ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ فكيف إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائب تدفعهم وتَطْرُقُهُم بسبب ذنوبهم، واحتاجوا إليك في ذلك ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى، أي: يعتذرون إليك، ويحلفون ما أردنا بذهابنا إلى غيرك لنتحاكم إلا الإحسان والتوفيق، أي المداراة والمصانعة، لا اعتقاداً منا صحة تلك الحكومة[1]

فبدأت الآية الكريمة بدلالة ﴿ فَكَيْفَ ﴾ التي أفادت الاستفهام من أجل التهويل، أي فكيف يكون حالهم؟ وكيف يصنعون؟ فبدأت الآية الكريمة باستفهام توقف وتعجب، وتأمل لموقف سيمر به هؤلاء. وفي ذلك استثارة للذهن بالتفكر في تبعية المآل، والتفكر في النتيجة،

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٣١/١)

والتأمل فيما سيكون حال وقوع مصيبة بهم، خاصة أنه بذنوبهم يتقرر لهم الوقوع في المصائب ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ فذنوبهم ستأخذ بهم إلى وقوع وحلول المصائب عليهم، مما يفيد أن الذنوب وراء وقوع المصائب، مما يتطلب من المؤمن أن يتدارك نتائج ذنوبه بالتوبة، وكثرة الاستغفار. وهو خطاب يستحث التأمل، بتصوير الموقف كيف يكون قبل أن يكون، مما يفيد أهمية التفكير في المآلات، وكذلك تقليب أوجه الأمر، قبل الدخول فيه، وأن منهج القرآن الكريم في أساليبه هو منهج تدبر وتفكر، فَيُوجِّه الْمُخَاطَب توجيهاً تأملياً، وتوجيهاً تدبرياً، بما يرفع من مستواه الفكري، نحو التعقل، واستبصار الطريق بوضوح.

وفي جملة ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ كناية عن جميع تصرفاتهم: القلبية والعقلية والسلوكية، وتم التعبير عنها بكسب اليد، لأن اليدين هي أقوى عوامل الكسب والتحصيل عند الإنسان، وأظهر عوامل التغيير، وهي التي يُفْعَل بها ما يمليه العقل، وما يجيش به القلب، وما تُبصره وتستثيره العين، وتسمعه وتتلذذ به الأذن، وتحسه البشرة، ويشَمّه الأنف. فاليدين هي المنفذة لمتطلبات الحواس والعواطف والإرادة. وهذه من الدقائق البيانية العظيمة في القرآن الكريم. وكلمة ﴿ قَدَّمَتْ ﴾ تفيد سبق المعصية هو الطريق لحصول المصيبة ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ فهو وعظ عظيم من رب العالمين لهم ولغيرهم.

وقد بينت الآية الكريمة أنهم سيرجعون ويعودون إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وهم يكذبون ﴿ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ واعترافهم يدل على معرفتهم بما كان يجب عليهم. ويفيد أن أيمَانَهُم للنبي صلى الله عليه وسلم كانت كاذبة ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ كما يفيد ذلك ويبين قوة جراءتهم على ارتكاب الأيمان الكاذبة، وتبرير فعلهم، بأنه للإحسان والمصانعة من أجل الموافقة.

وهؤلاء قد كشف الله تبارك وتعالى حالهم بقوله عَزَّ وجل ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ فهذا الضرب من الناس هم المنافقون، والله يعلم ما في قلوبهم، وسيجزيهم على ذلك، فإنه لا تخفى عليه

خافية، فاكتفي يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم بما تضمنته الآية الكريمة، فإن ربك عالمٌ بظواهرهم وبواطنهم. ولهذا قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ إي لا تُعَنِّفهُم على ما في قلوبهم ﴿وَعِظْهُمْ﴾ أي وانههم عَمَّا في قلوبهم من النفاق، وسرائر الشر ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أي وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ مؤثر، يدفعهم للحق، ويردعهم عن الباطل. فلم يكلف الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم إلا بالموعظة البليغة لهم، مما يبين حدود التكليف والمسؤولية في هذا الشأن.

فقد بينت الآية الكريمة منهجية التعامل مع هؤلاء، بعدد من القواعد المتتابعة، فالقاعدة الأولى: متعلقة بالعلم بحقيقة أمرهم، مما يفيد التثبت من الأمر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وكانت الحكمة البالغة في منهجية التعامل، وجاءت القاعدة الثانية: بالإعراض ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فلا تعاقبهم، لأن في ذلك مصلحة، مما يفيد أهمية مراعاة المصالح أثناء التعامل. لأنه ما أُمِرَ صلى الله عليه وسلم بالإعراض عنهم إلا وفي ذلك مصلحة، ودفع مفسدة.

ثم القاعدة الثالثة: ﴿وَعِظْهُمْ﴾ ليعرفوا أن تركهم بلا عقوبة ليس جهلاً بأمرهم، وبحقيقة ما انطوت عليه نفوسهم، خاصة وأنهم جاؤوا يعتذرون كذباً، بل ويحلفون أنهم ما أرادوا بفعلهم واحتكامهم لغير رسول الله صلى الله ليه وسلم إلا إحساناً وتوافقاً ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ وهذه منهجية إسلامية عظيمة، ولكن هذه الموعظة التي أُمِرَ النبي صلى الله عليه وسلم بها، موصوفة بالكلام البليغ الرادع ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ فبالغ في وعظهم، بقول مؤثر بليغ في أنفسهم، وتأثير في قلوبهم، وبالتالي سيحصل لهم به الغمُ والرُّعْبُ من تكرار فعلهم النفاقي، فيستشعرون الخوف، لأن الله تعالى قد كشف حقيقتهم، بالرغم من أنهم حلفوا بالله، ولكنه حلف كاذب، فيتقرر في نفوسهم أن الله تعالى مُخْبِرٌ لرسوله صلى الله عليه وسلم بما يبدر منهم. ولعل في هذا ما تقوم به الحجة عليهم فيما لو تكرر منهم عملاً نفاقياً آخر، فيستحقون بموجبه العقوبة العادلة. وكذلك فيه استدلال وتأكيد لهم أن الله تعالى قد يكشف لنبيه صلى الله عليه وسلم أحوالهم، مما يخفون ويتخفون به من النفاق.

ومن الفوائد: أهمية الموعظة، وأهمية بلاغة الموعظة، لِمَا لها من التأثير في النفس البشرية، ولما تحمله من الترغيب والترهيب، وما تقتضي من جميل العبارة ودقتها، وإيصال المعنى إلى القلب في أحسن أداء لفظي. وفيه كذلك أهمية مخاطبة النفوس بما يرغبها ويستثير عواطفها نحو الأخذ بالخير، وهجر الشر والمعصية. وفيه أن من أُوتيَّ البلاغة البيانية فقد أُوتيَّ خيرا عظيماً، وفيه تزكية وشهادة للنبي صلى الله عليه وسلم بالبلاغة، إذ لا يؤمر بتأدية الكلام البليغ إلا من هو قادرٌ عليه، وقد أُوتيَّ صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم. وقد قال العرباض بن سارية رضي الله عنه: وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً، بعد صلاة الغداة موعظة بليغة، ذَرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجلٌ: إن هذه موعظة مودعٍ[١] وفيه أن البلاغة البيانية في الخير محل مدح وثناء.

ومن الفوائد: أن في إخبار وكشف حقيقتهم دليل على نبوته صلى الله عليه وسلم، إذ لا يعلم بما يخفون أحدٌ من الناس إلا من كان معهم. وهذا حجة عليهم، وحجة وآية للنبي صلى الله عليه وسلم.

ثم يبين الله تبارك وتعالى ما يجب للرُسل من الطاعة ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ فقد بينت هذه الآية الكريمة ما كان يجب لِرُسُلِ الله تعالى على أقوامهم من حق الطاعة، ليكون مبدأً وقاعدة لكل رسول من رُسُل الله تعالى، وعلى كل مجتمع بُعِث لهم فيه نبي، وخاتمهم رسولنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم، الذي أُرسِل للعالمين كافة. وعندما تُؤمر وتُوجَّه هذه الأمة بهذا البيان، إنما ليكون قاعدة مضطردة، بأن حق الطاعة واجب للنبي صلى الله عليه وسلم، كما هو واجب لمن كان قبله من الرُّسُل. وفي هذا ما يفيد التوبيخ للمحتكمين من المنافقين إلى غير رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين يزعمون أنهم يؤمنون بما أُنزل على النبي صلى الله عليه وسلم وما أنزل على من قبله من المرسلين.

---

(١) الترمذي (٤٣/٥) برقم (٢٦٧٦)

واشتملت الآية الكريمة على بيان أن توفيق الطاعة من عند الله تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ لأن دلالة ﴿لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ تفيد أن الملك لله تعالى، وافتقار العبد لخالقه، فيلتمسه بالاستجابة لله تعالى وبالدعاء، كما أن في هذا استحثاث للدعاء والالتجاء إلى الله تعالى، بطلب مرضاته، والخوف والرجاء، لأنه لا توفيق لأحد إلا بالله تعالى، مما يفيد أهمية الدعاء والتضرع له سبحانه وتعالى، والتماس رضاه عَزَّ وجل بالطاعة وعدم المعصية رجاء رضاه وتوفيقه وهدايته وتسديده.

وما سبق يفيد في مجال القيادة والإدارة: أهمية البيان والإيضاح بما يجب للقيادي والرئيس والمدير من حدود وحقوق الطاعة والامتثال، لأن الطاعة لِرُسُل الله تعالى مطلقة، وبلا حدود، لأنهم يأمرون وينهون ويُشَرِّعُون بأمر الله تعالى، وأما غيرهم فواجباتهم ومسؤولياتهم محدودة، ولذلك يتم تقييدها بما يعينهم على أداء مسؤولياتهم. ومن الفوائد أن هذا الدين هو دين نظام ووضوح لا غموض فيه، بل يُعَلِّم الأمة كيف يكونون، وكيف ينتظمون، وكيف ينظمون.

ومن فوائد ما يتعلق بأسلوب البيان القرآني الكريم في قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ أنها اشتملت على **(ما)** النافية ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا ﴾ واشتملت على **(إلا)** في قوله تعالى ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ ليفيد الحصر بتخصيص رُسُل الله تعالى بالطاعة المطلقة لهم جميعاً، وأن الطاعة ليست في أمر دون أمر. كما أن الطاعة المطلقة مقصورة عليهم فقط، وفي هذا توكيد، لأن ﴿مِن ﴾ أفادت التوكيد في قوله تعالى ﴿مِن رَّسُولٍ ﴾ لتوكيد الطاعة فيما أمر، وفيما نهى عنه صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ثم يبين تبارك وتعالى المنهجية التي كان المفروض أن يقوموا بها بعد معصيتهم في الاحتكام إلى غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴾ وفي هذا البيان الرباني ما يقرر عفو الله تعالى ورحمته لمن تاب وأناب، إذ فتح لهم باب التوبة، لو عادوا وولجوا إليه بعد أن ظلموا أنفسهم بالاحتكام إلى غير الله تعالى، بأن يأتوا للرسول صلى الله عليه وسلم معترفين

بذنبهم، فيستغفرون الله تعالى، ويستغفر لهم الرسول صلى الله عليه وسلم، فلو فعلوا ذلك لوجدوا من الله تعالى التوبة عليهم من ذنبهم، ولَرَحِمْهُم برحمته.

ثم أقسم تبارك وتعالى بنفسه الكريمة العظيمة: بأنه لا يتحقق الإيمان لهم حتى يُحَكِّمُوا الرسول صلى الله عليه وسلم فما حصل بينهم ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ وبعد أن يُحَكِّمُوا النبي صلى الله عليه وسلم فيما تشاجروا فيه، فيجب ألا يكون في أنفسهم ضيق ولا شك ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ ﴾ ثم يُسلموا ويستسلموا لِمَا قضيت وأمرتهم به ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ فلا يعارضونك في شيء، فينزلون عند حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإذا تحقق ذلك يتحقق لهم الإيمان.

مما يفيد أن لوازم الإيمان تقتضي أعمالاً عملية واعتقادات قلبية. فالأعمال العملية هي تحكيم شريعة الله تعالى التي يمثلها ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه عَزَّ وجل ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ وأما الأعمال القلبية، فهي طمأنينة النفس من الضيق والشك ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ ﴾ فتطمئن نفوسهم بما قضيت به.

ثم البرهان على ذلك بالاستسلام لما قضيت وحكمت به، وعدم المعارضة لذلك ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ذكر الإمام القرطبي: أي ينقادوا لأمرك في القضاء، وقال الزجاج: ﴿تَسْلِيمًا ﴾ مصدر مؤكد، أي ويسلموا لحكمك تسليماً لا يُدخلون على أنفسهم شكاً.(١) والظاهر أن هذا شامل لكل فرد في كل حكم(٢)

مما يفيد أن لحقيقة الإيمان برهان عملي وقلبي، فيجب على المؤمن الأخذ بهما والاستسلام والانقياد لهما، فلا يحتكم لغير شريعة الله تعالى في كل ناحية من نواحي حياته، وأن يطمئن قلبُه

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٤/٥)
(٢) الشوكاني، فتح القدير (٤٨٣/١)

لشريعة الله تعالى، ولا يضيق صدره بها، وأن يصدق بذلك بلا ريب ولا شك، وأن يستسلم لشريعة الله تعالى استسلاماً يظهر في القبول والإذعان لدين الله تبارك وتعالى. اللهم إني اسألك لي ولإخواني المسلمين إيماناً صادقاً وعملاً صالحاً كما تحب وترضى.

﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ٦٦ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٦٧ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٦٨ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ٧٠﴾

يخبر الله تعالى بأنه لو فرض على عباده ما يشق عليهم بأن يقتلوا أنفسهم أو أن يخرجوا من ديارهم ومساكنهم ومراتعهم، لم يفعل ذلك إلا القليل منهم ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡ﴾ مما يبين رحمة الله تعالى إذ لم يفرض عليهم ما يشق عليهم فعله من العبادات والطاعات، وفي هذا بيان لرحمته تبارك وتعالى، وبيان كذلك لِمَا سيكون فيما لو قد فرض الله تعالى عليهم ذلك، مما يدل على أن رحمته تبارك وتعالى اقتضت ألا يطلب من عباده إلا ما يستطيعون. فنحمد الله الرحمن الرحيم على رفع المشقة عن عباده.

ومن فوائد عموم السياق الذي تستوعب دلالته البلاغية أوجه الخصوص، كما استوعبت وجه العموم، ليتبين عظيم كلام رَبِّ العالمين حتى في سياقه ومجموع دلالاته، واستيعابه لأوجه متعددة، لتكثر بها الفوائد، مع انتفاء وجود التعارض بينها. فقد جاء في التفسير: لو أن فرضنا على هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يتحاكمون إلى الطاغوت أن يقتلوا أنفسهم، أو أن يخرجوا من ديارهم، مهاجرين منها إلى دار أخرى، لما فعلوا ذلك.[1] أي

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧/٢٠٦)

المنافقون الذين يزعمون أنهم آمنوا، وهم يتحاكمون إلى الطاغوت. وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: والمعنى: لو أن الله سبحانه وتعالى كتب القتل والخروج من الديار على هؤلاء الموجودين من اليهود ما فعله إلا القليل منهم، أو لو كُتب ذلك على المسلمين ما فعله إلا القليل منهم[١] وقيل أن ثابت بن قيس بن شماس افتخر هو ورجل من يهود، فقال اليهودي: والله لقد كتب الله علينا أن أقتلوا أنفسكم، فقتلنا أنفسنا. فقال ثابت: والله لو كتب اللهُ علينا أن اقتلوا أنفسكم، لقتلنا أنفسنا. فأنزل الله تعالى هذه الآية. وكذلك ذُكِرَ أنه لما نزلت هذه الآية ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَـٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ قال رجل: لو أُمرنا لفعلنا، والحمد لله الذي عافانا. فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فقال (إن من أمتي لرجالٌ، الإيمان أثبَتُ في قلوبهم من الجبال الرواسي)[٢] قال ابن وهب: قال مالك: القائل ذلك هو أبوبكر الصديق رضي الله عنه[٣]

وسواء كانت هذه الآية نزلت في المنافقين الذين احتكموا إلى الطاغوت، أو بخصوص افتخار ثابت بن قيس رضي الله عنه واليهودي، أو كانت عامة فيما لو فرض الله تبارك وتعالى ذلك على الخلق، فإن الآية الكريمة تستوعب ذلك بلا تنازع في النص القرآني الكريم، وهذا من الإعجاز البلاغي القرآني الكريم، ليكون العبرة بدلالة النص لا بخصوص السبب.

وقد أفاد نص البيان القرآني الكريم أن القليل هو من يستجيب، كما يفيد أن هذا الدين هو من رحمن رحيم، وأنه دين رحمة ورأفة، ولا تعنت ولا تشدد ولا شدة فيه، وأن الله تبارك وتعالى قادر على ابتلاء الخلق بما لا يعمل به إلا القليل، وبالرغم من هذه السماحة والدلالات فإنه القليل الذي يعمل، كما قال تعالى في آيات أخرى في سورة سبأ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ وقال تعالى في سورة الحج ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ كما يفيد هذا

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤٨٥/١)

(٢) المرجع السابق (٢٠٧/٧)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٤/٥)

أن بالأضداد تُعرف النعم، إذ بين الله عَزَّ وجل نعمة هذه الشريعة بما لو كان من الشدة كيف سيكون الناس.

ثم بين تبارك وتعالى ما كان يجب أن يقوموا به ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴾ فلو استجابوا لِمّا جاء عن الله تعالى لكان خيراً لهم من مخالفة الأمر وارتكاب النهي. فهو خير لهم في الدنيا والآخرة، وتتحقق لهم به منفعة أخرى كذلك، وهي: التثبيت على الحق ﴿وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴾ ولكان في ذلك تثبيتاً لهم على الصدق والحق ولزوم الهداية.

مما يفيد أن اتباع الهدى الذي جاء عن الله تعالى يُثَبّت به الله تعالى أقدام أتباعه على الحق والخير، فمن وسائل الثبات على الإيمان الاتباع والطاعة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم. بل وكافأهم وأعطاهم الله تعالى ثواباً عظيماً في الآخرة ﴿ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ وفي تخصيص ذلك العطاء بأنه منه سبحانه وتعالى ﴿مِّن لَّدُنَّآ ﴾ ما يفيد تعظيم العطاء وجزالته وكثرته ومنزلته، وليس هناك عطاء أفضل من عطاء الجنة للعبد.

ثم ذكر سبحانه وتعالى ما هو أعم وأشمل ﴿ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾ ولأنعمنا عليهم بلزوم الحق والامتثال للدين الحنيف المستقيم الذي لا اعوجاج فيه. لأن الهداية توفيق بلزوم الحق وترك الضلالة، وإذا كانت مُحددة ومنضبطة بالصراط المستقيم، كان ذلك عين المطلوب، لجميع تفاصيل ومفردات الخير: علماً وعملاً واعتقاداً، بلا استثناء. وهو الدعاء الذي شملته أم الكتاب، في سورة الفاتحة ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ ﴾ الهداية التي لا اعوجاج فيها. فيتحقق ما يطلبه ويسأله المسلم.

ثم بين الحق تبارك وتعالى منزلة الطائعين له جّلَّ جلاله، ولرسوله صلى الله عليه وسلم. فقال عَزَّ وجل ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ فمن عمل بما أمره الله تعالى به

ورسوله صلى الله عليه وسلم، وترك ما نهاه عنه اللهُ ورَسُولُه صلى الله عليه وسلم، فإن الله تعالى يُسكنه دار كرامته، ويجعله مرافقاً للأنبياء، ثم لمن بعدهم في الرتبة، وهم الصديقون، ثم الشهداء، ثم عموم المؤمنين، وهم الصالحون. ثم أثنى الله عليهم[1] ﴿ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ وهذا يدل على أن هذه الأصناف موصوفة بالْحُسن في رفقتها، فإن من يرافقهم يسعد بهم، وبالجلوس معهم، فيأنس بهم أنساً عظيماً. اللهم اجعلنا معهم بمنك وفضلك يا كريم.

ثم قال تبارك وتعالى ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ فهذا الفضل الذي حصلوا عليه، هو كرمٌ وجودٌ منه سبحانه وتعالى. مما يفيد أن هذا الفضل لا يستطيع أن يتصوره إنسان، لأنه من الرحمن الرحيم الكريم، الذي لا تدركه الأبصار، فكيف سيكون من هذا وصفه أن يكون عطاؤه جَلَّ جلالُه وتقدست أسماؤه. ويكفي علم الله تعالى بعباده، في طاعتهم ومعصيتهم، ومن يستحق ومن لا يستحق. فإن علم الله تعالى يكفي به فيهم. فسبحان من علمه وسع كل شيء، فلا تخفى عليه خافية. ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ فإنه سبحانه وتعالى يكفي عباده كل بعظيم علمه بهم، وبما سيكون مما يخفى من غيرهم بهم. وهو المحاسب والمجازي لهم، فيكفيهم ربهم أنه هو الذي يتولاهم، ويحاسب كلاً بعمله. وفي هذا تعزيز للقوة الإيمانية في التوكل على الله سبحانه وتعالى، وكمال الإدراك بأنه عَزَّ وجل عالم بالأعمال والضمائر والنوايا والخفايا، وبالتالي سيدبر الأمور بعلمه، وسيحاسب المسيء بما عمل، ويثيب ويجازي المحسن بما أحسن، فلن يفوت شيء على أحد من خير أو سوء، وسيقضي عَزَّ وجل بين العباد بحكمه العدل، سبحانه وتعالى.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٣٤/١)

ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾

خاطبت هذه الآيات الكريمات المؤمنين في شأن جهاد أعداء الله تعالى، مبينة لهم في ذلك منهجية عظيمة. وقد جاء الخطاب بصيغة النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وهو أسلوب دعوي وتربوي مؤثرٌ على الْمُخَاطَب وعلى انتباهه، لأن فيه شد الانتباه للمُنَادَى، بأن أرعو سمعكم. وفي دلالته لفت الانتباه لأمر عظيم، وهنا يظهر أهمية أسلوب النداء للتنبيه، وتحديد الْمُخَاطب والمعْنِي بالأمر. قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه[1] وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه للمؤمنين بإرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية.

وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان، التي هي من أرقى درجات الوصف، وما يستلزمه هذا الوصف من الامتثال بما آمنتم عليه من التصديق والإيمان، وكذلك تَحْمِلُ في دلالتها التكريم للمُخَاطَبين، والتشجيع والترغيب لهم في متابعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في كل أمر وشأن. إذ ناداهم ربهم بصفة الإيمان، وهي رتبة عظيمة ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان، والتي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر من عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له؛ وخُوطِبُوا وأُمِرُوا به، وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيستدعي أسلوب النداء الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب رب العالمين، مما يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان، وما يجب تجاهه من الأخذ والاهتمام به؛ مع قوة الالتزام.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢)

ويفيد هذا تربوياً أهمية مناداة المتعلم والمدعو بأفضل ما يمكن أن يُنادى به، فإذا كان هذا هو الله تعالى ينادي عباده برتبة الإيمان العظيمة، فكيف العبد مع عبد مثله. وقد سبق البيان لأهميته في مطلع هذه السورة.

وأول هذه المنهجية العملية في الجهاد هو أخذ الحذر ﴿ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ ﴾ لتفيد أهمية الأخذ بالأسباب بعد التوكل على الله تعالى، ثم تفيد أهمية الأخذ بكل متطلبات الحذر الاستباقية للجهاد والدفاع، وقد جاء ذلك التوجيه في كلمتين: أمر، ومأمور به ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ ﴾ وفي هذا بيان لِمَا يستلزم من التأهب والاستعداد بالعتاد، والعدد، والتدريب، وحُسن التدبير في كل وجه، بما يحقق أخذ الحذر. كما أن في هذا تحذير من التعامل مع العدو بجهالة، بل يلزم الأخذ بضده من العلم والتكثر والتدريب والحيطة واليقظة، مما يعني أهمية اعتماد المعرفة والعلم بأحواله، وكذلك أهمية الاستعداد له بكل ما يمكن. ويندرج تحت هذا جمع المعلومات، والتنظيم والتخطيط الذي يتفرع في كل زاوية من زوايا ملاقاة العدو، مما يدل على أن هذا الدين يجمع بين التوكل على الله تعالى والاعتماد عليه، والأخذ بالأسباب في أدق تفاصيلها.

ومن جميل البيان أن جملة ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ ﴾ استوفت كل مطالب الحذر من غير تفصيل وتحديد، لتستوعب واقع الحال كله، وما يستجد من أسباب أخذ الحذر.

ثم يبين الله تبارك وتعالى منهجية ثانية في الجهاد: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ ﴾ أي: فانهضوا لقتال العدو، في صورة وحدات، لأن ﴿ثُبَاتٍ ﴾ كناية عن السرايا[1] وفي دلالة ﴿فَٱنفِرُواْ ﴾ الذي هو النفور: ما يفيد الفزع، ويفيد كذلك التجافي عن الشي والتباعد عنه، مما يعطي دلالة على لقاء العدو بشجاعة قوية، ممتلئة بالفزع الذي يدفع المفزوع إلى التجافي والترك والهجر للشيء الذي هو فيه، من محبوب ومرغوب، إلى ما هو مُفْزِع ومخيف. وفي هذا معالجة نفسية لما يختلج في النفس البشرية من الرغبة في المحبوب والتباعد عن المكروه. ليدفعها نحو مغالبة النفس لمصلحة النفير، كما أن التعليم جاء بصيغة الأمر ﴿فَٱنفِرُواْ ﴾ وهذه من روائع البلاغة الأسلوبية التي حملت ألفاظها مقاصد عظيمة

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٧/٥)

في كلمات معدودات، وموجزة في تراكيب بنائها، مما أعطاها جمالاً لفظياً، وقوة بيانية، وامتلأت بالتنوع في الفوائد.

ثم بينت المنهجية الثالثة: مبدأ الخيار والتغيير، وذلك بالتحول إلى البديل التنظيمي ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ﴾ أو العدول عنه إلى النفير ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ وهذا يتطلب إمعان النظر في خطة التكيف مع الأسلوب الأمثل في مواجهة العدو ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ وهذا النوع الذي هو ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ كما ذكر الإمام الزمخشري رحمه الله تعالى: أي مجتمعين، كوكبة واحدة، لأن ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ﴾ جماعات متفرقة ، سرية بعد سرية[١] وأما ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ فهو الكوكبة الكبيرة التي يمثلها الجيش الكثيف.

ثم بين تبارك وتعالى ما يكون من المنافقين ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ وفي هذا بيان تحذيري، من أن هناك فئة تستبطئ بالتأخر، وهم المنافقون، حيث كانوا يقعدون، ويُقعِدون غيرهم عن لقاء العدو. وقيل: وقد سماهم الله تعالى منكم ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ﴾ بالرغم من نفاقهم، قال مجاهد وغير واحد: نزلت في المنافقين، وكان المنافق عبدالله بن أبي سلول يتأخر عن الجهاد، ويُثبط الناس عن الخروج فيه.[٢] ويمتد سلطان المعنى إلى كل من يتباطأ ويتأخر، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ويحتمل أن يكون المراد أنه يتباطأ هو في نفسه، ويُبْطِئ غيره عن الجهاد، كما كان عبدالله بن أبي سلول[٣] وهناك قول آخر بأنها في المسلمين الذين قلت علومُهم بالدين، فَثَبِطُوا لقلة العلم، لا لضعف الدين. وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أنه على القول بأنهم المنافقين ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ﴾ فذلك لموضع نطقهم بالإسلام، وجريان

---

(١) الزمخشري، الكشاف (١/٥٤٥)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٥٣٧)

(٣) المرجع السابق (١/٥٣٧)

أحكامه عليهم، وعلى القول بأن ﴿مِنكُمۡ﴾ هم المسلمين الذين قلت علومهم بالدين، تكون حقيقة[١] وجُمع بينهم في الخطاب من جهة الجنس والنسب، لا من جهة الإيمان، وهذا قول الجمهور، وهو الصيح إن شاء الله تعالى[٢] وهذا يدل على أن السياق القرآني الكريم يعطي في دلالته فوائد مُؤْتَلِفَة، فتستوعب جميع من يشملهم المراد. وهذا من غزارة عطاء الله تعالى، بالفوائد العظيمة التي يستفيض بها دلالة النص في كتابه الكريم، فمن ذلك أنه يشمل كل أحد من المسلمين إذا تكاسل وتأخر وتباطأ، ليكون هذا التوجيه محفزاً له بالحذر من التباطؤ. ومن وجه آخر تحذير من مسلك التأخر والتباطؤ عند النفير، ومن وجه آخر أنها تعني المنافقين، ليحذر المسلمون من صنيعهم المتخاذل، وأنه تبارك وتعالى جعل المنافقين من جنس مجموعة المسلمين على ظاهر ما ينتسبون إليه، وتجري عليهم أحكامه، فكان التعامل معهم على ظاهرهم. ليكون درساً في عملية التعامل مع المخالف من المنافقين، الذي يَدَّعِي الإسلام ويُبطِن خلافه. فَعَمَّ نفعُ البيان الرباني من عدم تسميتهم إلى هذه الغزارة الدلالية، إذ لو حصلت التسمية، لما تعددت أوجه عطاء النص الكريم. وهذا من بلاغة بيان الآية المباركة، وبلاغة المقاصد التي تحصل به ومنه، فسبحان من أعجز بكلامه خَلْقَهُ من الجن والإنس من أن يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض سنداً وظهيراً.

ثم يبين الله تبارك وتعالى طريقة تأويل المتباطئين لتباطئهم ﴿فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا﴾ مما يبين حيل النفاق النفسية، وما يترتب عليها من تأويل وتجيير النتيجة لمصلحتهم. فالمنافق المتخاذل عن المشاركة يُؤول نتيجة ما يُصيب المسلمين من قتل وجراح أو هزيمة لمصلحته، بأنها نعمةٌ مَنَعَتْ عنه القتل أو الجراح، أو ذَهَاب المال ونحوه، فسَلَّمَهُ اللهُ تعالى بالقعود عَمَّا حصل ﴿إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا﴾ أي: لم أحضر معهم واقعة القتال. وما عَلِمَ أن ما أصاب المسلمين هو خير كثير قد فات المتخاذل. فإن الموت شهادة، والجراح مُثابٌ عليها بإذن الله تعالى. وهذا يفيد أن الإنسان قد يتلمس الشيء في مصلحته، بتأويله وتجييره له، وقد يتأول الشر الذي وقع فيه على أنه خير، وأن الخير الذي فاته هو شر تجاوزه. وهذا يتطلب

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥٢/٢)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٨/٥)

من المسلم إنفاذ أوامر الله تعالى، وما يحصل عليه هو الخير المحض، سواء كان سراء أو كان ضراء، فإن العلم مُوكل إلى الله تبارك وتعالى.

ومن الفوائد: أن الله تعالى سمى ما أصاب أو يصيب المسلمين بالمصيبة ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ ﴾ فذلك تنزلاً لِمَا يُسَمِّيه الْمُخَاطب أنه مصيبة، وإلا فإن قضاء الله تعالى كله خير، فمن مات شهيداً، ومن جُرِح مُثابٌ عليه، ومن هُزِم لم يفته الأجر، فالمسلم في خير، بين الشكر والصبر.

وأما الوجه الثاني إذا حصل النصر ﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ فإذا حصل النصر والظفر والغنيمة قال المنافق متحسراً ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ فقد بلغت قوة التحسر عنده درجة المناداة بما فاته من فقدان المعية والمرافقة للمؤمنين، مع قوة التمني، التي تفيد شدة الغبن الذي أصابه من الفوت الذي أعقبه حسرة عظيمة الأثر مما فاته من الفوز بالغنيمة ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ ودلالة كلمة ﴿يَٰلَيْتَنِى ﴾ تفيد التمني، وطلب ما أصبح مستحيلاً، ثم كان هذا التمني بصيغة النداء ﴿يَٰلَيْتَنِى ﴾ بما يفيد قوة المبالغة في التحسر على ما أصبح إدراكه مستحيلاً، ليستبين به قوة الألم النفسي والمعنوي، الذي يظهر أو سيظهر أثره على الجوارح. ثم من مزيد بيان درجة التحسر هو ذلك الوصف الذي وصف به المنافق ما فاته، من أنه ليس فوزاً بسيطاً يمكن تعويضه، بل إنه فوزاً عظيماً، ليس ككل فوز ﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ كما تبين الدلالة القرآنية أن تحسر المنافق متقوقع على لعاعة الدنيا فقط، وهي الغنيمة العينية، فليس له حظ في التحسر على مكاسب الآخرة.

وفي قوله تعالى ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ ﴾ أي: كأنه لم يعاقدكم على أن يجاهد معكم، ويجوز أن يكون كأنه لم يعاقدكم على الإيمان[1] فكأنه لم تكن بينكم وبينه مواثيق

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥٢/٢)

على القتال والإيمان، مما حرمه ذلك، ومنعه من الحصول على الفضل والغنيمة. فكأنه محروم من القتال وممنوع منه، والأمر ليس كذلك. فإنما شأنه وفعله هو الذي نال به الحرمان من المشاركة في القتال.

فقد حَلَّت به الحسرة والتحسر على عدم مشاهدته القتال، والمشاركة فيه، حتى يحصل على ما يكون من غنيمة القتال ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴾ فقد ناله من الألم النفسي ما جعله متلهفاً متحسراً على ما فاته، فمنطوق حاله كأن بينه وبينهم مودة قبل ذلك من شدة ندامته وتحسره، فحاله حال المتندم الساخط على نفسه، مرتسماً للمودة، التي تفيد عمق التعلق العاطفي.

ومن الفوائد: أن الله تبارك وتعالى سَمَّى النصر فضل، ونسبه إليه ﴿ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ليدرك المؤمن أن النصر هو فضل، وأن الفضل بالنصر هو من عند الله تعالى، ليتعلم المؤمن أن لا ينسب فضل النصر للجهد، أو للكثرة في العدد أو العدة. بل لصاحب الفضل الأول سبحانه وتعالى. وقد أبان الواقع ذلك في حياة المسلم. فيلزم المؤمن أن ينسب النصر والفوز والنجاح والتوفيق لله تعالى، فهو الموفق، وهو رب الأسباب، وخالق الأسباب، ومدبرها كيف يشاء سبحانه وتعالى.

ثم يستحث تبارك وتعالى المؤمنين على الجهاد في سبيله بأسلوب الترغيب المبني على المفاضلة ﴿فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ وهو أسلوب يستثير العقل للتفكر في المآل، من خلال إجراء التفاضل بين أمرين أو أكثر. فيندب أولئك الذين فاضلوا واختاروا الحياة الآخرة على الدنيا ليقاتلوا في سبيله سبحانه وتعالى ﴿فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ فليقاتل في سبيله أولئك الموصوفون بتقديم الآخرة على الدنيا، ووصف ذلك التفاضل بالمقايضة التي تحصل في البيع والشراء، فيقدم المشتري ما عَزَّ عليه مقابل ما هو أعز منه، بالرغم من أن النفس في عملية الشراء، تريد الاستكثار من غير دفع المقابل، مما يدل على تضمن المفاضلة لعملية المفاعلة النفسية، التي تدفع المرء لتقديم الحياة

الدنيا الفانية ثمناً للآخرة الباقية. ودلالة كلمة ﴿يَشْرُونَ﴾ هي بمعنى يبيعون، لأن كلمة شرى تقابل باع، ومثل باع وابتاع. فابتاع بمعنى اشترى.

وفي هذا استثارة للنفس على أن تؤكد إيثار الآخرة على الدنيا بالقتال في سبيل الله تعالى، فإنها محك ودليل عملي. فأما الذين يُبَطِئون فلا ينطبق عليهم ذلك، وفي هذا استحثاث لهم أيضاً، بالانتقال من إيثار الدنيا إلى إيثار الآخرة. وهو أسلوب دعوي وتربوي قوي التأثير بمنطوقه وبتراكيب كلماته ودلالات معانيه وسياقه المستفيض بالفوائد.

وسَمَّى وخص الحق تبارك وتعالى الجهاد بأن يكون في سبيله ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لأنه طريق إلى مرضاته سبحانه وتعالى، وهو سبيل يُتَوَصَّلُ به إلى ثوابه وجناته، وفي هذا تذكير للمؤمنين بالإخلاص، وكذلك فيه ربط بين المطلوب الجهادي وبين ما يتوصل به المجاهد من طاعة الله تعالى. كما أن من فوائد قوله تعالى ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تحقيق التوحيد، وتخصيص الإخلاص لله تعالى، فقتال المقاتل قد يكون في سبيل الله تعالى، وقد يكون لغير ذلك من حظوظ الدنيا، فيخرج بقوله تعالى ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جميع ما لم يكن في سبيله. وهذا يفيد الحصر، أي حصر الجهاد المقبول عند الله تعالى فيما كان في سبيله عَزَّ وجل.

ثم أظهر وبين سبحانه وتعالى المحصلة والنتيجة التي سيفوز بها المجاهد في حال أن قُتِل أو غَلَب ﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ فكلا النتيجتين يحصل بهما على الأجر العظيم. وهنا تكررت ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مرة أخرى، لمزيد من التخصيص والتنبيه على أهمية الإخلاص لله تعالى، بأن يكون حصول القتل في سبيله، أو حصول النصر كذلك في سبيله تعالى. كما أن دلالة ﴿عَظِيمًا﴾ تفيد أن الأجر من الله تعالى لن يستطيع أن يقدره أحد، فلا يُقَدِّر مِقْدَارَه ولا قدره أحد، إلا الله عَزَّ في علاه، لأنه أعظم من أن يتصوره الإنسان. وهذا يفيد عظيم عطاء الله تعالى، ومكافأته لمن أطاعه وأخلص له عَزَّ وجل. وكذلك يفيد ويبين هذا في الحياة العملية أهمية المكافأة المجزية، وأهمية مقدارها، لأنها تستحث النفس نحو تحقيق الثمرة العظيمة.

وفي إخفاء مقدار الأجر من الله العظيم الكريم، ما يستثير النفس نحو بلوغه، والسير في تحقيقه، لأنه قد تيقن المؤمن من أن عطاء وثواب الله تعالى لا يمكن أن يتصوره المخلوق. فالشهيد سيحصل على أجر عظيم، وكذلك الغالب المنتصر سيحصل على أجر عظيم من الكريم العظيم سبحانه وتعالى.

ثم بأسلوب السؤال الذي يفيد الاستفهام الانكاري يستحث ويستنهض المولى عَزَّ وجل المؤمنين على أن يقاتلوا في سبيله، ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ما الذي يمنعكم من القتال في سبيله سبحانه وتعالى، فلا شيء يمنعكم من ذلك، فيحمل في دلالته امتناع المانع مع وجود الدواعي، فكان أمراً ربانياً بأسلوب الحض والحث، الذي يستنهض به الهمم، خاصة وأن الحيثيات في غاية الأهمية، ومنها حال المستضعفين. فما الذي يمنعكم من القتال ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ فهناك ما يستدعي تخليص واستنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان من أيدي الكفرة، الذين يسومونهم سوء العذاب، حتى ضاق المقام بهم من ظلم أهل الكفر لهم، فيدْعُون ويَطْلِبُون من الله تبارك وتعالى الخلاص مما هم فيه. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: فأوجب الجهاد لإعلاء كلمته، وإظهار دينه، واستنقاذ المؤمنين الضعفاء، وإن كان في ذلك تلف النفوس. وتخليص الأسارى واجب على جماعة المسلمين، إما بالقتال، وإما بالأموال، وذلك أوجب لأنها دون النفوس، إذ هي أهون منها. قال مالك: واجب على الناس أن يفدوا الأسارى بجميع أموالهم، وهذا لا خلاف فيه.[1]

وقد ذكر الله تعالى حالتين تستنهض به نفوس المؤمنين للقتال، وهما: حالة المستضعفين من المؤمنين، رجالاً ونساء وأولاداً، حيث بلغ بهم الظلم مبلغاً عظيماً في مكة حرسها الله تبارك وتعالى. والحالة الثانية: هي حالة الظالمين، حيث جاء تسميتهم ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ ليستوحي منها المؤمن، أن منهم من يظلم أولئك المستضعفين، وبل وبالغوا في ظلمهم، وأن منهم من يرى الظلم

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٨٠/٥)

والمظلومين من أهل هذه القرية ولا يتحرك نحو دفع الظلم عن هؤلاء المستضعفين، فكأنهم تواطؤا على الظلم، فاستحقوا جميعاً هذه الوصف ﴿ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا﴾ فدفع ذلك الظلم أن يرفع المظلومون مظلمتهم إلى خالقهم تبارك وتعالى، بأن يُخرجهم من هذا الموطن، وهذا الوطن الذي افتقروا فيه للناصر الذي ينصرهم ويفك عنهم ما وقع عليهم من ظلم الظالمين ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا﴾ وكون الإنسان يطلب الخروج من موطنه إلى موطن آخر، فإنه دليل على قوة الظلم الذي حل بهم.

ثم طلبوا من الله تعالى أن يجعل لهم من عنده ولياً ناصراً ﴿وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ فهذه الحيثيات، وهذا الواقع يستثير التساؤل عن عدم نُصرتهم ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ فمالكم لا تنصرونهم بمقاتلة العدو الظالم، فكان أسلوباً بليغاً مثيراً للهمم المؤمنة، مما يفيد أهمية أسلوب الخطاب وحيثياته في استنهاض الهمم نحو العمل بالطاعة لله تعالى، ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم بين تبارك وتعالى مفارقة تستنهض وتستحث المؤمنين على الجهاد والقتال، وأولها هو: أن المؤمنين يقاتلون في سبيل الله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والثاني: أن الكافرين يقاتلون في سبيل الشيطان وأوليائه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ فإذاً ما لكم لا تقاتلون مع هذه المفارقة، فإن هناك فرقاً كبيراً وعظيماً بين الفئتين، فإذا كان الكفار يقاتلون بالباطل، وفي الباطل، وفي سبيل الشيطان وأوليائه، أفلا يتطلب ذلك منكم ويستثيركم ويحثكم إلى مقاتلتهم في سبيل الله تعالى، فإن في هذه المقارنة والمفارقة ما يستنهض ويستحث هممكم، خاصة وأن هناك موجبات من وجهين: أولها الهدف والغاية، والثاني: ثمرة ذلك القتال، فالهدف والغاية لديكم نصرة المظلمين، وإعلاء كلمة الله تعالى، وأنه في سبيل طاعة الله تعالى، وأما ثمرة ذلك فهو الأجر العظيم الذي يجده من قُتِل أو غَلَب ﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا

عَظِيمًا ﴾ وقد وصف الله تعالى الأجر بأنه أجراً عظيماً ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ وقد أفادت دلالة ﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ المبالغة في الأجر، الذي لا يعلمه إلا الله تعالى من عظمته. فلا يستطيع أن يُقَدِّر مِقْدَارَه ولا قدره أحد إلا الله عَزَّ في علاه، لأنه أعظم من أن يتصوره الإنسان. وهذا يفيد عظيم عطاء الله تعالى، ومكافأته لمن أطاعه وأخلص له عَزَّ وجل. وكذلك يفيد ويبين هذا في الحياة العملية أهمية المكافأة المجزية، وأهمية مقدارها، لأنها تستحث النفس نحو تحقيق الثمرة العظيمة.

ثم بين تبارك وتعالى أن كيد ومكر ما يظهره الشيطان لأوليائه المقاتلين في سبيل الطاغوت ضعيف، فلا تغركم كثرتهم ولا قوتهم ﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ فما يكيد به الشيطان لأولياء الله تعالى ضعيف، فهو إضلال ومكر عليهم، إذ يهديهم كيد الشيطان إلى هلكتهم، لأن مكره وكيده ضعيف أمام مراد الله تعالى، وقد هُلِك المشركون يوم بدر على كثرتهم، التي بلغت ثلاثة أضعاف المؤمنين، ودلالة الكيد تدل على أقصى ما يمكن أن يفعله، فهو موصوف بالضعف ﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ فكيف بما هو دون الكيد، لأن الكيد إرادة الضرر بالغير في خفية، دون أن يشعر الْمُكَادُ له.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾

ابتدأت الآية الكريمة بلفت الانتباه لما يُتَعَجّب منه ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ

خَشۡيَةٗۚ ﴾ فموقف هؤلاء يثير العجب، إذ كانوا يرغبون ويودون القتال، وأُمروا بالكف، فلما كُتِب عليهم القتال أصابهم الخوف على أنفسهم من العدو. وذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى أنها نزلت في قوم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، كانوا قد آمنوا به وصدقوه قبل أن يُفرض عليهم الجهاد، وقد فُرض عليهم الصلاة والزكاة، وكانوا يسألون الله تعالى أن يفرض عليهم القتال، فلما فُرض عليهم القتال، شَقَّ عليهم ذلك بما أخبر الله تعالى عنه[١] وقال قوم نزلت في اليهود[٢] والعبرة بما كان، وبما تضمنته من توجيه وبيان، وما أعطته من فوائد وعظات لمن بعدهم.

فابتدأت الآية العظيمة بمخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ أَلَمۡ تَرَ ﴾ وكذا هو مُخَاطب به الذين كان حالهم الرغبة في القتال، ثم لما فُرِض هابوا ذلك. ودلالة ﴿ أَلَمۡ تَرَ ﴾ تأتي بمعنى ألم ينته إلى علمك، ما كان من أولئك. وهو سؤال تقريري، يستنكر ما كان منهم، إذ يُقرر فيه الواقع الذي كان منهم.

وقد جاء النص القرآني الكريم بأسلوب لفت وشد الانتباه، بصيغة السؤال التقريري عَمَّا حدث. وهو تعجب في حقهم من أمرهم، واستحثاث لهم بالتذكير لما كانوا يرغبون فيه.

ومن الفوائد العظيمة الجليلة: أن الله تعالى منعهم من القتال حال رغبتهم، لما في ذلك من المخاطرة المتنافية مع سنن الله تعالى الكونية والتشريعية، إذ كان عددهم قليل في مكة، بالمقارنة مع عدد عدوهم، ولما هاجروا وأصبحت المدينة بلد مُنعة وأنصار، أذن الله تبارك وتعالى لهم بالقتال، فلما أُمِروا بما كانوا يرغبون ويودون هاب فريق منهم مواجهة العدو. وليس ذلك منهم جميعاً، بل فريق منهم. لتظهر فيهم الطبيعة البشرية، من مهابة الموت والقتال، وأنهم بشر مثل غيرهم. وليدرك غيرهم على مر العصور أن هذا الدين نزل في بشر، لهم من المشاعر ما لغيرهم، فيكونوا أسوة في مغالبة النفس ومجاهدتها، وكذلك ليدرك الحاكم أنه قد يجد مثل ذلك، فيتعلم المنهجية العلاجية الربانية.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧/٢٣٠)

(٢) المرجع السابق (٧/٢٣٣)

وتدل لفظة ﴿كُفُّوٓاْ﴾ على الأمر بالامتناع والترك. مما يدل على ما كان من منع القتال ابتداء البعثة النبوية، وأنه لم يؤذن لهم فيه آن ذاك، ليتبين أن الأمر كله لله تعالى، فهو المشرع، والرسول صلى الله عليه وسلم مُبَلِّغ عن الله تعالى بما أَمَر ونَهَى سبحانه وتعالى.

ثم بين تبارك وتعالى قدر الخشية التي أصابت ذلك الفريق ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ﴾ فقد خافوا من مشركي مكة ﴿كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ قال القرطبي رحمه الله تعالى: فهي على ما طُبع عليه البشر من المخافة، لا على المخالفة. قال السدي: هم قومٌ أسلموا قبل فرض القتال، فلما فُرض كرهوه، وقيل هو وصف للمنافقين، والمعنى: يخشون القتل من المشركين، كما يخشون الموت من الله تعالى ﴿أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ﴾ أي عنده، وفي اعتقادهم. وهذا أشبه بسياق الآية، لقوله ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ﴾ أي: هَلاّ، ولا يليها إلا الفعل. ومعاذ الله أن يصدر هذا القول من صحابي كريم، يعلم أن الآجال محدودة، والأرزاق مقسومة، بل كانوا لأوامر الله ممتثلين، سامعين طائعين .... على ما هو معروف من سيرتهم رضي الله عنهم، إلا أن يكون قائله ممن لم يرسخ الإيمان في قلبه، ولا انشرح بالإسلام جنانه، فإن أهل الإيمان متفاضلون[١]

لقد تصدرت منهجية الله تبارك وتعالى في المعالجة ببيان الفرق بين متاع الدنيا ومتاع الآخرة، ليكتشف الْمُخَاطَب الحقيقة التي يجب أن يُوليها اهتمامه ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ فَإن مُتَعُ وملذات الدنيا إذا قُورِنَت بمتاع الآخرة، فهي قليل جداً، ليسترخص المؤمن متاع الدنيا الفاني في عدده تنوعه، وأشكاله وحجمه، وفي زمنه ومدته، أمام متاع الآخرة الباقي، فمهما كَثُر متاع الدنيا فهو محدود من كل وجه، أمام متاع الآخرة. فإن المقارنة تنتفي من كل وجه.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧/١٨١-١٨٢)

ومن دقائق البيان الكريم أن متاعُ الآخرة لم يُوصف بأنه أكثر من متاع الدنيا، بل عدل التوجيه الرباني الكريم إلى ما هو أعظم من ذلك ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ فالآخرة ﴿خَيْرٌ﴾. ودلالة كلمة ﴿خَيْرٌ﴾ جمعت الخيرية والأفضلية، إضافة إلى أنها مخصوصة لفئة المتقين ﴿لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ بل وفيها من عظيم العطاء، ما لا يُظلم فيها المطيع بما قدم في حياته ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ بل إن الظلم ممتنع حتى فيما يزهد فيه الإنسان، ومما يُحْتَقَر من العمل والحسنات، حتى ولو بلغ ﴿فَتِيلًا﴾ أي قدر الخيط الرفيع في شق النواة. وهذه المقارنة من عظيم الاستثارة والحث الذي يقتلع إيثار النفس لمتاع الدنيا على ما في الآخرة من خير وأبقى.

ثم تأتي المعالجة لما يختلج في النفس من مهابة الموت، والخوف من حصوله، فيقول الحق تبارك وتعالى ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ فالموت لا يمتنع عن صاحبه بالوقاية منه. وفي هذا ما يزيل مواقع الجبن من النفس، وهو الخوف من الموت، فالذين يهابونه بسبب توقعهم وتوقيهم من مواقع القتال وصليل السيوف، فإن الحقيقة تؤكد وتبين أن الأجل المكتوب هو الحاسم في ذلك، وليس هو الوقاية منه ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ فالموت يدرك صاحبه في أي مكان، لأن دلالة ﴿أَيْنَمَا﴾ تستغرق وتستوعب جميع الأمكنة التي يتصورها، أو لا يتوقعها الإنسان. ففي الفراش يمكن أن يكون، وبالسيوف يمكن أن يكون، فلا مكان من الأمكنة يمكن أن يتحصن به الإنسان عن الموت ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ فلا يمتنع الموت عنكم حتى لو تحصنتم عنه في حصن حصين من البناء القوي. فإذا كان الخوف والخشية من الموت يمنعكم عن القتال، فقد استبان الأمر فيه.

وهذا أسلوب بيان وإيضاح ومعالجة لحقيقة تختلج في النفوس، فأبانها الله تبارك وتعالى، بما يجعل المؤمن في منأى عن الخوف من الأسباب التي يتوقى بها أمام قدر الله تعالى، وكذلك فإن هذا الجانب الاعتقادي من الإيمان يجعل المؤمن في طمأنينة نفسية أمام ما يواجه في الحياة من الأسباب التي يهاب ويخشى بها ومنها الموت.

ثم يبين الله تبارك وتعالى التأويل الخاطئ من المنافقين والصادين عن دين الله تعالى، والذي لا يقوله إلا مبغض للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ فهؤلاء إن ينالهم رخاء وظفر وفتح، ويصيبوا غنيمة يقولوا: ﴿هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يعني من قِبَل الله تعالى وتقديره ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ وإن تنالهم شدة من عيش وهزيمة من عدو، وجراح وألم، يقولوا لك يا محمد ﴿هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ لخطئك التدبير[١] مما يدل على قوة سوء الْخُلُق والأدب، فيصنفون الأمر بما يشاؤون. ودلالة لفظة ﴿حَسَنَةٌ﴾ تجمع وتشمل كل أمر خصب، فتشمل: السلامة والأمن والغنى والرخاء، مقابل ﴿سَيِّئَةٌ﴾ التي تعني كل جدب. فتشمل وتجمع كل ما يكرهون: كالخوف والهزيمة والأمراض والفقر. وهذا الاستيعاب المجمل من المعاني المؤتلفة في كل لفظة هو من عظيم البلاغة البيانية الكريمة، لتستوعب المراد والمقصد بأقل الكلمات، وبأجمل التراكيب الكلامية في الصياغة والدلالة والمعنى. إضافة إلى المتضادات بين اللفظتين في كلمة ﴿حَسَنَةٌ﴾ وكلمة ﴿سَيِّئَةٌ﴾

ويرد الله تعالى على هذا الاعتقاد ويصححه بقوله عَزَّ وجل ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فالحسنة والسيئة كلاهما من تقدير الله تعالى، بقضائه وقدره. وهذا يغرس في المؤمن قاعدة التوكل على الله تعالى، مع الأخذ بالأسباب، وأنه لا يُقْضَى شيء إلا بقدر الله تعالى، فيتحقق له ذلك قدراً عظيماً من الاطمئنان النفسي.

ثم يبين الله تعالى حال هؤلاء أمام ما جاءهم من البينات، ومع ذلك لا يريدون أن يفقهوا ويعملوا بشريعة الله تعالى ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ فما بال هؤلاء الذين صدر منهم هذا القول، لا يريدون أن يفهمون حقيقة ما يُخْبِرُهُم به النبي صلى الله عليه وسلم عن رَبِّه تبارك وتعالى، من أن كل ما يصيبهم من خير أو شر هو من عند الله تعالى. وقد جاء الرد عليهم بصيغة الاستفهام الذي يحمل دلالة الاستنكار ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ ليفيد

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧/٢٣٨)

التوبيخ والذم لفهمهم، وعنادهم، مع وضوح الأمر فيما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم. بما يدل على أن قولهم هذا ما هو إلا عناد، فكأنهم لم يفهموا ويفقهوا ما جاء عن الله تعالى.

ثم أوضح بين تبارك وتعالى المزيد عن أساس الحسنة والسيئة التي تصيب الإنسان، فقال عَزَّ وجل ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ وجاء في التفسير أن لهذا الخطاب أوجه متعددة: فقيل: أنه عام، وتقديره: ما أصابك أيها الإنسان، وقيل: أنه موجه للنبي صلى الله عليه وسلم، وقيل: أنه موجه للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته[1] فالخطاب يستوعب جميع تلك الأوجه، لأنها مؤتلفة، ولا تناقض بينها، بل إن تآلفها تكاملي، فحصول الحسنة بفضل من الله تعالى، لأي أحد من العباد، وهي دلالة جامعة لجميع دلالات الخير، وحصول السيئة التي هي جامعة لجميع أنواع الضرر والشرور، والتي هي بسبب ذنوب صاحبها، فوقعت بسببها المصائب. وهذه من بلاغة الخطاب في القرآن الكريم، بأنه استوعب جميع الأوجه الْمُؤْتَلِفَة التي لا تعارض بينها، فعلى أي وجه ذُكرت فهي صحيحة. سواء كان بالنظر للضمائر في الخطاب، أو في الارتباط بما بعدها، أو بما قبلها، أو لارتباطها بسبب ذكرها. والله تعالى أعلم.

ومن الفوائد التي تضمنها السياق الكريم: أن الله تبارك وتعالى ذكر كلمة ﴿ عِندِ ﴾ في قوله تعالى ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ وذكر كلمة ﴿ فَمِنَ ﴾ عندما أشار إلى السبب ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ ولعل في هذا ما يبين أن ما يتعلق بقضاء الله وقدره فكله من عند الله تعالى، وما يتعلق بالسبب، فهو سبحانه وتعالى الذي يسر أسباب حصول الحسنة، وأنه بذنوب العبد وكسبه حصلت له السيئة التي تسوؤه.

ثم بين تبارك وتعالى مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم بحدود ما كلفه ربه به. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ فيثبت اللهُ تعالى بأنه أرسل نبيه محمد صلى الله عليه وسلم للناس رسولاً. وفي دلالة ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ ما يفيد عموم الرسالة لعموم الناس، وليس مبعثه عليه الصلاة والسلام لقومه أو للعرب، بل هو لكافة الناس. ويكفي لك بذلك أيها الرسول صلى

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٨٤/٧) وابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥٧/٢)

الله عليه وسلم شهادة الله تعالى لك بالنبوة، وبصدقك وصدق الرسالة، والشهادة على ما يكون من عباده معك، من القبول أو الرفض، وبكل ما يحصل منهم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ فإن شهادة الله سبحانه وتعالى بينك وبينهم كافية في المحاسبة والتدبير والجزاء، فهو عالم بما تُبَلِّغُهُم به، وبما يَرُدُّون عليك به. فمن كان الله تعالى شاهداً له، فما ضره مَن لم يشهد له من المخلوقين. وفي هذا تزكية من الله تعالى لرسوله وما أُرسل به صلى الله عليه وسلم. كما أن في هذا تسلية وتزكية للنبي صلى الله عليه وسلم ممن ينسبون السيئة له عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وكذلك فيه رد عليهم، وتكذيب لهم، ولِمَا قالوا: وهو ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

يخاطب ويبين الله تبارك وتعالى لعباده، ما هو مطلوب منهم حيال رسوله صلى الله عليه وسلم، فيقول عَزَّ وجل ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ فإن مَن أطاع النبي صلى الله عليه وسلم فقد أطاع الله تبارك وتعالى، ومن عصاه فقد عصى الله عَزَّ وجل. وهذا يفيد أن طاعة النبي صلى الله عليه وسلم واجبة، لأن من أطاع النبي صلى الله عليه وسلم فقد أطاع الله تبارك وتعالى، ومن عصاه فقد عصى الله عَزَّ وجل. ثم إن في هذا البيان من الله تعالى: تزكية للرسول صلى الله عليه وسلم فيما يأمر به وينهى عنه، بأنه في ذلك وفق مُراد الله تعالى، فلا يتجاوزه ولا يُقَصِّرُ فيه. وفي هذا بيان وتأكيد وتصحيح لمن يفرق بين

الله تعالى ورسوله في التشريع والاتباع والانقياد والطاعة، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يُشَرِّع من عنده، وإنما بما يأمره الله تعالى، فهو الأمين على وحيه.

ثم بين الحق جَلَّ شأنه العلاقة والمسؤولية بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين من أعرض عن السمع والطاعة ﴿ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾ فمن تولى وأعرض عن السمع والطاعة ﴿ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾ فلم تكن من واجباتك وما كلفناك به أن تحفظ عليهم أعمالهم، فلست مكلف بحراستهم ومحاسبتهم. مما يبين محدودية المسؤولية للرسول صلى الله عليه وسلم، بأن ليس عليه إلا هداية البيان والدلالة على مراد الله تعالى، والحث على ذلك، وأما هداية التوفيق فليس مُوكل بها، وبالتالي لم يكلفه الله تعالى بوجوب هداية من أعرض وتولى، كما أنه لم يُكَلَّف بما لا يطيق من الهيمنة وحفظ أعمال من أعرض وتولى، وأن يُحاسبهم عليها.

ومن فوائد دلالة كلمة ﴿ تَوَلَّىٰ ﴾ أنها تعني الإعراض والترك، سواء كان بالجسم، أو بعدم الإصغاء، أو بعدم الإئتمار، وهذا يفيد أن من أعرض بعدم الإصغاء فقد تولى، ومن أعرض بعدم الامتثال فقد تولى، ومن أعرض بهيئته فقد تولى، مما يفيد أن الطاعة تتضمن الإقبال والإصغاء والامتثال، وهي ضد التولي وأجزائه وأحواله، فيجب أن يُصغي، ويأتمر، ويُقبل بهيئته، وبكل ما تعنيه دلالات الطاعة العملية والقلبية والقولية، وسواء كان ذلك في الأمر أو النهي.

ثم يبين الله تعالى حال المنافقين تجاه الطاعة، وطريقتهم في التولي ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ ﴾ فيقولون للنبي صلى الله عليه وسلم: أمرك طاعة، أو سمعاً وطاعة. وإذا خرجوا خالفت طائفةُ منهم وبدَّلَت ذلك ﴿ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُ ﴾ فإذا خرجوا من عند النبي صلى الله عليه وسلم بَدَّلُوا قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما عهد إليهم وأمرهم به، وبالتالي فإن كلامهم من السمع والطاعة غير الذي تقوله الطائفة عندك. ومن الفوائد: أن جميعهم قالوا: طاعة ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ ﴾ ولكن طائفة بيتت، أي بدلت، وليسوا جميعاً ﴿ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُ ﴾ فالجميع قالوا: أمرك طاعة، ولكن طائفة منهم بدلت. وهذا من دقة الخطاب الإلهي سبحانه وتعالى. مما يفيد أن القول والتظاهر بالطاعة لا يفيد المرء شيئاً، ما لم يأتمر

ويمتثل بدلالات الطاعة الكاملة. فإنهم لم يستفيدوا من قولهم ﴿طَاعَةٌ﴾ لأنهم خالفوه بما بيتوا. فالعبرة ليست بالموافقة اللفظية دون الموافقة القلبية والعملية، فلا بد من الموافقة الملتزمة بالطاعة قولاً وعملاً.

وفي هذا الأسلوب منهم ما يفيد ضعفهم، وعدم قدرتهم على المواجهة الصريحة، إلى درجة أنهم يقولون ذلك إذا برزوا، وهو الظهور التام من عند النبي صلى الله عليه وسلم، بحيث يضمنون الخلوة التامة. كما قال تعالى ﴿فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ﴾ مما يدل على الخروج التام، الذي هو النأي والتباعد عن النبي صلى الله عليه وسلم، كما أن دلالة لفظة ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ﴾ تدل على أنه اتفاق في السر، ومُضْمَرٌ بينهم، وأنه كان خفية، لأن كلمة ﴿بَيَّتَ﴾ تعني فعل الشيء ليلاً، بما يدل على الإصرار والكتمان والتكتم عليه.

ثم بين الحق جَلَّا في عُلاه إثباته لِمَا يُبيتُون في صحائفهم ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ فإن الله تعالى يثبت في صحائف أعمالهم: ما يقولون ويُبَيتُون ويضمرون ويتكتمون عليه من التزوير، والكذب، وإخفاء ما سمعوا، واستبداله بغير ما قالوا به للنبي صلى الله عليه وسلم من السمع والطاعة. وفي هذا وعيد وتحذير لهم، من أن يعتقدوا أن ما يُبطِنُون يُغني عنهم وينجيهم. وفي هذا بيان وتوضيح لأساليبهم الماكرة بأدق الوصف والتحليل، وبأقلّ الألفاظ، وأكثرها معناً وبياناً، مما يدل على البلاغة البيانية العظيمة لآيات القرآن العظيم.

ثم أوضح وبين تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم منهجية التعامل معهم بثلاثة قواعد: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ فالقاعدة الأولى: الإعراض ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ فاتركهم واحلم عليهم، ولا تؤاخذهم، ولا تكشف أمورهم للناس، ولا تخف منهم أيضاً[١] وكذلك يحمل معنى: أن لا تخبر بأسمائهم[٢] والقاعدة الثانية: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ اعتمد على الله تعالى في

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٤١/١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٨٧/٥)

أن يكفيك معرتهم، وينتقم لك منهم[١] والقاعدة الثالثة: بيان صفة الوكالة ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ فكفالة الله عَزَّ وجل كفالة كافية وافية. وأن كفيلك ذو سلطان وقدرة متناهية سبحانه وتعالى، فيكفيك إياهم من كل وجه، وعلى كل حال.

وهذه القواعد: هي قواعد عملية واعتقادية عظيمة لحياة المسلم في الشؤون الاجتماعية والمهنية، والإدارية، والأسرية وغيرها. فقاعدة الإعراض: تكون في مواجهة من يكون مسلكهم في التعامل مسلك النفاق، فيتنبه لهم ولمكرهم، ويتيقظ منهم، وفي نفس الوقت يحلم عليهم فيتركهم، ولا يؤاخذهم، ولا يكشف أمورهم للناس، ليتقي شرهم، ويكون في حذر منهم. وأما قاعدة التوكل على الله تعالى: فتكون في الانتصار بالله تعالى، والالتجاء إليه، والاكتفاء به سبحانه وتعالى، فيعتمد على الله تعالى بأن يكفيه معرتهم، ومكرهم وخذلانهم. وبما يفيد أن الله تعالى حسيب من يتوكل عليه، فهو يكفيه كفاية عظيمة. كما قال تعالى في سورة الطلاق ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ أي: كافيه.

ثم يأتي لفت الانتباه إلى الإعجاز القرآني الكريم، بصيغة السؤال الاستنكاري التعجبي من فعل هؤلاء وغيرهم من الصادين والمستكبرين والجاحدين والمعاندين لدين الله تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ فبدأت الآية الكريمة بسؤال استنكاري تعجبي، من انصراف عقولهم عن تدبر القرآن الكريم، والتأمل والتفكر فيه ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ إذ لو تدبروه لتحقق لهم الإيمان. فكان المقام مقام توبيخ لعدم تأملهم لكتاب الله تعالى، الذي فيه ما يُوجِب الإذعان له، والتصديق به، وبمن جاء به، وبمن نزل من عنده العليم الخبير الحكيم. فلا أحد من الخلائق يستطيع ويَقْدِرُ على شيء منه.

ومن الفوائد اللغوية من حيث الأسلوب، جملة ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ تفيد الإنكار، وهو إنكار عدم تدبرهم للقرآن، إذ لو تدبروه لتحقق لهم الإيمان. والفاء للعطف على مُقَدَّر: أي:

---

(١) الزمخشري، الكشاف (١/٥٥٢)

أيعرضون عن القرآن فلا يتدبرونه. ويفيد وجوب التدبر للقرآن ليعرف معناه، إذ لو تدبروه حق تدبره لوجدوه مؤتلفاً غير مختلف، وأنه صحيح المعاني، قوي المباني، بالغاً في البلاغة إلى أعلى درجاتها[١] وأنه لا يمكن أن يكون من عند غير الله تعالى، لإعجازه الظاهر من كل وجه.

وفي قوله تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ دليل على أن تدبر القرآن الكريم حُجة كافية عليهم وعلى غيرهم إلى أن تقوم الساعة، من أن هذا دين الله تعالى، وأن الْمُرْسَل به هو رسول الله صلى الله عليه وسلم. مما يفيد كذلك أهمية التأمل والتدبر في كتاب الله تعالى، فإنه هداية واضحة وكافية، وحجة باقية وقائمة على كل من يسمعه. فهو قاطع لمعذرتهم ولكل معتذر. ويدل هذا على أن القرآن الكريم مُعجز، وأنه آية من آيات الله تعالى الواضحة البينة المبينة، في دلالاته وتشريعه، وفي نظمه وبلاغته، وغاياته، وأهدافه.

وكذلك تضمن قوله تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ أسلوباً استنكارياً تعجبي، بما يفيد الذهول عن غياب العقول عن الحجة الناطقة، بما يفيد أن في القرآن الكريم مضامين متعددة ومتنوعة في الإعجاز، ومبهرة لمن تأملها، فمن ذلك كشف ما كانوا يبيتون من الأمر الذي خالف إقرارهم بالطاعة للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ ففي كشف حقيقتهم وواقع ما أسروا به دليل على صدق هذا القرآن، وأنه من لدن رب العالمين، وأنه حجة قائمة عليهم وعلى غيرهم. كما أنهم لو تأملوا مقاصده، وتأملوا أحكامه، لكان كافياً لهم على أن هذا ليس إلا من عند الله تعالى، لأن تشريعه وأهدافه ومقاصده متضمنة لجوامع الخير في النفس وللمجتمع، وصارفة لهم عن الشر، وأن في أحكامه دقة وتناسقاً من غير تناقض بينها، ولو تأملوا آيات القرآن في بلاغته وجمال تراكيبه، ومحاسن ألفاظه، لأبهرهم ذلك، فلا تجد فيه ما هو من حال المخلوق في النظم والبيان، من قوة في نص، وضعف في آخر، لكنه نسق معجز لا تتفاوت حلاوته وقوة بيانه وبلاغة مضمونه.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤٩١/١)

ثم ينتقل السياق القرآني العظيم إلى لفت الانتباه للإعجاز الآخر، وهو المضمون العظيم للقرآن الكريم ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ فنفت الآية الكريمة أن يكون في القرآن الكريم أي نوع من الاختلاف والتناقض، بدليل التكامل والتناسق بين مضمونه، وانتفاء التعارض والتضارب بين آياته، بما يفيد التحدي لهم من أن يجدوا شيئاً من ذلك الاختلاف، الذي هو حال المخلوق فيما يقول ويكتب، من تفاوت النسق وتفاوت قوة والبيان وبلاغته، وجدية الخبر وصحته، ومطابقته للواقع، وسلامته من المعارض، حالاً ومستقبلاً، لأن ما من متكلم إلا ويتضمن كلامه تبايناً واختلافاً في النسق، وفي القوة والتجانس، وفي البيان وبلاغته، وغير ذلك من التفاوت. وهذا التحدي هو في حَدِّ ذاته إعجاز بياني إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها. فانتفاء عجز المخلوقين في بيانهم عن مماثلة القرآن العظيم دليل حصر وقصر على أن القرآن العظيم هو كلام الله تعالى.

ثم ينكر الله تعالى على الذين يُبادرون بالإعلام عن شؤون المسلمين دون الرجوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أو لأولي العلم والنُهى ممن لهم علم ودراية ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فابتدأت الآية الكريمة بحال تصرف من يذيع الخبر، دون أن يدرك الفرق بين ما يمكن أن يُذاع، وما يجب أن يُسَرّ ولا يذاع. وسواء كان هذا المُذَاع نصراً يتحقق به الأمن والرخاء، أو هزيمة يتحقق بها الخوف والذعر ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها، فيخبر بها، ويفشيها، وينشرها، وقد لايكون لها صحة[١] ويدخل في هذا كل ما يتحقق به الأمن، أو يحصل به الخوف من أمور المسلمين، أو ما يمكن أن يُعْزَم عليه مما يحقق الرخاء والأمن، أو يُخاف أن يحصل به الخوف والذعر.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٤٢/١)

ودلالة ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾ تعني الإفشاء والإظهار، مما يبين أن ليس كل ما يعلمه الإنسان يذيعه ويخبر به، بل يجب أن يتأنى، وأن يجعل مصدر البيان ممن له حق الإخبار والإعلام. حيث جاء السياق القرآني الكريم منكراً على من يبادرون إلى إفشاء الأمور والإعلام عنها. وهذا يفيد أن ليس كل ما يُذاع من الأخبار تتحقق به مصلحة المسلمين، بل إن بعض الإفشاء فيه شر على المسلمين. مما يوجب على المسلم ألا يبادر بإذاعة ما قد يحصل به الشر على المسلمين. وإذا مُدَّ مساحة سلطان هذا الأمر إلى أجزاء حياة المجتمع، كان نظاماً وقائياً للمجتمع في مجالاته ومستوياته المختلفة: الأسرية، والمهنية، والإدارية، والاقتصادية، والعلاقات البينية في الصداقات وغيرها، بما يُتيح لصاحب الشأن تقدير ما يمكن أن يُقال، وما يلزم من الإسرار والكتمان، وعدم الإظهار والبيان، إذ أن صاحب الشأن هو أولى بالأمر من غيره. فإن الله تعالى أكد منهجية الصواب وبينها في قوله عَزَّ وجل ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ فلوا أرجعوا شأن الإخبار إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لكان هو الصواب، وكذلك لو أرجعوه لأولي الأمر من العلماء والأمراء، والمعنيين بالأمر، كأمراء السرايا، والولاة عليهم، وأهل العقول الراجحة لكان هو الصواب، لما لديهم من العلم والفهم ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ فهؤلاء يستخرجون ويستنبطون ما يمكن أن يُقال ويذاع، وما يجب كتمانه وعدم إظهاره البتة.

وهذا يفيد أهمية إعادة الأمور لأولي الأمر ممن حباهم الله تعالى القدرة على الفهم لمغبة الأمور، ومالاتها، وما يمكن أن يكون من ردة الإظهار والإعلام للأخبار. كما أن محتوى النص القرآني الكريم استوعب ما يمكن أن يكون بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم في الأمور الاجتهادية، أو أثناء ما يكون في مثل السرايا التي تكون بعيدة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك بإحالة الأمر لأولي الأمر ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ وهذا توجيه استباقي، يؤكد أن هذا القرآن من عند الله تعالى، إذ كيف استوفى أوجه الحالات التي لا يكون النبي فيها عليه الصلاة والسلام، بعد وفاته، وأثناء حياته حال عدم وجوده مع أصحابه صلى الله عليه وسلم.

ثم يبين تبارك وتعالى لطفه وامتنانه ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ فلولا تفضل الله تعالى عليكم بإرسال رسوله وإنزال كتابه، وإرشادكم للحق لحصل لكم اتباع الشيطان بكفركم إلا قليلاً منكم، أو بمعنى إلا في بعض الأحوال القليلة التي يمكن أن يدركها القليل.

فمن الأوجه البلاغية قوله تعالى ﴿إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ أنها استوعبت دلالات متعددة مُتآلفة، غير متضاربة، فقد نقل ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أنه في معنى الاستثناء، ثلاثة أقوال: أحدهما أنه راجع للإذاعة، وتقديره: أذاعوا به إلا قليلا. والثاني: راجع للمستنبطين، فتقديره: لعلمه الذين يستنبطونه منهم إلا قليلاً. والثالث: أنه راجع لاتباع الشيطان، وتقديره: لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً منكم[1] ودلالة أخرى متعلقة بأحوال متابعة الشيطان: وتقديره: لاتبعتم الشيطان إلا في القليل من الأحوال. بمعنى: متابعة الشيطان في غالب أحوالكم إلا القليل منها، التي تدركونها بنعمة العقول والتجربة التي أنعم الله تعالى بها على الإنسان.

ثم يخاطب الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم في أمر التكليف بالجهاد ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴾ فيأمر الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بمباشرة القتال بنفسه ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَ ﴾ وفي هذا ما يفيد أن القائد قدوة وأسوة يتمثل به غيره، بل ويُعتبر فعله محفزاً ومشجعاً لمن معه على الاقتداء به، والتأسي بفعله. وفيما يخص غيره صلى الله عليه وسلم من الصحابة الكرام، فيحثهم ويحضهم ﴿وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يقول الإمام القرطبي رحمه الله تعالى:عن معنى ودلالة الآية الكريمة: أن الفاء في قوله تعالى ﴿فَقَٰتِلۡ﴾ متعلقة بقوله تعالى ﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ أي: من أجل هذا فقاتل. وقيل هي متعلقة بقوله تعالى ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كأن هذا المعنى: لا تدع جهاد العدو

---

[1] ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٦٢/٢)

والاستنصار عليهم للمستضعفين من المؤمنين، ولو كنت وحدك، لأن الله تعالى وعده بالنصر. فالمعنى والله أعلم: أنه خطاب له في اللفظ، وهو مثال ما يُقال لكل واحد في خاصة نفسه، أي أنت يا محمد وكل واحد من أمتك[١]

وهذا يفيد أن مبادرة القائد دعم لأعوانه فيما يريد إنجازه، وكذلك مزيد تثبيت وتشجيع، وحث لهم نحو ما يهدف إلى تحقيقه وإبرامه، وأن يستحثهم بالقول بعد أن حثهم بالقدوة والامتثال، لأن الله تبارك وتعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بتحريض المؤمنين بعد أن أمره بتكليف نفسه ولو كان وحده صلى الله عليه وسلم ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم يقول عَزَّ وجل ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهذا وعد من الله تعالى أن يكف بأسباب الجهاد صولة العدو، وشدتهم وشرهم، وجاء بصيغة الاطماع. فكلمة ﴿عَسَى﴾ تفيد الاطماع والإشفاق، والاطماع من الله عَزَّ وجل واجب[٢] ففي ذلك اطماع للمؤمنين بكف بأس الذين كفروا عنهم، والاطماع من الله تعالى واجب، فهو وعد منه سبحانه وتعالى، ووعده كائن لا محالة[٣]

ثم بين تبارك وتعالى قوته وقدرته ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ فإن ربكم أشد صولة، وأعظم سلطاناً، وأقدر بأساً على ما يريده، وكذلك ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ أي عقوبة. وفي هذا تجسير لقلوب المؤمنين على مقاتلة العدو، لأن القوي والأقوى هو الله تبارك وتعالى، وأن النصر وشدة البأس من عنده عَزَّ وجل. ومن كان ناصره الأقوى والأشد بأساً وعقوبة، فلا يزيد ذلك المؤمنين إلا توكلاً وقوة وشجاعة.

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَاۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٨٩/٥)

(٢) المرجع السابق (١٨٩/٥)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (٤٩٢/١)

كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾ ﴾

انتقل السياق القرآني الكريم من قضية الجهاد والقتال إلى قضية اجتماعية، ليتدرج بعدها إلى ما يتعلق بالمنافقين والتعامل معهم، كجزء من المجتمع في المدينة. وفي أسلوب هذا الانتقال ثم العودة استثارة لذهن المتلقي، من خلال طرح أمر مهم ينقله عَمَّا هو فيه، فَيُحدِثُ له النشاط والتشويق الذهني، وهو أسلوب في غاية التشويق والدقة، من حيث التوقيت، ومن حيث النوع، وأسلوب العرض. فتبين الآية الأولى والثانية منهجية العلاقات الاجتماعية، التي يتحقق بها التآلف، وتتحقق بها المصالح والتناصر، وقضاء الحوائج، وهي من قواعد الشريعة القراء، التي تثبت أن هذا الدين هو دين تآلف وتعاون وتكاتف، ودين خير في منهجه وأهدافه وأساليبه وبيانه، فبينت الآية الأولى ضابطين للشفاعة، وهما: ضابط الحسنة ﴿شَفَٰعَةً حَسَنَةً ﴾ وضابط السيئة ﴿شَفَٰعَةً سَيِّئَةً ﴾ وهي شفاعة الناس فيما بينهم لقضاء حوائجهم، وهي السعي بما يملك الشافع من الجاه أو المعرفة أو القدرة على إيصال نفع أو دفع ضر عن المشفوع له. وجملة ﴿شَفَٰعَةً حَسَنَةً ﴾ استجمعت كل محمود مرغوب، وانتفى بها كل مذموم، وهذه من الدقة البيانية للقرآن الكريم في اختيار اللفظ الذي يستجمع المجموع الكلي من المحتوى المقصود، فلا يغيب وينفرد منه شيء أبداً. حتى أن أهل العلم تفرعوا في دلالتها. فقيل كما جاء عند الإمام القرطبي، أنها: في البر والطاعة، والإصلاح بين الناس، وأنها الدعاء للمسلمين، وقيل من يشفع لصاحبه في الجهاد، وأجمع الأقوال هو: أن الحسنة ما يجوز في الدين. كما أن جملة ﴿شَفَٰعَةً سَيِّئَةً ﴾ استجمعت واستوفت كل مذموم مكروه من مضمون الشفاعة، فقيل هي: إلحاق الضرر، وأنها التي تكون في المعاصي، والسعي بالنميمة والغيبة، والدعاء على المسلمين، وأنها التي تكون في الباطل، وأجمع الأقوال: أنها فيما لا يجوز في الدين[1] وهذا الاستيعاب لهذه الدلالات من كمال البلاغة البيانية للقرآن الكريم. فحتى الدعاء هو نوع من شفاعة المخلوق للمخلوق عند الخالق.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩٠/٥)

وقد حث المنهج الإسلامي القرآني الكريم على الاهتمام والقيام بالشفاعة الحسنة من خلال الإثابة العظيمة للشافع ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ فللشافع نصيب، والله يعلم بهذا النصيب من الخير، مما يفيد الترغيب في فعل الشفاعة، كما جاء التحذير من شفاعة السوء بالعقوبة المترتبة عليها ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ﴾ فللشافع نصيب، لما يترتب عليها من الشر. وفي هذا ما يفيد التحذير والنهي عن إعانة الغير على الظلم، والشفاعة له بما لا يستحقه، أو بما يعينه على ما لا يجوز له، أو بعموم ما لا يجوز في الدين، ومن ذلك الشفاعة للغير بما يفوت على الآخر حقاً وحظاً ونصيباً.

ثم جاء الترغيب والتحذير بقدرة الله تعالى وصفاته العظيمة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾ فإن قدرة الله تعالى واقتداره على كل شيء، وليس على شيء دون شيء، وهي قدرة أحاطت بكل شيء، من غير استثناء، وفي دلالة ﴿مُّقِيتًا ﴾ أي: الرزاق. هو استيعاب واحتواء لمعنى القدرة، والحفظ، والشهيد، والحسيب، والرقيب والدائم، والمعطي للقوت[1] أي: الرزاق. وجميع هذه الصفات تستحث المؤمن على الشفاعة الحسنة، وتحذر من الشفاعة الباطلة السيئة.

والمنهجية الثانية في العلاقات الاجتماعية، هي التحية بين المسلمين ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ وهي اللفظ الصادر من أحد المتلاقيين، على وجه الإكرام والدعاء، وما يقترن بذلك اللفظ من البشاشة ونحوها[2] والمعنى إذا سلم عليكم المسلم، فردوا عليه بأفضل مما سلم، أو ردوا عليه بمثل ما سلم. فالزيادة مندوبة، والمماثلة مفروضة[3] وفي الحديث عن أبي هريرة رضي لله عنه، قال: أن رجلاً مر على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو في مجلس، فقال: السلام عليكم. فقال (عشر حسنات) فمر رجلٌ آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله. فقال (عشرون حسنة) فمر رجل آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فقال (ثلاثون حسنة)

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٦٤/٢)
(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣٧٩/١)
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٤٤/١)

فقام رجل من المجلس ولم يسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما أوشك ما نسي صاحبكم. إذا جاء أحدكم المجلس فليسلم. فإن بدا له أن يجلس فليجلس، وإذا قام فليسلم، ما الأولى بأحق من الآخرة)[١] ومن حق المسلم على المسلم أن إذا لقيه سلم عليه، ويسلم الماشي على القاعد، والراكب على القاعد، والماشي على الراكب، ويسلم القليل على الكثير، ويسلم الصغير على الكبير[٢]

وخُتمت الآية الكريمة بما يدفع المؤمن نحو المبادرة برد السلام على وجه الكمال، ابتغاء الثواب، حيث قال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾ فإن الله تعالى حفيظ، محاسب ومجازي، فيحفظ على العباد أعمالهم، ويحاسبهم عليها بما يستحقون. وفي هذا إثارة الدوافع نحو الخير، بما يبين أهمية الإثابة، وأهمية المحاسبة، فالإثابة على فعل الخير، والجزاء على التقصير عن فعل ما يلزم ويجب، وهذا المنهج الرباني يستثير ويحفز المسلم إلى الاستجابة للمطلوب، والبعد عن المحذور، بما يجعل المسلم حسيب نفسه، رجاءً وخوفاً من الله تعالى.

وفي دلالة ﴿بِأَحۡسَنَ﴾ ما يدل على الندب للكمال، وأن يُبادر الْمُتَفَضَّل عليه بأفضل مما بادر به المتفضِّل من الخير، وأهمية المبالغة في المكافأة، وأهمية الإحسان، وأن المنهج الإسلامي يبني في أتباعه الخير، وفعله مع الحرص عليه.

كما يبين هذا النهج الرباني أن الإسلام يولي الأخلاق والآداب عناية كبيرة وجليلة، وبما يحقق الترابط الاجتماعي، ويؤسس له أُسسه وقواعده، وينهى عن التفكك والتباغض، بل وينهى عَمَّا يؤدي إلى ذلك.

ثم يبين الله تبارك وتعالى الْمَرْجَعَ والمآل ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ فابتدأت الآية الكريمة بتقرير وحدانية الله سبحانه وتعالى ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كما تضمنت الآية العظيمة خبراً وقسماً، بأنه تبارك وتعالى سيجمع الأولين والآخرين ليوم القيامة، حيث يقوم الناس لرب العالمين. فتصدرلام القسم فعل الجمع

(١) البخاري، الأدب المفرد. برقم (٩٨٩)

(٢) المرجع السابق برقم (٩٩٤، ٩٩٥، ٤٥٤، ٤٥٥)

﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ ﴾ وفي هذا الخبر مع القسم إيحاء للنفس بأنه صدق لا مراء ولا جدال فيه، لينتفي جنس الشك من وقوعه. فيعالج بهذا الأسلوب الشك والريب ممن في قلبه ارتياب من البعث بعد الموت، وذلك بالقسم وبتحقق الوقوع من خلال نفي الريب والشك ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ثم تأكيد ذلك بإثبات صدق البيان من خلال إثبات علو المصدر، مع حصر أعلى درجات الصدق في ذاته العظيمة سبحانه وتعالى ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ فليس هناك أصدق من ربكم أيها الناس. وفي هذا ما يفيد تمجيد عظمة الله تعالى وقدرته، مع البيان والتخويف الذي تستدفع به النفس الشك، ويتحقق به الإيمان، ثم يتحقق به صلاح الاعتقاد والسلوك والعمل.

كما أن في هذا تحذير من مخالفة أوامره جَلّ جلاله، والتعدي على نواهيه. وفي قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ استفهام استنكاري من أن يكون في ذهن الْمُخَاطَب أحدٌ أصدق من الله تبارك وتعالى فيما يُخبر ويبين. وهو تقريري كذلك: يفيد حصر ثبات الصدق في كلام الله تعالى، وأن ليس من الله تعالى إلا الصدق، فيستحيل في حقه سبحانه وتعالى غير الصدق، لأن المخلوقين يجوز عليهم غير الصدق، كما أن كماله وكمال قدرته وملكه سبحانه وتعالى لا تستوجب الكذب. وبالتالي فلسان حال المؤمن يقول: لا أحد أصدق من الله تعالى قطعاً البتة. وبالرغم من أن الآية نزلت في حق الشاكّين إلا أن مضمون سياقها عام، لتكون منهج علم وتعليم ومعالجة.

﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءًۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ

﴿وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾

ويتجدد انتقال وعودة السياق القرآني الكريم إلى حال المنافقين، بما يستثير الذهن، ويتجدد به العلم، وينشط له الفؤاد. فبعد الفاصل المتعلق بالشفاعة وأمر التحية، يعود الخطاب القرآني الكريم إلى المنافقين ومنهج التعامل معهم، فيقول تعالى ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ ابتدأت الآية الكريمة بالاستفهام الإنكاري للتعجب واللوم من انقسام المؤمنين في حال بعض المنافقين إلى فئتين، فما الذي أوجب اختلافكم في شأن المنافقين إلى فئتين؟ إلا أنه من لطف الله تعالى أن سياق الإنكار جاء لطيفاً على صيغة سؤال استنكار وتعجب، مما يفيد أهمية اللطف بين المؤمنين في التعامل الاجتماعي، فإذا كان الله الملك القوي العزيز، تبارك وتعالى يخاطب عباده المؤمنين بهذا اللطف، فكيف بما يجب على المؤمنين من التلطف فيما بينهم، حال وجود ما يستوجب الإنكار واللوم. كما يفيد هذا أهمية الاتحاد، والابتعاد عن الانقسام. فلعل في ذكر سبب النزول ما يُعطي صورة متكاملة عن الموقف. فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه: أنه رجع ناسٌ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من أُحدٍ، وكان لناس فيهم فرقتين: فريق يقول: اقتلهم، وفريق يقول: لا. فنزلت آية ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ وقال إنها طيبة تنفى الخبث، كما تنفى النار خبث الفضة.[١] وقد جاء في مسند الإمام أحمد رحمه الله قول النبي صلى الله عليه وسلم، لما نزلت هذه الآية قال: (إنها طيبة، وإنها تنفي الخبث، كما تنفي النار خبث الفضة)[٢] وهؤلاء الذين رجعوا هم المنافقون.

ثم بين الله تعالى صنيعه بالمنافقين ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ فإن الله تعالى عاقبهم فأعادهم وردهم إلى الكفر، ولحوقهم بدار الكفر، وأوقعهم في ذلك جزاءً بما كسبوا من العمل بالعصيان والمخالفة للرسول صلى الله عليه وسلم، واتباع مسلك الباطل والخذلان. قال الشوكاني رحمه الله

---

(١) البخاري، صحيح الجامع (٢١٩/٣) برقم (٤٥٨٩)

(٢) أحمد، المسند (٤٧٧/٣٥) برقم (٢١٥٩٩)

تعالى: أركسهم بسبب كسبهم، وهو لحوقهم بدار الكفر، والاستفهام للتقريع والتوبيخ، وفيه دليل على أن من أضله الله لا تنجع فيه هداية البشر[١] مما يفيد خطورة التمادي في المعصية، بما يُعَلِّم المسلم أهمية الانقياد والطاعة، والحذر من مشاقة الله ومشاقة رسوله صلى الله عليه وسلم، وإذا زلت القدم بادر سريعاً بالرجوع والاستغفار والإنابة والتوبة إلى الله تعالى، وسؤال الله تعالى الثبات. فاللهم يا مصرف القلوب صرفنا على طاعتك، وثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وارزقنا حُسن الخاتمة. مما يفيد كذلك: أن هداية البشر لا تعمل وتفعل بذاتها، إذا لم تتولاها عناية الله تبارك وتعالى بالهداية والتوفيق.

ثم يقول تبارك وتعالى ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ وهذا سؤال تقريري، من أن ليس لكم أيها المؤمنون هداية من خذله الله تعالى، فليس للإنسان في هداية غيره إلا هداية الدلالة، وأن من خذله الله تعالى فلن تجد له طريقاً ولا منهجاً تهديه به. مما يفيد أن الواجب على المسلم في هداية غيره، أن يبين له طريق الحق والخير ويدله عليه، ويسأل الله تعالى له الهداية، وأما نتيجة الدعوة للخير وتحقيق هداية التوفيق، فهذه لله تعالى. فلا تبخع نفسك على من امتنع وتمنّع. وهذه قاعدة عظيمة في الدعوة والإرشاد.

ثم بين الله تعالى علة خذلان هؤلاء المخذولين من المنافقين، وهو توغلهم في الكفر إلى درجة أنهم يريدون أن يكفر غيرهم من المؤمنين كما كفروا ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ ودلالة ﴿وَدُّواْ﴾ تفيد محبة الشيء، وتمني أن يكون ويحصل، فالمنافقون يُحبون ويتمنون أن يكفر المؤمنين، ويتساوون معهم في الكفر، مما يدل على نأيهم وبُعْدِ قُلوبهم عن الإيمان، بل وبغضهم للإيمان والإسلام وأهله، ولرسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان جزاؤهم أن أركسهم الله تعالى في الكفر، ولحوقهم بدار الكفر. فتلك عاقبة المنافقين.

وبالتالي ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ فإذا كان حالهم على هذا فلا توالُوهم. والولاية هي: النصرة، مما يقتضي الإعراض عنهم، وعدم نصرتهم أو الاستنصار بهم، ما

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤٩٥/١)

داموا كذلك حتى تتحقق منهم الهجرة الصحيحة، فتكون خالصة في سبيل الله تعالى ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهذا استثناء من منع الولاية حال هجرتهم في سبيل الله عَزَّ وجل. وهذا يفيد أن الله تبارك وتعالى يمهل للإنسان، فلعله يتوب، ولعله يرجع، وبالرغم من تلك العداوة والتمني للمؤمنين بالكفر إلا أن الله تعالى يستثني لهم طريق العودة، وهذا من رحمته تبارك وتعالى، بأنه مهما بلغ العبد من المعصية، فإنه قد يرجع ويتوب. وهذا يفيد عدم اليأس، وأهمية العدل حال التراجع للحق، وأن الأبواب إذا وصدت في حال، فإنها قد تُفتح في حال تغير الأحوال نحو الصلاح.

ثم يضع الله تبارك وتعالى للمؤمنين احتمال ل الاستمرار، ومنهجية التعامل ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ فإن أعرضوا واستمروا في إعراضهم فخذوهم أيها المؤمنون من بلادهم، أين أصبتموهم من أرض الله تعالى، ولا تتخذوا منهم خليلاً يواليكم على أموركم، ولا ناصراً ينصركم على أعدائكم، فإنهم كفار. وفي هذا تحذير لمن دافع عنهم. فإن تولوا عن الهجرة، وأظهروا الكفر، فاقتلوهم حيث وجدتموهم[١]

وفي هذا تنظيم تعاملي، للتعامل معهم على وجه الرجوع إلى الطريق الصحيح، أو الاستمرار والانكفاء على حال الكفر. ولكن تبقى أحوال أخرى، وهي في قوله تعالى ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ أي إلا الذين لجأوا وتحيزوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة، أو عقد ذمة، فاجعلوا حكمهم كحكمهم[٢] مما يدل على أهمية احترام المواثيق في الإسلام، وأنها لا تُخرم لأدنى الأسباب.

ومن دقة البيان الكريم إظهار الاحترازات التنظيمية في أوجهها المختلفة عند التعامل، بما يبن الدقة المتناهية في أحكام القرآن الكريم، وتنظيمه للأحوال والمسارات التي يمكن أن تكون. وأما الحال الأخرى من الاحتمالات التي يمكن أن يؤل إليها أمر المنافقين، فيقول الحق تبارك وتعالى

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧/٢٩١-٢٩٢)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٥٤٦)

﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ﴾ وهؤلاء قوم آخرون من المستثنين من لأمر بقتالهم، وهم الذين يأتون إلى المصاف، وقد ضاقت صدورهم من مقاتلتكم، ومبغضين أن يقاتلونكم، ولا يهون عليهم أيضاً أن يقاتلوا قومهم معكم، بل هم لا لكم ولا عليكم[1] ومن لطفه سبحانه وتعالى أن كفهم عنكم ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ﴾ وهذا يفيد أن الناصر هو الله تعالى، وأن المانع هو الحق جَلَّ جلاله، فلو شاء لسلطهم على المؤمنين، ولكن هو الذي كفهم عن المؤمنين. مما يستلزم من المؤمن الاستعانة بالله تعالى، والتوكل عليه، واستدفاع الشر بسؤاله عَزَّ وجل، والالتجاء إليه، فهو العزيز الكافي.

ثم بين سبحانه وتعالى الأمر حال اعتزالهم مقاتلة المؤمنين ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ فإن حصل منهم اعتزال قتالكم، وسالموكم، فليس لكم أن تقاتلوهم والحال كذلك. وفي هذا من عظيم الفوائد: ما شملته الآيات الكريمة من الاحترازات الدقيقة للأحوال التي يمكن أن تؤل إليها أمور المنافقين، وكذلك التنظيم المنهجي الممتلئ بالعدل والإنصاف، مما يفيد أهمية النظر في الأحوال عند التنظيم وإصدار القرار، والابتعاد عن الظلم والجور، وأهمية وضع الاحتمالات والاحترازات لمن يكلفون بالمهام الكبيرة، حتى تتبين لهم منهجية التعامل في جميع الأوجه. وكذلك احترام المواثيق.

ثم بين سبحانه وتعالى صورة أخرى لقوم آخرين ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ فهؤلاء مثل مَنْ تَقَدَّمَهُم من المنافقين إلا أن نيتهم غير نية هؤلاء، فهؤلاء قوم منافقون يُظهرون للنبي صلى الله عليه وسلم ولأصحابه الإسلام، ليأمنوا بذلك عندهم، وهم في الباطن مع أولئك ليأمنوا منهم ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ ﴾ وهؤلاء، كلما رُدُّوا إلى الاختبار،

---

(١) المرجع السابق (٥٤٦/١)

والابتلاء، رجعوا إلى الكفر ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَا﴾ والارتكاس هو الرجوع. مما يفيد أن معاداة الدين بالتلاعب النفاقي يؤدي إلى الارتكاس في فتنة الكفر، فيتحقق الخذلان. فهذا الدين لا يصمد فيه إلا أهل الإيمان، أما المنافق فسينكشف نفاقه بعدم صموده فيه، وتَحَمُّل الابتلاء في جنابه ومقامه الرفيع.

فهؤلاء الذين كلما دُعُوا إلى الشرك أجابوا، فإن لم يُظهروا لكم الاستسلام، ويُعطُوكُم زمام أمرهم، وينقادوا لكم ويصالحوكم، ويكفوا عن قتالكم فمعالجة شأنهم في قوله تبارك وتعالى ﴿فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾ فإن لم يعملوا بهذه الحقائق فاقتلوهم حيث تمكنتم منهم، وقد جعل الله تعالى لكم عليهم حجة واضحة، وسلطة تتسلطون بها عليهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾ وهذا يؤكد ويبين أن الذي يُسلط وينصر هو الله تبارك وتعالى، حيث أثبت الحق تبارك وتعالى نصره للمؤمنين وعونه لهم على الكافرين الظالمين، وقهرهم وإذلالهم، فيكون صفة التسلط ظاهرة واضحة بينة.

مما يفيد أن هذا الدين هو دين عدل، وليس دين تسلط، وهو دين حق، وليس فيه باطل، إذ يتعامل مع عدو الإسلام معاملة منصفة، إذ بين حالات الامتناع عن مقاتلتهم، وبين حالة قتلهم عند التمكن منهم.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ ﴾

ينتقل السياق القرآني الكريم من معاملة القتل والاقتتال مع العدو، إلى معاملة المسلمين مع بعضهم البعض في أمر القتل، وهو فاصل تشويقي، ذو ارتباط من حيث القتل، وإزهاق النفس، غير أنه بين المسلمين، مما يبين من حيث الأسلوب كيفية الانتقال بين الغرض والمراد في الموضوعات، بمنهجية ترابطية وتناسقية بديعة.

فقال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ فبدأت الآية الكريمة بتقرير قاعدة عظيمة، وهي ليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بأي وجه من الوجوه إلا خطأ. فلا يصح ولا يستقيم له فعل القتل إلا على وجه الخطأ. وقد ذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: إنما هو على التحريم والنهي. ثم استثنى قتل الخطأ[١] وهذا يفيد عصمة دم المسلم، وأن الأصل هو تحريم قتل المسلم لأخيه المسلم إلا فيما استثناه الله تبارك وتعالى من الخطأ، الذي لا حيلة له فيه. كما أفاد السياق القرآني الكريم تقرير الأصل الذي هو عدم التعمد من خلال الاستثناء المبني على الخطأ فقط ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ الذي يفيد تهويل عملية القتل، وخروجها عن الأصل، والتي يجب ألَّا تكون بين المؤمنين، الذين قد جمعتهم أخوة الإيمان. وهو أسلوب وعظي عظيم، يربي ويغرس في المؤمن شناعة قتل المؤمن لأخيه المؤمن، وتهويل ذلك الأمر في قلبه.

فإذا وقع قَتْلُ الخطأ فإن حالاته وأوجهه تتعدد، فعالجها القرآن الكريم بعدد تعدد أوجهها، فقال سبحانه وتعالى عن الحالة الأولى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ فمن وقع في قتل الخطأ، كان عليه أمران واجبان: أحدهما الكفارة لِمَا ارتكبه من الذنب العظيم، وهي عتق رقبة، والواجب الثاني: هو فيما بين القاتل وأهل

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥/٢٠١)

القتيل، عِوضَاً عَمَّا فاتهم من قتيلهم، وذلك بدفع الدية، إلا أن يتصدقوا بها، فيسقط الوجوب[١] وقد جاء تفصيل تحرير الرقبة المحررة والدية بما بينته السنة النبوية المطهرة، وتم تفصيله وبيانه في كتب التفسير والفقه. ولكن من الفوائد: أن في تغليظ الواجبين المترتبين على قتل الخطأ تأكيد لعظيم الجرم الذي حصل، وتعظيم لقيمة النفس المؤمنة، ووجوب حفظها، وحرمة الاعتداء عليها بالقتل، وأن العقوبة جمعت بين ما يسترضي به أهل القتيل، وبين ما يكفر به ذنب القتل الخطأ.

ومن وجه آخر فأن في التفاتة المنهج الإسلامي للرقيق ما يؤكد رحمة هذا الدين، واستثماره للأسباب المحققة لمصلحة الضعيف وحرية الإنسان. فقد تم استثمار الحدث في العناية بحرية الرقيق، وفك أسره من الرق، بما يؤكد أن هذا الدين يسعى لتحقيق حرية الإنسان بموجباتٍ ودواعٍ وأساليب تتحقق بها مصلحة الإنسان عموماً، ومصلحة الرقيق، ومصلحة القاتل، ومصلحة أهل القتيل، واستثمار الكفارات في نفع المجتمع، وكذلك من الفوائد: أهمية المواساة لأهل المصاب، وتقدير ما أصابهم من مصيبة القتل. وأن هذا الدين يحفظ على المجتمع الدماء من العبث ونزغات الشيطان والهوى من خلال العقوبات الرادعة، التي تحفظ للمجتمع أمنه واستقراره.

كما أن عقوبة الدية تسقط بالاستثناء المقيد بعفو أهل الدية عن القاتل من دفعها، فيتصدقون عليه بتنازلهم عنها ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ﴾ ومن كريم التوجيه القرآني الكريم أن جاء الحث على العفو والتنازل عن الدية، على اعتبار أنها صدقة يتصدقون بها على القاتل. فأي شيء أبلغ من هذا الحكم وهذا السياق العظيم من رب العالمين، إذ يستحثهم من خلال البيان أنها في حكم الصدقة التي يتصدقون بها، وأنها ستكون في ميزان الصدقات التي لا يُقَدَّر ثوابها إلا العزيز الرحيم الكريم. فتتجسد بها اللحمة بين الطرفين: القاتل وأهل المقتول، من خلال هذا الاستحثاث بالصدقة.

ثم تأتي الحالة والصورة الثانية من القتل: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ أي إذا كان القتيل مؤمناً، ولكن أولياؤه من الكفار، أهل حرب، فلا

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٤٧/١)

دية لهم، وعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير. والحالة الثالثة من القتل هي في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ فإن كان أولياء القتيل أهل ذمة، أو هدنة، فلهم دية قتيلهم، ويجب أيضاً على القاتل تحرير رقبة مؤمنة[١] مما يفيد أهمية المواثيق في الإسلام وأهمية الالتزام بها، وأن لهم من الحقوق ما تُوجِبُه المواثيق، وهذا يؤكد أهمية غرس هذه القيم في المجتمع المسلم، ليدرك المؤمنون أهمية ذلك، وليعرف أهل المواثيق والذمم ومن يرتبطون بعقود عمل في المجتمعات الإسلامية أن لهم حقوق وواجبات. وقد فَصَّل العلماء في أبواب الأحكام مقدار دية الكافر.

ومن تيسير منهج هذا الدين أن ندب إلى الصيام لمن لم يجد تحرير رقبة مؤمنة، ليكون بديلاً وعوضاً له عن الواجب الأول ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى عن قوله تعالى ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أي الرقبة، ولا اتسع ماله لشرائها ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ فعليه صيام شهرين متتابعين، لم يفصل بين يومين من أيام صومهما إفطار في نهار، فلو أفطر استأنف، هذا قول الجمهور، وأما الإفطار لعذر شرعي، كالحيض ونحوه، فلا يوجب الاستئناف[٢] وفي الانتقال من تحرير الرقبة المؤمنة إلى الصيام، هو من تيسير اللطيف الرحيم سبحانه وتعالى، ثم كذلك في وضع الاحترازات التي يمكن أن تواجه الْمَعْنِي بهذا الأمر، مما يفيد أن الذي دبر وأحكم هذا التنظيم الْمُحْكَم هو حكيم خبير سبحانه وتعالى، ليتحقق أنه حجة لمن تدبره وتأمل دقته، وما يمكن أن يحققه في الناس من الأمن، وأن الذي استوفى فيه دقائق الأحكام، ومعالجة الاحتمالات، وتنوع المالات التي يمكن أن تؤل بالْمَعْنِي في هذا الحكم، هو حكيم عزيز عظيم عليم.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٤٨/١)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٤٩٨/١)

ثم بين الحكيم العليم أنه شرع هذا توبة لكم ﴿ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ فقد فَعَلَ الله تعالى ذلك توبة منه. أي قبولاً لتوبتكم، وأنه تاب عليكم بإنفاذكم هذا الحكم.

ثم بين سبحانه وتعالى علمه وحكمته التي تجلت في بيان ما يمكن أن يصدر من الخطأ، وحكمته في معالجة ذلك ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ فإن ربكم أيها العباد متصف بكمال العلم والحكمة. فهو كامل العلم وكامل الحكمة، وعلمه وحكمته أزلية، فلم يزل عليماً بما يصلح خلقه من التكليف، وحكيماً فيما يقضي بينهم ويدبره ويشرعه في أمرهم.

فإن ربكم سبحانه وتعالى عليم بما كان وما يكون ويجري، وما سيكون من عموم خلقه، ومنهم الإنسان. فأفاد قوله تعالى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ شمول وكمال علمه عَزَّ وجل، بحيث لا تخفى على الله تعالى خافية سبحانه وتعالى. وكذلك ربكم حكيم فيما يأمر به، وينهى عنه. فإن أمره ونهيه عن علم وحكمة، مما يستوجب الأخذ والتمسك به. وبالتالي فإن من كان له كمال العلم، عرف ما كان وما سيكون منكم، ومن كل شيء. بما يغرس الطمأنينة من جهة، ومراقبته من جهة أخرى في السر والعلن.

وقد تضمن هذا البيان الكريم التقرير بأنه سبحانه وتعالى لا يغيب عنه شيء، فقد ورد العليم والحكيم ﴿عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ بصيغة المبالغة التي تفيد امتداد المعنى إلى أقصى غايته وكماله. كما استطلع البيان وابتدأ بحرف ﴿وَكَانَ ﴾ لإفادة: أن الله تعالى عليم حكيم منذ الأزل، فهما صفتان عظيمتان جليلتان لله عَزَّ في علاه. ومن فوائد دلالة ﴿وَكَانَ ﴾ أنها تعطي اتصال الزمن من غير انقطاع بعلمه وحكمته تبارك وتعالى، لتعطي معنى الإخبار عن الصفة الدائمة المستمرة التي لا تنقطع، سابقاً ولاحقاً.

ومن فوائد هذه الأحكام: أنها علاجية ووقائتي وإنمائية. فهي علاج لمصاب أهل القتيل، بما فرض لهم من الدية، وعلاج للقاتل بما فرض عليه من الدية ومن تحرير الرقبة، والصيام شهرين متتابعين حال العجز، ووقائي: بأن في هذه الأحكام ما يقي الناس شر القتل والتعدي، فيحفظ دماء المعصومين. والوقاية من الخطأ والتحرز منه، بالابتعاد عن أسباب وقوعه، وذلك باليقظة

والتحرز. والنمائي: بما ينميه في حس وقلب وعقل المؤمن من استشعار قيمة المؤمن، ورفع درجة الشعور والمشاعر من أن الدماء ذات عصمة عظيمة عند الله تعالى فاحترموها واحفظوها.

ثم ينتقل البيان القرآني الكريم إلى حكم قتل العمد ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ فقد تضمنت هذه الآية الكريمة وعيداً مخيفاً ومهيباً وغليظاً لمن تعمد قتل مؤمن، فقد نال جزاء الخلود في جهنم، ونال غضب الله تعالى عليه ولعنته، وهو الطرد من رحمته، ووعده بعذاب عظيم. فهذا ما يستحقه إن عاقبه الله تعالى ولم يعفو عنه. وذكر السعدي رحمه الله تعالى: أن هذا وعيداً ترجف له القلوب، وتنصدع له الأفئدة، فلم يرد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد، وله حكم أمثاله من نصوص الوعيد. فهذا الذنب العظيم، قد انتهض وحده، أن يُجَازى صاحبه بجهنم، بما فيها من العذاب العظيم، والخزي المهين، وسخط الجبار، وفوات الفوز والفلاح[١] مما يؤكد ويبين عظيم دم المؤمن، وحرمة نفسه، وأنها مصونة ومحفوظة من قتل العمد.

وذكر ابن كثير وغيره أقوال الصحابة رضي الله عنهم، وكذلك العلماء في تأويل معنى الخلود، فقد قال أبو هريرة رضي الله عنه وجماعة من السلف: هذا جزاؤه إن جازاه. والمعنى لهذه الصيغة أن هذا جزاؤه إن جوزي عليه. وكذا كل وعيد على ذنب. وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه يخرج من النار من كان في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان[٢] قال الطبري: رحمهما الله تعالى: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: معناه: ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه إن جازاه جهنم خالداً فيها. ولكنه يعفو ويتفضل على أهل الإيمان به وبرسوله صلى الله عليه وسلم، فلا يجازيهم بالخلود فيها، ولكنه تعالى ذكره، إما أن يعفو بفضله، فلا يُدخله النار، وإما أن يُدخله إياها ثم يُخرجه منها، بفضل رحمته. لِمَا سلف من وعده عباده المؤمنين في سورة الزمر ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣٨٦/١)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٥٠/١)

جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[١] قال الشوكاني رحمه الله تعالى: والحق أن باب التوبة لم يغلق دون كل عاص، بل هو مفتوح لكل من قصده، ورام الدخول منه، وإذا كان الشرك هو أعظم الذنوب وأشدها، تمحوه التوبة إلى الله تعالى، ويُقبل من صاحبه الخروج منه والدخول في باب التوبة. فكيف بما دونه من المعاصي، التي من جملتها القتل عمداً. ولكن لا بد في توبة قاتل العمد من الاعتراف بالقتل، وتسليم نفسه للقصاص إن كان واجباً، وتسليم الدية إن لم يكن القصاص واجباً.[٢]

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى نوع آخر من القتل، قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾ تعالج هذه الآية الكريمة قضية التثبت والتأكد، وأن الأحكام تُؤخذ بالظاهر لا بالبواطن الخفية، وبالرغم من أن الآية تعالج واقعة عين، قد حدثت، إلا أن سياق الآية الكريمة يُعطي المنهجية والقواعد العظيمة في الأحكام، كما أنها غزيرة العمق في الإحكام والضبط للسلوك والتصرفات، والتي تُحْكِم منهجية التعامل في خاصة الواقعة وما يماثلُها، بل وتتجاوز ذلك إلى تقعيد القواعد الفرعية في التعامل مع القضايا والأحوال المختلفة. ليكون عطاء الآية فيض من كريم العطاء الرباني سبحانه وتعالى. فتكون بهذا آية إعجاز في الأوجه المذكورة.

فابتدأت الآية الكريمة بمخاطبة المؤمنين بأسلوب النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ما يسترعي أسماعهم، ويستثيرهم نحو الاصغاء ولفت الانتباه إليه، وأن الْمُنَادَى له أمر عظيم جليل، فيستدعيهم للإصغاء، والانتباه إلى ما بعده من مضامين توجيهية،

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧/٣٥٠)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (١/٤٩٩)

مما يعطي أهمية للمضمون الْمُنَادى إليه، وما فيه من البيان والتعليم، وما يجب عليهم من الانتباه والتبين والتثبت، خاصة وأن الْمُنَادِي هو الله تبارك وتعالى.

وقد تضمن الخطاب تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ التي يلزم مضمونها الإيماني الالتزام والامتثال بما آمنتم به، فأنتم الذين صَدَّقُوا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فيما جاءكم به من ربكم، وأن هذا الإيمان الذي أنتم عليه يُلْزِمُكُم عند ضربكم في سبيل الله تعالى، أي سيركم في الأرض، في غزو أو غيره أن تتبينوا، وتتثبتوا فيما اشتبه عليكم من غيركم، وأشكل والتبس عليكم أمره، من حيث إسلامه وكفره. ذلك أن هذه الآية نزلت في قوم من المسلمين قتلوا رجلاً بعد أن سَلَّم عليهم بتحية الإسلام، فاعتقدوا أنه قالها اتقاء لهم، وأخذوا غنيمته، كما جاء في صحيح البخاري رحمه الله تعالى: قال ابن عباس: كان رجل في غنيمة له، فَلَحِقَه المسلمون، فقال: السلام عليكم، فقتلوه، وأخذوا غنيمته، فأنزل الله في ذلك إلى قوله تعالى ﴿ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[1] فعاتبهم الله تعالى على ذلك.

ومشهد الآية الكريمة قد تضمن إعادة المخطئ إلى الحقيقته التي يعتقدها، ويُبنى عليها الحكم، وهو الإيمان، فخاطب جميع المؤمنين ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ ليكون في حق من أخطأ تحذيراً وعتاباً، ولغيرهم تعليماً وإرشاداً، ثم بين الحالة التي يمكن أن يجهل فيها المسلم أمر غيره، وهي عند الضرب في الأرض ﴿ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ أي: السير فيها، وخص منها الغزو ونحوه ﴿ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ باعتبار ابتغاء العدو ابتداء، أو لِمَا قد يحصل من التقصي والتعقب للعدو، فيحصل الجهل بمن يقابله ويواجهه، فأحكم الحق تبارك وتعالى التعامل معه بالتبين والتثبت الحقيقي ﴿ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ والأمر بالتبين يفيد شدة طلب البيان والتحقق من أجل التثبت والتيقن، مما يفيد ويؤكد أن الأحكام لا تؤخذ بالبواطن الخفية، بل بالظاهر البائن.

---

(١) البخاري (٢١٩/٣) برقم (٤٥٩١)

قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: والتبين والتثبت في القتل واجب حضراً وسفراً، ولا خلاف فيه، وإنما خص السفر بالذكر لأن الحادثة التي نزلت فيها الآية وقعت في السفر[١] مما يفيد أنه يجب في الأمور غير البائنة الواضحة الفحص والتثبت والتأكد، وأن لا يبني المؤمن حكمه على البواطن الخفية، بل بالظاهر البائن. وأن هذا الدين يُحْكِمُ تصرفات المؤمنين بقواعد غاية في الدقة، التي يلزم المؤمن التحري لها، والحرص على إقامتها في شؤنه كلها، ومنها ما تضمنته الآية الكريمة. كما يفيد هذا أن التخرص للبواطن هو أمر خاطئ، وما يبنى عليه خاطئ، لأنه حُكم على خفي مجهول، وأن ما في القلوب يُوكل إلى الله تعالى.

ثم بين سبحانه وتعالى حال الواقعة وما كان يجب ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ فمن ألقى إليكم السلام، فلا تنفوا عنه الإسلام من غير إثبات ويقين. مما يفيد التعامل بالظاهر، وأما البواطن فلا يعلمها إلا الله تعالى. وهذه قاعدة عظيمة في منهجية التعامل الاجتماعي، خاصة إذا تم تطبيقها في الحياة الاجتماعية والأسرية والمهنية. ومن الفوائد كذلك اللغوية: أن السّلَم والسِّلْم والسّلام بمعنى واحد.

ثم بين تبارك وتعالى علة القتل، بابتغاء الغنيمة التي عند المقتول ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وسُمّيَ عَرَضاً، لأنه عارض زائل، غير ثابت، فهو إلى زوال، والعرض ما يحصل عليه الإنسان من الدنيا، وفي هذا تزهيد فيه، من خلال وصف حقيقة فنائه وعدم بقائه مهما كان كثيراً، ثم يتقوى هذا التزهيد بالمقارنة بما عند الله تعالى ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ فالذي تبتغونه عند الله تعالى أعظم وأكثر، فمالكم والقليل، فتقدمونه على الكثير العظيم. وفي هذا أسلوب إقناعي وتربوي عظيم، بالمقارنة بين الفاني والباقي، والقليل والكثير، والحلال والحرام. وجملة ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ اشتملت على التكثير، فليست بقليلة، ومغانم الله تبارك وتعالى ليست محصورة بحياة محددة، فرزقه ومغانمه سبحانه وتعالى شاملة لعطائه العبد في الدنيا والآخرة.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام لقرآن (٥/٣٣٧)

ثم عزز تبارك وتعالى الحث على منهج التبين والتثبت والتحقق بأمر حسي كانوا يحسونه من قبل ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ ﴾ فقد كنتم قبل ذلك مثل هذا الذي يُخفي إيمانه ويسره عن قومه، خشية على نفسه منهم. وفي هذا إعادة المخاطب إلى الصورة والوضع الذي كان عليه، ليتصور حال القتيل وحال غيره ممن هو مثله بالصورة التي كان عليها، فيكون أبلغ في بلوغ الحق وتربية النفس، وإذا امتد سلطان هذه المماثلة والمقارنة، لحالة الفقير الذي أغناه الله تعالى، والضعيف الذي مكنه الله تعالى، والطالب الذي أصبح استاذاً، والوزير الذي كان بسيطاً، استوجب ذلك منه مراعاة حالة غيره عندما كان هو كذلك، من الفقر، أو الضعف أو الحاجة. فهي دروس إيمانية شاسعة المساحة، إذا بسط المؤمن فائدة النص إلى رحاب الحياة والمعاملات والتعامل.

ثم يُذَكِّر الله تعالى المؤمنين بمعزز آخر عند المقتول ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ فإن الله تعالى هو الذي أغدق عليكم هذه النعمة من الإيمان والإسلام، والهجرة والتوبة، وما يتبع ذلك من القوة والسيادة والعزة والمنَعَة، فلم تحصلوا عليها بسبب منكم، بل هي منة من الله تعالى عليكم، وفي ذلك ما يدل على أن هذا يستوجب الشكر، ويكون ذلك بأن تتذكروا حال ما كنتم عليه، فتتذكرون حال ما هم عليه غيركم من المستضعفين من الرجال والنساء والولدان. ثم يتكرر المطلوب منهم بأسلوب الأمر ﴿ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ لتأكيد ما تقدم بالتبين والتثبت. ليدل على الوجوب وأهميته. ثم يختم الله تعالى الآية العظيمة بقوله عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ فهو خبير بأعمالكم، مما يستوجب الحذر من مخالفة أمره عَزَّ وجل، فاحفظوا أنفسكم عن مخالفة ما أُمرتُم به، ونُهِيتُم عنه.

فأفادت دلالة الخبير ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ دقة العلم بهم، فإنه يعلم شأنهم على حقيقتهم، أكثر من علمهم بأنفسهم، كما أنه خبير بما يكون ويحصل منهم، سواء كان من جهل أو نسيان أو تعمد، فإنه سبحانه وتعالى يدرك حقيقة ما يكون من العباد من كل وجه، فهو الخبير بسرائر عباده، وضمائر قلوبهم، فيحفظها عليهم سبحانه وتعالى. وخص سبحانه وتعالى أنه خبير بأعمال عباده ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ باعتبار معالجة الاتِّبَاع، ومعالجة تعاملهم، ونواياهم. وليكون بياناً لكل عباده، وتحذيراً وتهديداً لهم. وأما في شأن المؤمنين

فيكون التحذير من الذنوب والمعاصي، والبشارة لهم بعلمه الدقيق لمن أطاع، فيثيبه بما يستحق من الأجر العظيم. فيا أيها الناس إن الله تعالى بكل ما يكون منكم عليم به، فلا تخفى عليه خافية منكم، ما ظهر وما بطن منكم. لتشمل السرائر والنوايا، وما يتحدث به القلب، ولم ينطق به. مما يفيد احذروا من سيء الأعمال، وعليكم بأطيب الأعمال فإنها لا تخفى على ربكم جَلَّ جلاله.

والخبير في قوله عَزَّ وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ هو إحاطة علمه سبحانه وتعالى بظواهر الأشياء وبواطنها. وعالم بمواقع الأمور، وخفايا الأشياء. فمن كانت هذه صفاته المجيدة سبحانه وتعالى، فإنه يحصي عليكم دقائق أعمالكم، فلا يفوت منها شيء، سواء من خير أو شر، وأنكم محاسبون ومجزيون على ذلك. ففي ذلك ترغيب في عمل الصالحات مهما صغرت، وترهيب من المعاصي مهما خفيت وصغرت. والفعل ﴿كَانَ ﴾ فعل ماضي، مفاده أن صفة الخبير صفة ثابتة لله تعالى، وليست حادثة لما وقع منهم، وخاصة بهم. بل إنها صفة من صفاته الكريمة. فالحمد لله رب العالمين على فضله وهدايته، ومغفرته ورحمته.

بل إنها قاعدة تربي المؤمن على الاستقامة، فإن منعته نفسه أو مانع عن فعل خيرو هو قادر عليه، ذَكَّرها بقوله عَزَّ وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ وإن استهواه أمر حرام قال لنفسه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ وإن أراد غيره حراماً، ذكره بقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ وإن أراد غيره الامتناع عن خير مقدور عليه، دفعه وحفزه بقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ فمن صاحب هذا العلم في حياته صاحبه الخير، ومنعه عن الشر والفساد، مما يبين نعمة القرآن العظيم في كل شأن من شؤون الإنسان. فالحمد والشكر لله العلي العظيم.

ويُستفاد من قوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ تكوين قاعدة سلوكية، عظيمة النفع، تندفع بها النفس نحو الصلاح والإصلاح، في تعاملاتها مع الغير، فعندما يرفع الله تعالى عبده من الفقر إلى الغنى، فواجبه أن يهذبها بالتعامل مع غيرها من الفقراء، بأن يُقْرِع مسامعه بقوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ ﴾

وإن كان جاهلاً أو طالباً للعلم ثم مكنه الله تعالى من العلم، حتى صار عالماً، تواضع لطلابه مُتَذَكّراً لقوله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ وإن كان مرؤوساً، ثم جعله الله تعالى رئيساً، كبح تطاوله بقوله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ وهكذا في كل نعمة رفع الله تعالى بها العبد عمّا كان عليه.

﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى التحفيز للجهاد، من خلال بيان التفاضل، ودرجاته، وإيضاح المعايير الاختلافية بين من جاهد وبين من لم يجاهد، وبين القادرين القاعدين، وبين العاجزين من أولي الضرر، بأسلوب دقيق في مبناه ومعناه، فقال تعالى ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فبدأت الآية الكريمة بالتشويق المعرفي، من خلال نفي المساواة ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فنفت المساواة بين القاعدين عن الجهاد، والقائمين به. واستثنى المولى تبارك وتعالى من ذلك أولي الضرر من حالة القاعدين، وهم أهل الأعذار الذين أضرت بهم وأقعدتهم أعذارهم عن الجهاد في سبيل الله تعالى. وفي هذا استحثاث وتنشيط وتعزيز للعزائم من ثلاثة أوجه: الأول: أنه استحثاث وتنشيط للقاعدين من غير عذر عن الجهاد، حتى يأنفوا مما هم عليه، والوجه الثاني: تعزيز نفوس القائمين على الجهاد في سبيل الله تعالى بأموالهم وأنفسهم، بأنهم لا يتساوون مع غيرهم من القاعدين. والوجه الثالث: قبول واقع أولي الضرر، حتى ينتفي عن نفوسهم ما يجدون من لائمة النفس، وهذه من حكمته تبارك وتعالى ورحمته وإنصافه وعدله.

فأوجه المساواة منتفي مع من لم يجاهد من غير ضرر. ومن البلاغة القرآنية الكريمة، أنه أجمل أنواع الأعذار في كلمة واحدة ﴿أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ ليشمل ويستوعب أنواع الضرر التي لا

حصر لها، مع اختلاف الموانع التي أضرت بهم عن الجهاد في سبيله سبحانه وتعالى. وهذا أسلوب بياني عظيم في اختيار اللفظة المستوعبة للمراد، والمستوفية للمقصود نوعاً وقدراً وحجماً وقوة وأثراً.

كما أن في هذا الأسلوب المقارن معالجة سلوكية من حيث البناء، ومن حيث المعالجة، فقد اشتملت على بناء وإنماء نفوس المجاهدين، من أنهم لا يستوون مع غيرهم ممن قعد عن الجهاد، وكذلك استثارة نفوس القاعدين حتى يأنفوا من قعودهم عن الجهاد، وكذلك عالجت حال أولي الضرر، مما قد يصيبهم من الأسى واللوم على عدم مشاركتهم في الجهاد، فيكون في استثنائهم من القاعدين، ما يُعزز في نفوسهم تمنى الجهاد حال زوال الموانع.

وقد تضمن الجهاد نوعين منه: الجهاد البدني والجهاد المالي ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ﴾ وفي كلا الأمرين يحتاج الجهاد البدني والجهاد المالي مجاهدة نفسية، ومفاعلة مع الذات، لِتُقْدِم على الجهاد، وتُقَدِّم المال له كذلك.

فبعد أن جاء البيان بالمفارقة والمقارنة بين المجاهدين والقاعدين إجمالاً، جاء البيان تفصيلاً ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ﴾ فبين الحق تبارك وتعالى درجة المفاضلة بينهم، بأن المجاهدين بأموالهم وأنفسهم فاضلون على القاعدين بدرجة، ثم ما قدر هذه الدرجة؟ فقد ورد في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين مائة عام)[١] ومن رحمته وعنايته تبارك وتعالى بالمؤمنين جميعاً، أن نفى عن القاعدين ما قد يتبادر إلى الذهن من حبوط العمل، أو زوال فضلهم فيما كان منهم في غير الجهاد، أو نحوه، فقال تعالى ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ ليكون ذلك احترازاً مما قد يعتري الفهم من الخطأ، أو يعتري النفس من مشقة التفاضل، ودفعاً لليأس، وبياناً بأن لكل واحد من المجاهدين والقاعدين المثوبة ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ فوعدهما الله تعالى المثوبة، وهي الجنة. وهذا على وجه العموم لكلا النوعين، غير أن المجاهدين بأموالهم وأنفسهم يزيدون درجة، وهي مفارقة عظيمة، ليست بالقليلة. ويفيد هذا الأسلوب البياني الكريم عند التعامل الاجتماعي، المبادرة إلى نفي ما قد يمكن

(١) الترمذي، سنن الترمذي، برقم (٢٥٢٩)

أن يعترض الذهن من المفاهيم والأوهام غير الصحيحة، ليكون ذلك احترازاً لِمَا قد يصيب النفس من التبعات، كأن يُبَيِّن فوارق المتميز وغير المتميز، إلا أنه يُنَوِّه بالفضل للجميع، وزيادة المتميز عن غيره بما تميز به، لينتفي بذلك ما قد يَعْلَق بالنفس من الأوهام.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى عند قوله عَزَّ وجل ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي: الجنة والجزاء الجزيل، وفيه دلالة على أن الجهاد ليس بفرض عين، بل هو فرض على الكفاية، ثم أخبر سبحانه وتعالى بما فضلهم به من الدرجات ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ في غرف الجنان العاليات، ومغفرة الذنوب والزلات، وأحوال الرحمة والبركات، إحساناً منه وتكريماً، ولهذا قال ﴿ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[١] وتفيد دلالة ﴿ دَرَجَٰتٍ ﴾ الكثرة، غير المحصورة عدداً ونوعاً. وفي هذا الفضل والتفضيل ما يستثير ويستحث المؤمنين على الجهاد في سبيله سبحانه وتعالى. مما يفيد أن من طرق الحث على الجهاد في تربية الإسلام للمؤمنين، أن جعل التفاوت في الأجر والمنزلة والعِوَض مضماراً للتسابق إليه.

وخُتِمَت الآية الكريمة باسمين كريمين، يحملان صفة المغفرة وصفة الرحمة لله تعالى ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ فإنه منذ الأزل متصف ربكم بالمغفرة والرحمة، وأن هذا العطاء، وهذا الأسلوب في الاستحثاث هو من رحمته، وكذلك تجاوزه عن القاعدين دون أن يترتب عليه عقاب، هو فضل من مغفرته ورحمته، وفي احتساب الحسنى لهم من دلائل رحمته الكريمة. فأي كرم وإحسان ومغفرة ورحمة أبلغ من ذلك. فالحمد لله على مغفرته ورحمته.

وتضمنت المفاضلة: قدرين من الدرجة: الأولى: درجة، وهو قوله تعالى ﴿ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ﴾ ثم أعقبها الجمع للدرجات ﴿ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ فكان التفضيل بالدرجة ثم بالدرجات، وهو كما ذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: مبالغة وبيان وتأكيد، وقيل فَضَّل اللهُ المجاهدين على القاعدين من أولي الضرر

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٥٢/١)

بدرجة واحدة، وفضل الله المجاهدين على القاعدين من غير عذر درجات[١] وعلى أي وجه فهي بيان تأكيدي ومبالغة في عدد الدرجات التي لم تُقَدَّر بعدد، فلا يعلم عطاء الله تعالى وفضله ومفاضلاته إلا هو عَزَّ وجل.

وفي سياقها ما يثير الفكر ويثير التحفيز والتنافس، وعدم التراخي عن الجهاد، والطمع فيما عند الله تعالى، وأيضاً عدم اليأس لمن لم يحصل له شرف القتال والجهاد، سواء كان بعذر أو بغير عذر. وكذلك إثارة الفكر في تقليب المعاني والدلالات، ليخرج منها العالم بفيض من المعاني والأوجه التي يحتمله بناء السياق القرآني العظيم للآيات الكريمات. فقد فتقت سياقاته ومعانيه ودلالاته عقول أولي الألباب.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

يلتفت السياق القرآني الكريم في هذه الآيات الكريمات إلى الذين تعذروا بالاستضعاف

عن اللحاق بركب المؤمنين في الهجرة إلى المدينة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ يبين هذا المقطع الكريم، أن الإنسان له في ظلم نفسه مسؤولية وقُدرَةً كبيرة، بأن يفعل ما يحقق له الضرر، أو يمتنع عن فعل ما يحقق له به النجاة والفوز والخير والفلاح، فيكون بذلك قد ظلم نفسه، ولذلك يتحمل نتيجة ظلم نفسه. وجاء في الحديث: أن ناساً من المسلمين. كانوا مع المشركين

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥/٢٢١)

يُكثرون سوادَ المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم، يأتي السهمُ، يُرمى به فيصيب أحدهم فيقتله، أو يُضرَبُ فيُقتل، فأنزل الله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾[1]

فبينت الآية الكريمة بطريقة التشويق حال قبض الملائكة أرواح هؤلاء الظالمين لأنفسهم، ليبدأ السؤال من الملائكة لهم ﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡ ﴾ وهو سؤال يفيد التقريع والتوبيخ، ماذا كنتم فيه من أمركم في دينكم، فعلى أي حال كنتم. وفي هذا السؤال مع ما سبق من وصفهم بالظالمين لأنفسهم ما يدل على حجم ما وقعوا فيه من مخالفة ما جاءهم من الحق. وهو سؤال عند ختام حياتهم الدنيا، بما يبين ويفيد وقوع الحسرة. فكانت الإجابة منهم ﴿قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يعني بمكة المكرمة، وقد وقع علينا الاستضعاف والقهر والظلم، فهذا الذي كان من حالنا. فكان اعتذاراً ليس له قبول، بسبب بطلان الحجة التي احتجوا بها، فردت عليهم الملائكة ﴿قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ وهذا سؤال استفهام تقريري، بأن أرض الله تعالى واسعة، تسعكم للهجرة، فحجتكم باطلة، كما يفيد هذا أنكم قادرون على الهجرة، إذ لو لم يكونوا قادرين لَما كان هذا الأسلوب التقريري بقدرتهم على الهجرة. لأن الهجرة كانت واجبة، فمن لم يهاجر من غير عذر، فقد ارتكب محرماً. مما يفيد أن الادعاء الباطل، وتلمس الاعذار الواهية لا يُجْدِي شيئاً، وكذلك يُقاس عليه ترك المكان الذي لا يستطيع المسلم أن يقيم دينه فيه. فهناك المهاجرين الذين هاجروا إلى المدينة في سبيل هذا الدين، وتركوا أموالهم ومطارحهم، وخرجوا مهاجرين مجردين من كل متاع. ومع هذا كثرتم سواد المشركين. فعُوقِب هؤلاء ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ فإن مثواهم النار، وساء المآل الذي يسيرون إليه، وذلك لتركهم وجوب الهجرة، فارتكبوا محرماً. ثم استثنى تبارك وتعالى المستضعفين حقاً، مما يفيد أن أولئك ادَّعَوا باطلاً: بأنهم كانوا مستضعفين ﴿ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ﴾ فهؤلاء لهم الاستثناء من العذاب.

---

(١) البخاري (٣/ ٢٢٠) برقم (٤٥٩٦)

فاستثنى المولى تبارك وتعالى المستضعفين حقاً من العقوبة ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ ﴾ وفي هذا الاستثناء ما يفيد أن الله تعالى لا يؤاخذ أهل الأعذار، فهو بكل أحد عليم وخبير بحاله، ونوع تقصيره، تعدياً واستخفافاً، أو عدم قدرة واقتداراً. ولزيادة الإمعان في تعيين أصناف المستضعفين قال تعالى ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ﴾ ليكون الاستثناء مستوفياً لكامل البيان، وليزول كل تأويل أو تخصيص غير مستوفي للمستحقين. قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: والولدان، كعياش بن ربيعة، وسلمة بن هشام. وإنما ذكر الولدان مع عدم التكليف لهم، لقصد المبالغة في أمر الهجرة. وإيهام أنها تجب لو استطاعها غير المكلف، كيف من كان مكلفاً، وقيل أراد بالولدان المراهقين والمماليك[١]

ثم بين الحق تبارك وتعالى صفة وعلة المستضعفين التي أوقعتهم في الاستضعاف ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ فقد تعذرت بهم أسباب التخلص للخروج إلى المدينة ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً ﴾ فليس لهم النفقة ولا القوة، ولا الطريقة والحيلة ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ ولا يعرفون طريق المخرج الذي يسلكونه حتى يصلوا إلى المدينة. مما يفيد أن الحال قد يكون بين بعض الناس واحد، ولكن العلل مختلفة بينهم، فإن الله عَزَّ وجل يعرف علة كل عبد من عباده، فيكون ذلك معذور بعذره، بينما الآخر فإن الوجوب في حقه مُتَعين. فسبحان العليم الخبير. وهذا يفيد المسلم: بأنه يجب عليه أن يتعامل مع ربه عَزَّ وجل بعلمه له وعنه، في حاله وقدرته، وألا يحكم الإنسان على إخوانه المسلمين في تقصيرهم على ظن السوء، فلا يدري علة تقصيرهم، وما يمنعهم عن الكمال.

ثم بين سبحانه وتعالى جزاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا حيلة لهم في الهجرة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ وأفادت دلالة ﴿عَسَى ﴾ الإطماع والإشفاق، والاطماع من الله عزّ وجل يفيد التحقق، لأن وعده كائن لا محالة. وبالنسبة للمؤمن موضع طمع في مغفرة الله تعالى له، وأن يتجاوز عن تقصيره. فهو وعد من الله تعالى أن

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٥٠٥/١)

يعفوا عنهم، وهو كائن التحقق. لأن الله تعالى كما وصف نفسه في ختام الآية المباركة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ فهو الموصوف بالعفو فيرفع العقوبة عن مستحقها، ويمحو الذنوب، فمنذ الأزل صفاته العفو والمغفرة سبحانه وتعالى، فالحمد لله تعالى على عفوه ومغفرته. اللهم اعفو عنا واغفر لنا وارحمنا.

ثم بين سبحانه وتعالى حال الذين هاجروا في سبيله ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ وهذا تحريض على الهجرة، وترغيب في مفارقة المشركين، وأن المؤمن حيثما ذهب وجد عن ما يفارقه مندوحة، وملجأ يتحصن فيه، والمراغم، التحول من أرض إلى أرض، ومُتَزَحزَحَاً عَمَّا يكره، وكذلك المنع الذي يتخلص به، ويراغم به الأعداء[1] وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: مهاجراً وطريقاً، يراغم بسلوكه قومه، أي يفارقهم على رغم أنوفهم، والرغم: الذل والهوان[2] ومن الفوائد اللفظية التي يتبين فيها البراعة اللفظية في القرآن الكريم، أن دلالة وموضع كلمة ﴿مُرَٰغَمًا ﴾ استوعبت المعاني والدلالات التي يتحقق بها جميع الأوجه المقصودة، وكان ذلك في كلمة واحدة: فهي تعني: المهرب، والموضع الذي يذهب إليه للإقامة، فيكون مكان هجرته الذي فيه متسع له، عن الضيق الذي كان فيه. وأنه يتحقق للمهاجر مبتغاه، مع سعة الحال والمكان، وفي ذلك إزالة الوهم من أن مطارحه ودياره لا أفضل منها، فقد يكون في غيرها السعة، من خلال التحول من الدار التي هو فيها إلى غيرها بإذن الله تعالى، وكذلك الحصول على المنعة بالهجرة، التي تمنع العدو من التحكم فيه، وتُخَلِّصه من الاستضعاف، وكذلك يراغم به الأعداء، فيراغم بسلوكه قومه الذين يضطهدونه، أي يفارقهم على رغم أنوفهم، فَيُلْحِق بهم الذل والهوان. وهي تشمل مغالبة النفس، لأنها تتضمن التزحزح عَمَّا يحب من الأرض. وهذه من البراعة البيانية، والقوة البلاغية المتناهية.

ومن يهاجر ويكابد في سبيل الله تعالى سيجد أمرين بإذن الله تعالى: الأول: ﴿مُرَٰغَمًا كَثِيرًا ﴾ أنه سيجد ما يتحصن به، ويعينه على مراده من التحول إلى الخير والفضل والأفضل، وهو

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٥٥٥-٥٥٦)

(٢) الزمخشري، الكشاف (١/٥٧٠)

موصوف بالكثرة، فيعينه الله تعالى، وتكثر أبوابه، ويكثر به الخير. والأمر الثاني: ﴿وَسَعَةً﴾ وهو الرزق، وفُسحة الحياة بعد تضييق المشركين لهم. فينتقل من القلة إلى الكثرة، ومن التضييق إلى سعة الحياة، وذُكِرت لفظة ﴿وَسَعَةً﴾ لما تعبر عنه من دلالة الوسع، وكثرة أبواب الخير، وسعة العيش. وهو بالفعل كذلك، إذ تحقق الخير للمهاجرين الذين أغناهم الله تعالى، ووسَّعَ عليهم في مهاجرهم. وهذه قاعدة مفيدة في كل أمر يتركه المسلم لله تعالى، فإنه مخلوف من الله تعالى فيما ترك وهجر بما هو خير وأحسن نوعاً وكثرة. مما يفيد ألَّا يربط المؤمن نفسه حال الضيق بمكان تضيق فيه حياته، بل في أرض الله سعة.

ثم بينت الآية الكريمة بركة موت من يموت وهو في طريقه للهجرة ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فإن مَن خَطَى في طريق الهجرة ﴿مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ طاعة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فإن أجر الهجرة قد كُتِب له، ويتحصّل عليه من الله تعالى. وفي تخصيص الهجرة بالنية دليل على أهمية تحقق ركن الإخلاص لله تعالى، حيث قال عَزَّ مَن قائل ﴿مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: ليس لأهداف غير الإخلاص لله تعالى، ومساندت رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم خُتِمَت الآية الكريم باسمين كريمين، يحملان صفة المغفرة وصفة الرحمة لله تعالى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فإن ربكم متصف بمغفرة الذنوب وسترها، ومحوها، وأنه رحيم بعباده، فإن الله تعالى واسع المغفرة والرحمة، لمن رجع إلى لحق، وترك الباطل. وهذا من عظيم رحمته تبارك وتعالى، إذ لم يعاقبهم بحجب التوبة عنهم، بل يذكرهم ويحفزهم ويعلمهم أن من صفاته سبحانه وتعالى أنه غفور رحيم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ وكذلك رحيم بعباده ﴿رَّحِيمًا﴾ فلا يعاجلهم بالعقوبة، لعلهم يتوبون ويستغفرون، ويلتزمون بما جاءهم من الحق. وفي هذا دعوة وتحفيز وتنشيط للعقول وللقلوب بالتزام ما يأمر به الله تعالى، فإن الله تعالى يغفر الذنوب التي قد تحصل نتيجة التقصير، ويرحم عباده بالمغفرة والستر للذنوب، مما يفيد أن عليكم بالرجوع إلى الله تعالى حال تقصيركم، وتوبوا إليه، فإنه يقبل التوبة من العبد، ويرحمه برحمته ولطفه سبحانه وتعالى. مما يبين الترغيب في الطاعة، وبأن

لا يقنط الإنسان من رحمة الله تعالى مهما حصل من الذنوب والآثام. وبالقياس على ذلك نستفيد كذلك في العلاقات بين المؤمنين، أن يقبلوا من تاب إلى الله تعالى، وأن يقبلوا بعضهم بعضا، ويقبلوا المعاذير من غيرهم.

فهو لم يزل تعالى ذكره ساتراً لذنوب عباده المؤمنين، بالعفو لهم من العقوبة، ورفيقاً، ورحيماً بعباده، وفي هذا ما يدفع ويجعل المؤمن يطمع في مغفرته ورحمته سبحانه وتعالى. إذ من رحمته ومغفرته أن كتب لمن أدركته منيته وهو في طريق مهاجره إلى الله ورسوله، فقد تحقق له الأجر مستوفياً، وأنه تبارك وتعالى كفيل به ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وفي نسبة الأجر إليه عزَّ وجل، ما يدل على التشريف والتعظيم، مع عظيم الأجر وجزالته ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وفي دلالة ﴿وَقَعَ﴾ ما يفيد تحقق الأجر للمهاجر المتوفى في طريق هجرته.

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

ينتقل السياق القرآني الكريم إلى أداء الصلاة حين السفر، وهو انتقال يتناسب مع حالة وموضوع الهجرة، وموضوع الجهاد في سبيل الله تعالى ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ والضرب في الأرض هو السفر. فإذا وقع السفر لكم في أرض الله تعالى، فلا حرج في قصر الصلاة. وقد بينت السنة كيفيتها. وهذا من رحمة الله تعالى بالعباد، إذ رخص لهم، ورفع عنهم حرج قصر الصلاة، وكذلك يفيد هذا أن منهج الإسلام يتعامل مع الأسباب بما يناسبها، كالخوف من عدوان الكفار. وللعلماء تفصيل فقهي فيما يتعلق بصلاة السفر، حال الخوف وحال الأمن، وقد تناولتها كتب الفقه والتفسير.

ومن الفوائد: أن ما يغلب على الظن هو محل اعتبار، حيث نوه تبارك وتعالى بغلبة الظن ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ ومن الفوائد كذلك تقرير فتنة الكافرين للمؤمنين ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ وهو القتال، والتعرض لِمَا يكره. فاستوعبت دلالة ﴿يَفْتِنَكُمُ﴾ جميع ما يمكن منهم، مما يحصل به المكروه. ثم جاء التحذير من عداوتهم، التي تستوعب كل ما يمكن من الأذى ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ فإن عداوتهم ظاهرة بينة. وفي هذا ما يفيد الحرص والعناية من الله تعالى بالمؤمنين من عداوة عدوهم من الكافرين. وأن عداوتهم بينة واضحة ﴿عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ مما يوجب التحرز منهم. ومن الفوائد البيانية أن الله تعالى ذكر الكافرين بصيغة الجمع ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وأخبر عن عداوتهم بصيغة المفرد ﴿عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ لنستفيد من ذلك: أنهم على كثرتهم وتنوعهم إلا أن عداوتهم واحدة، هي في أمر الدين، وأنها بائنة ظاهرة.

ثم تناولت الآية التالية كيفية تغطية السرايا لبعضها البعض في صلاة الخوف ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ يخاطب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده تبعاً له عليه

الصلاة والسلام ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ قال السعدي رحمه الله تعالى: أي: إذا صليت بهم صلاة تقيمها، وتُتم ما يجب فيها ويلزم، فعلمهم ما ينبغي لك ولهم فعله. ثم فسر ذلك بقوله سبحانه وتعالى ﴿ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ ﴾ أي: وطائفة قائمة بإزاء العدو، كما يدل على ذلك ﴿ فَإِذَا سَجَدُوا۟ ﴾ أي: الذين معك، أي أكملوا صلاتهم، وعبَّر عن الصلاة بالسجود، ليدل على فضل السجود، وأنه ركن من أركانها، بل هو أعظم أركانها. ﴿ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ ﴾ وهم الطائفة الذين قاموا إزاء العدو ﴿ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ ﴾ ودل ذلك على أن الإمام يبقى بعد انصراف الطائفة الأولى منتظراً للطائفة الثانية، فإذا حضروا صلى بهم ما بقي من صلاته، ثم جلس ينتظرهم، حتى يكملوا صلاتهم. ثم يسلم بهم، وهذا أحد الوجوه في صلاة الخوف. فإنها صَحَّت عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه كثيرة، كلها جائزة. وهذه الآية تدل على أن صلاة الجماعة فرض عين. فإذا أوجبها الله تعالى في هذه الحالة الشديدة، فإيجابها حال الطمأنينة والأمن من باب أولى وأحرى[1]

ثم بين تبارك وتعالى ما يجب على الطائفة القائمة ﴿ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ فيجب عليهم أخذ الحذر والتَّوَقِّي، وما يستلزمه ذلك من الاستعداد، ووضع احتمال فرضية التوقع من جميع الأوجه، لأن جملة ﴿ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ تستوعب وتستحوذ على جميع الأساليب والطرق التي يحصل بها الاتقاء من مخادعة العدو، وهذه من الدقة في الحيطة والأخذ بالأسباب من رب الأسباب سبحانه وتعالى، مما يفيد أن هذا الدين قائم على الأخذ بالسنن الكونية التي جعلها الله تعالى مرتكزاً في حركة الحياة، مع التوكل عليه سبحانه وتعالى.

ثم بين تبارك وتعالى وجه الحكمة من أخذ السلاح مع الحذر ﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ ففي هذا كشف لِمَا يرغب ويأمل العدو من الذين كفروا حال غفلة المسلمين، فيتمنون ويتشهون أن يشتغل المسلمون بصلاتهم

---

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٣٩٦-٣٩٧)

عن أسلحتهم التي يقاتلون بها، وعن أمتعتهم التي بها بلاغهم ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةً وَٰحِدَةً﴾ فيحملون عليكم حملة مستأصلة لكم، لا تحتاج إلى ميلة ثانية، وجملة ﴿مَّيۡلَةً وَٰحِدَةً﴾ تفيد المبالغة في حرص العدو على حصول غفلة منكم، ليستأصلكم وينتهي منكم بهجمة واحدة. وفي هذا تنبيه وتحذير شديد عن الغفلة، وأهمية اليقظة والحذر، والأخذ بالأسباب.

ثم بين تبارك وتعالى كيف يكونون مع أسلحتهم حال ما يمكن أن يحدث بهم أذى من مطر أو مرض ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ فرفع الله تعالى الحرج عن المجاهد في حمل السلاح، حال المطر، وحال المرض، ولكن مع هذا يجب الحذر واليقظة التي تفوت على العدو مراده ومقصده ﴿وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ ثم بين الحق جَلَّ جلاله ما أعده للكافرين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ فقد أعد الله تعالى لهم عذاباً مُذِلاً، ومخزياً، تبلغ منه الإهانة مبلغها. وفي هذا الوعيد ما تستطيب به قلوب المؤمنين، من التنكيل بعدوهم، وإهانته بالعذاب القاسي والمهين، جراء ما يشغلهم العدو به من الأذى، وما يحصل لهم به من الجراح والقتل.

وقد سمى الله تبارك وتعالى المطر والمرض أذى ﴿إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾ وهذا تَنَزُّلٌ باعتبار أثره على إعاقتهم. وإلا فالمطر نعمة، والمرض ينفي به الله تعالى الذنوب. ولكن ليكون الوصف بما يتوافق مع واقع الحال.

ثم يرشدهم تبارك وتعالى إلى كيف يكونون بعد إتمام صلاتهم والفراغ منها ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ فقد أمر سبحانه وتعالى بأن يذكروه في جميع الأحوال التي يكون عليها المسلم: حال القيام والقعود والاضطجاع، وذلك بتعظيمه سبحانه وتعالى بالتكبير والتهليل والحمد والتسبيح، والدعاء بالنصر والظفر، فيكون ذلك بالقلب واللسان. مما يفيد أنه إذا كان هذا مطلوب من المسلم حال الجهاد والتعب والخوف والانشغال، فمن باب أولى أن يكون

ذلك هو حال المسلم في حال الرخاء، فلا يفتر عن تعظيم الله تعالى بأنواع الذكر. اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحُسن عبادتك.

ثم يأمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بأن يعودوا إلى طبيعة صلاتهم حال حصول الاطمئنان ﴿فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي فأتوها بكمال أركانها وهيئتها. ثم بين مقام وفضل الصلاة ومنزلتها ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ أي فرضاً معلوماً، وقتاً وهيئة. مما يفيد أهمية العناية بالصلاة من حيث أوقاتها، ومن حيث هيئتها، من الخشوع والطمأنينة، وقيام أركانها وواجباتها ومستحباتها، فإنها فريضة عظيمة، فقد عظمها من فرضها سبحانه وتعالى، وواجب المؤمن تعظيم ما عظم الله تبارك وتعالى. إضافة إلى ما جعل فيها من الخير العظيم.

ثم يتوجه الأمر الكريم إلى المؤمنين في حثهم على الصبر في مقارعة أعداء الدين، وتشجيعهم على ذلك بأسلوب المقارنة والمفارقة، فابتدأت الآية العظيمة بالنهي عن الضعف والتواني عن طلب العدو ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ﴾ مما يفيد: أي اجتهدوا وجِدُّوا في طلبهم، ثم نوه تبارك وتعالى عن ما يُضعف العزائم، من ألم الجراح، وألم الفقد، وألم الخوف، ليتحول إلى قوة معنوية ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ﴾ فإن كنتم تكابدون وتعانون من ألم الجرح والقتل، فإنما عدوكم كذلك، يفإنهم مُماثِلُونكم فيما تألمون منه، ومع ذلك يقاتلونكم، ويطلبونكم ويتشجعون على ذلك. فتحققت المساواة بينكم وبينهم في المعاناة، بما يفيد أنها كافية في أن لا تكونوا أقل منهم طلباً وقتالاً لهم، ثم انتقل السياق الكريم إلى بيان التميز والمفارقة ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾ بل إنكم تتميزون وتترقون عنهم بميزة عظيمة، وهي ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾ وهذه الجملة استوعبت جميع أنواع الرجاء، مما يرجوه المؤمن من الله تعالى، ونفت جميع مفردات وآحاد الرجاء عن الكافرين، فليس لهم رجاء عند الله تعالى. فأنتم ترجون من الله المثوبة، والنصر، والغنيمة، والجنة، والعون، والتثبيت، وغيرها من أنواع الرجاء، وهذه خصيصة تتميزون بها عليهم، ثم إن ربكم على الذي ترجونه منه قادر على تحقيقه، فأنتم تؤمنون به، وتجاهدون لإعلاء كلمته. وهذا يفيد المؤمن أنه أقوى من الكافر بمعية الله تعالى وفضله وكرمه.

ثم جاء ختام الآية الكريمة بما يتناسب مع حال أهل الرجاء ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ فإن ربكم عليم بما ترجون، وعليم بحالكم وحالهم، وحكيم في تدبيره، فإن ما يحصل فيكم لحكمة عظيمة، يعلمها تبارك وتعالى. فهو أعلم وأحكم فيما يقضيه من قضاء. فجميع ذلك معززات مغالبتهم للعدو.

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمًا
(١٠٥) وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ
إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ
فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلًا (١٠٩)
وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠) وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمًا
فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمًا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا
فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنًا وَإِثۡمًا مُّبِينًا (١١٢) ﴾

يعود سياق آيات القرآن الكريم إلى بيان المزيد عن حال المنافقين، وقد بدأت الآية الكريمة بتقرير امتنان الله تعالى على رسوله الكريم، بإنزال القرآن العظيم، بما يؤكد ويبين قيمة ومنزلة وعلو شأن هذا القرآن العظيم، ليكون منطلقاً لما بعده من عظيم البيان ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ ففي هذا المقطع من الآية الكريمة تشريف وتكريم وتعظيم للنبي صلى الله عليه وسلم، بأن أنزل الله العليم الحكيم عليه القرآن الكريم، الموصوف بالحق، والذي مفاده: التقرير بأن هذا القرآن نزل حقاً من عند الله تعالى، وأن مضمونه حق في أمره، وحق في نهيه وتشريعه، وأنه مصون من الله تعالى، فلا يأتيه الباطل، ولا التحريف، مما يؤكد ويفيد تقرير وجوب ولزوم الاتباع، وعدم العدول عنه،

ثم بين الله تبارك وتعالى ما يجب في الحكم به بين الناس ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ وفي هذا تقويم وتعضيد للقضاء والفصل، وتفويض النبي صلى الله عليه وسلم في الحكم والقضاء بين الناس. فيكون القرآن هو الحكم العدل للتقاضي بين الناس، ودلالة ﴿ٱلنَّاسِ﴾ تشمل الجميع، المسلم وغير المسلم، وسواء بين المسلمين، أو بين المسلم وغير المسلم، أو بين غير المسلمين فيما يحتكمون إليه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم. مما يفيد أن القرآن الكريم هو العدل، وهو المهيمن على كل من هم تحت ولاية الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم ولاية من هم بعده.

كما يفيد هذا لزوم فهم القرآن الكريم لمن يحكم بين الناس، حتى يقضي بمضمونه ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ أي بما أوحي إليك ربكم عَزَّ وجل، وبما ألهمك الله تباك وتعالى. وفي هذا تزكية للنبي صلى الله عليه وسلم في حكمه وقضائه، بأنه يكون بما أُلْهِمَ وأوحي إليه، وليس من نفسه. قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: إما بوحي، أو بما هو جار على سنن ما قد أوحى الله به، وليس المراد هنا رؤية العين، لأن الحكم لا يُرى، بل المراد بما عرَّفَه الله به، وأرشده إليه[١] وفي هذا دليل على عصمته صلى الله عليه وسلم فيما يبلغ عن الله تعالى.

ثم يأتي النهي عن المدافعة والمخاصمة عن الخائنين، من خلال مجادلة المحقين ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: في هذه الآية تشريف للنبي صلى الله عليه وسلم، وتكريم وتعظيم، وتفويض إليه، وتقويم أيضاً على الجادة في الحكم، وتأنيب على ما رُفع إليه من أمر بني أبيرق، وكانوا ثلاثة إخوة، نقبوا مشربة لرفاعة بن زيد، في الليل، وسرقوا أدرعاً وطعاماً، فعثر على ذلك، وجاء أبن أخي رفاعة واسمه قتادة بن النعمان يشكوهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم. فجاء أسير بن عروة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله إن هؤلاء عمدوا إلى أهل بيت، هم أهل صلاح ودين، فأنبوهم بالسرقة، ورموهم بها من غير بينة، وجعل يجادل عنهم، حتى غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم، على قتادة ورفاعة[٢] فلا تكن لأجل

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٥١١/١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٤٠/٥)

الخائنين مخاصماً للبراء[١] ويُفَسَّر غضب النبي صلى الله عليه وسلم، أنه بناء على ما قيل له، وليس من حيث الحقيقة، لأنه كان يقول عليه الصلاة والسلام (إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض. فمن قضيت له بحق أخيه شيئاً بقوله، فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها)[٢] وهذا النهي من الله تعالى يفيد التحذير والتعليم. وفيه تحذير لمن ترافعوا في أمر بني أبيرق. من أن تدفعهم الحمية والمناصرة أن ينفوا عن السارق سرقته، لِتُلْصَق بغيره. وفي هذا دليل على أنه لا يجوز لأحد أن يخاصم عن أحد إلا بعد أن يعلم أنه محق، مما يفيد تحريم النيابة عن الخائن بالباطل، والتوكل والترافع عنه، وكذلك تحريم الخصومة بالباطل.

وفي هذا ما يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم محفوف من ربه تبارك وتعالى بالتسديد، والتعليم، وذلك بفضح من يكذبون عليه صلى الله عليه وسلم، حتى يخافوا ويخاف غيرهم من كشف حقيقتهم. كما أن الخطاب وإن كان موجه من الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم فهو للأمة، حتى تعي ما يلزمها، وما يجب عليها، من إحقاق الحق، وعدم مناصرة الظالم على المظلوم. وليتأكد لديها الحذر من ذلك، والانتباه والتحقق من المرافعات القضائية.

ثم جاء الأمر لنبيه صلى الله عليه وسلم بالاستغفار ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ ﴾ فاطلب من الله تعالى المغفرة. ثم بين تبارك وتعالى من صفاته ما يتناسب مع المأمور به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ فإن الله لم يزل يغفر ويصفح عن ذنوب عباده المؤمنين إذا استغفروه وتابوا إليه، وأنه رحيم بهم، فيغفر لهم ويوفقهم ويسددهم. كما أن في هذا تعليم للمؤمنين، بالمنهجية التي يلزم الأخذ بها. وأما في أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالاستغفار، وهو الْمُسَدَّد من الله تعالى، والأكثر خشية وعبادة، ففيه ما يفيد: أن غيره ألزم بالاستغفار وأحوج إليه، لما يعتري الإنسان من التقصير في الطاعة، والتجاوز، ووقوع الذنب.

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٥٧٦/١)

(٢) البخاري (٢٦١/٢) برقم (٢٦٨٠)

ثم يبين الحق تبارك وتعالى منهجية التقاضي ﴿ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡ ﴾ فالمنهجية الأولى: أن لا تحاجج عن الذين يخونون أنفسهم بالمعصية، فيجعلون أنفسهم خائنة بارتكاب الخيانة، لأن معصية العصاة خيانة منهم لأنفسهم، فيظلمون أنفسهم، ولأن ضرر المعصية عائد إليهم. والمنهجية الثانية: البيان بالنهي والتحذير عن خيانة النفس، من أن ترتكب صوراً وحالات من الخيانة. كما أن في هذا النهي ما يفيد الزجر لهم، والتبغيض لفعلهم، وعظيم ما قاموا به. حتى انتفت محبة الله تعالى عمَّن هذا سلوكه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ مما يفيد بغض الله تعالى لمن كان ﴿ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ وكلمة ﴿ خَوَّانًا ﴾ من أبنية المبالغة، فهي أبلغ من خائن، مما يفيد تعظيم أمرها فعلاً وحكماً، ببغض الله تعالى للخوان، وعدم محبته له.

وفي هذا التحذير ما يفيد النهي والتحريم، وقوة العقوبة، ولو كانت محصورة فقط في انتفاء محبة الله تعالى له، لكانت كافية وافية في عظيم جرمها. ومن الفوائد البيانية أن الصياغة في جملة قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ أنها قاعدة حُكْمية في حق كل خوان، وبالرغم من وقوعها في سياق المخاطبة، إلا أن بناء جملتها قاعدة بيانية، حيث الذي كان قبلها قوله تعالى ﴿ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡ ﴾ وهذا من الإعجاز البلاغي في تحرير القاعدة من بين السياق الخطابي.

وفي لفظة ﴿ وَلَا تُجَٰدِلۡ ﴾ ما يفيد عدم التماس العذر للخائن عند التقاضي، وكذلك عدم المدافعة عنه، والتعاطف معه، وعدم المرافعة عن الخائن، لدفع خائنته، وتبرئته زوراً وبهتاناً. حتى يُؤخذ الحق منه لصاحب الحق، وهذا من قوة عدل منهج الله تعالى. وفي جملة ﴿ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡ ﴾ بيان حالة الإنسان فيما تجني به نفسه عليه من الخيانة، فيرتكب المعصية، مما يفيد الحذر والانتباه لهذه الحالة النفسية، التي ينجم عنها أفعال قبيحة ومشينة، وبالرغم من أن الخيانة قد يقع ضررها على الغير، إلا أن ضررها يجتمع على الخائن في نفسه وعلى غيره. وأنه يجب في حق هؤلاء عدم التعاطف معهم، وعدم إعانتهم على تبرير خيانتهم.

وفي كون نسبة الخيانة لأنفسهم ﴿ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ بالرغم من وقوع أثرها على غيرهم، ليتأكد أن ما قاموا به من خيانة هو عائد عليهم بالإثم والجرم العظيم في الدنيا والآخرة، بينما الذي وقعت عليه الخيانة في الدنيا فلن يقع عليه أثرها في الآخرة، بل سيقتص الله تعالى له منهم، ويأخذ حقه كاملا موفوراً. في حين أن الذي وقعت منه المظلمة قد خسر مرتين: الأولى في الدنيا، والثانية في الآخرة يوم التغابن. فيحصل لهم الغبن الأكبر مع خيانتهم لله تعالى بمعصيته، وخيانتهم لأمانتهم ولمن وقع عليه الظلم، فكانت ألصق بهم شناعة وأثراً ممن وقع عليه الظلم.

ثم بين تبارك وتعالى الطبيعة السلوكية والنفسية لهؤلاء الخائنين لأنفسهم ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ فشدة تسترهم من الناس أكثر من تسترهم من الله تعالى في ذلك. فالحياء والخوف من أن يكشفهم الناس، يجعلهم يستخفون تستراً من ضررهم، وكان الأولى أن يكون ذلك الاستخفاء والحياء والخوف هو من الله تعالى، لأن الناس ليسوا معهم أثناء تسترهم بالخيانة، بينما الله تبارك وتعالى يراهم في حالة الاستخفاء عند الخيانة، مثل ما يراهم في حالة الجهر والظهور، فكلاهما مستويان في علم الله تعالى، وبالرغم من ذلك، فهم في تستر واستخفاء ممن لا يستطيع أن يطلع على كل خفي، ويتمادون ولا يستخفون ممن أحاط بهم علماً وقدرة. وفي هذا كشف للحقيقة النفسية الداخلية للعاصي، الذي يستحي من الناس فيتستر عنهم، خوفاً من أن يلحقه الضرر البشري، ولا يستحي من الله تعالى، فيستتر عن مقامه وجنابه العظيم بعدم المعصية، وذلك بمغالبة النفس، وكبحها عن خيانتها.

مما يفيد أهمية انتباه الإنسان لهذه الحالة السلوكية، فيعالجها بقوة الإيمان، حتى يكون حياؤه من الله تعالى أكثر من حيائه من المخلوقين ومن ضررهم. وهي قاعدة قوية في معالجة الإنسان لنفسه، فإذا خلا بمعصية، قال لنفسه ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ وإن شجعه أو زين أحد له المعصية، زجرها بقوله تعالى ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ وإن تاقت نفسه للذة معصية، قال لنفسه ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ وإن تمكن من ظلم أحد هذب نفسه وإرادته بقوله تعالى

﴿ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ ﴾ وإ رأى غيره كذلك وعظه بقوله تعالى ﴿ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ ﴾ فتكون قاعدة عظيمة في تربية النفس، وزجرها عن المعصية، وخاصة المعصية الخفية.

ثم بين تبارك وتعالى مقدار تماديهم في المعصية ﴿إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ ﴾ فيدبرون أمر المعصية ليلاً، بما يفيد التخطيط لها، والتعمد على فعلها، وأنها لم تأت فجأة، بل مع سبق الإصرار على إتيانها، فيتشاورون ويدبرون الأمر الذي لا يُرضي الله تعالى، فيكون تدبيرهم فيما يُبغضُهُ الله تبارك وتعالى من التشاور ﴿إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ ﴾ وفي إخباره تعالى بما كانوا يبيتون ما يفيد عظيم علمه سبحانه وتعالى، إذ بين تبارك وتعالى إحاطته بما يعملون ويبيتون سراً، فقال عزّ من قائل ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ فقد أحاط الله تعالى بما يعملون علماً ودراية.

وقد أفادت دلالة ﴿ مُحِيطًا ﴾ كمال الاحتواء التام لِمَا يبيتون من الأمروالشأن، فلا يخفى عليه تبارك وتعالى من أمرهم شيئ. وهي قاعدة تربوية لتربية النفس، فكلما همت النفس بأمر معصية، زجرها العبد بقوله تعالى ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ وإن قصرت، زجرها واستيقظها من غفلتها بقوله تعالى ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ كما أن قوله عَزَّ وجل ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ قاعدة في التوكل، وقوة في تطويع النفس على الاعتماد على الله عَزَّ في علاه، فإذا حاك الظالمون أمراً، استقوى المؤمن بعلم الله تعالى وقدرته، فقال في نفسه ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ وإذا رأى منكراً، قال ناصحاً ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ وإذا همت نفسه بذنب، أو تقصير في طاعة الله تعالى، قال في نفسه ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ وإذا عجز عن فعل خير، عالج عتابه لنفسه، بقوله ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ وإذا رأى مخالفاً وعظه بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ فهي بلسم وعلاج وقوة للمؤمن.

ثم يبين تبارك وتعالى حال من يجادل عن الذين يختانون أنفسهم، ويبرئ ساحتهم، ويترافع دفاعاً عنهم ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴾ فيا من جادلتم عن هؤلاء الخائنين لأنفسهم في الدنيا، لترفعوا عنهم عقوبة الخيانة، ولوم الناس وعتابهم واستنقاصهم لهم ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴾ وهذه مقارنة ومفارقة بين موقفين في موقعين مختلفين، وهو أسلوب يُستثار به العقل والفكر لتحصل اليقظة، وهو كذلك سؤال واستفهام تعجيزي، وتوبيخي وإنكاري لمن يدافع عن خيانتهم. فهو تعجيزي، لعدم قدرتهم على المحاجة عنهم عند الله تعالى، لانكشاف الغطاء، وقوة شهود الجوارح، ولا أحد يستطيع أن ينكر فعله عند الله تعالى، فإن كان الأمر عليكم هيناً في الدنيا، فإنه عند الله تعالى ليس كذلك.

وكذلك هو استفهام توبيخي لعملهم الدفاعي، الذي يدركون به أن مَن يدافعون عنه كاذباً وخائناً، وليس بصادق. وكذلك هو استفهام إنكاري، إذ كيف تقومون بهذه المدافعة والمرافعة والتبرئة، وأنتم تعلمون أن الواقع خلاف ذلك، وأنه لا يخفى على الله تعالى من ذلك شيء، أوليس لكم عقول تدركون بها هذا؟ ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ فمن ينقذهم يوم القيامة، ويحاجج عنهم عند الله تعالى؟ فلسان حالهم يقول: لا أحد. فكيف إذاً تحاجون عنهم كذباً وزوراً، وترتكبون به الإثم. بل من هو الذي يستطيع أصلاً أن يتجرأ فيتوكل عنهم، فضلاً عن المحاجة عنهم ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴾

وهذا تدرج في إقامة الحجة عليهم، واستنطاق لعقولهم، ففي المقام الأول: بيان مجادلتهم ودفاعهم ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ والمقام الثاني: من يتجرأ يوم القيامة فيجادل ويدافع عنهم ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ والمقام الثالث: من يستطيع أن يتجرأ أصلاً بأن يتوكل عنهم، فضلاً عن أن يدافع ويترافع عنهم ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴾ فانتفى كل عون ومساندة يمكن أن يكون من غيرهم لهم يوم القيامة.

ثم يعرض الله تبارك وتعالى التوبة لمن يريدها منهم، حتى لا يعود لمثل ذلك ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ وهذا من عظيم كرم الله تعالى أن يستدعي من يعمل القبيح من الأعمال والأقوال، فيرشده للاستغفار، ليغفر له ذنبه المتعدي على غيره، وهو السوء ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا ﴾ وهو القبيح من الأعمال المتعدية والمتجاوزة إلى غيره، فيسوء بها غيره، وكذلك الذنب القاصر عليه دون غيره، وهو ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ﴾ فيستدعيه تبارك وتعالى إلى التوبة ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ وجاء الاستدعاء بكلمة ﴿يَجِدِ ﴾ لتفيد تحقيق ما يريد من رفع الذنب ومحوه، فكيف إذا التصقت وأضيفت إلى المحقق لها سبحانه وتعالى ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ ﴾ فإنه رجاء متحقق بكرمه وجوده ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ يغفر الذنوب، ويستر الزلات، ويرحم بعفوه وكرمه، إذ أن الرحيم هو الذي كثرة رحمته، فسبحان من كثرة رحمته، حتى أنه يستدعي عباده للاستغفار والتوبة. اللهم اغفر لنا وارحمنا فأنت الغفور الرحيم.

ثم يبين تبارك وتعالى حالتين في كسب الإثم: **فالحالة الأولى:** ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ودلالة ﴿يَكْسِبْ ﴾ تفيد ما يتحصل عليه الإنسان بنفسه، فيسعى هو إلى تحصيله ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا ﴾ فمن يسعى في تحصيل ذنباً، فإنما يعود وباله عليه ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ فلا يتحمل غيره ما كسب من الإثم، فهو محصور عليه. ثم خُتمت الآية الكريمة بعظيم علم الله تعالى، وعظيم حكمته في تدبير خلقه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ فهو عالم بما كان ويكون وما سيكون منكم، فلا يفوته شيء من أفعالكم وأقوالكم، وفي هذا تحذير وتذكير بعظيم سلطان علمه عَزَّ وجل، وأنه حكيم في تشريعه، وفي سياستكم وتدبير أمر خلقه، فمن حكمته ما شرع من الدين، وما فيه من الأحكام التي تبين عظيم حكمته في أحكامه وتشريعه سبحانه وتعالى.

والحالة الثانية: في كسب الإثم باتهام غيره بإثمه، وإلصاقه به، ويتجرد هو منه. فقال الله تعالى ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ وهي حالة أعظم من الأولى، لأنها متعدية إلى الغير بالبهتان والباطل، وجاء في الذكر الحكيم نوعين من الكسب: هما: الخطيئة والإثم ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ﴾ وذلك للتفريق بينهما، وليتعلم المسلم دقائق الأفعال. قال الطبري رحمه الله تعالى: أن الخطيئة تكون من قِبَل العمد، وغير العمد، والإثم لا يكون إلا من العمد، فَفَصلَ جَلَّ ثناؤه لذلك بينهما[١] وكذلك أن معنى ﴿خَطِيٓـَٔةً ﴾ هو فيما لا يكون مقصوداً إليه في نفسه، بل يكون القصد سبباً لتولد ذلك الفعل منه، كمن يشرب مسكراً فجنى جناية في سكره[٢] وقيل أن معنى ﴿ خَطِيٓـَٔةً ﴾ الصغيرة، وأن معنى ﴿وَإِثْمًا ﴾ الكبيرة[٣] وهذه الفوارق من دقة البيان القرآني، والإعجاز اللفظي في دقة دلالته، ومقاصده الدقيقة.

ثم يبين تبارك وتعالى حال من يكتسب نوعاً أو أنواعاً من تلك الذنوب، فيُلْصِقُه بغيره ويتهمه به، ويجرد نفسه منها، وكأن ليس له يدٌ فيها ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا ﴾ فإن هذا المذنب قد حَمَّل نفسه إثماً متعاظماً ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ فقد تَحَمَّل بفعله ذلك ﴿بُهْتَٰنًا ﴾ فرية وكذباً فاحشاً، وكذلك ﴿وَإِثْمًا ﴾ أي ذنباً كبيراً، وهو الإثم. ثم هذا البهتان والإثم موصوفان بالوضوح الجلي ﴿مُّبِينًا ﴾ فهما واضحان ظاهران، فيكونان عظيمان لانتفاء أي علة أو احتمال للشك، فقد امتنعت كل وسيلة يندفع بها ذلك عنه. لأنه على علم وعمد لما قام به من الفرية والتهمة.

ولفظة ﴿ٱحْتَمَلَ ﴾ أي: صابر عليه وتجلد، وتحمل ما لا يُطاق، مما يبين أنه جاهد نفسه وصابرها على هذا البهتان، ودافع لائمة النفس، بالتبرير حتى تقبل وتتجلد وتتحمل ما لا تطيقه من الافتراء. فهو تصوير للحالة النفسية التي يكون عليها الظالم المتعدي بظلمه على غيره، وذلك في

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٧٧/٧)

(٢) الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (١٥١)

(٣) الزمخشري، الكشاف (٥٧٧/١)

لفظة واحدة، قد استوعبت جميع ما كان عليه الظالم، وهذه من الغزارة البيانية الدقيقة في كتاب الله تعالى، والتي تستثير العقل نحو هذه القوة البلاغية التي يقف المرء عندها تأملاً وإعجازاً.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾

يبين الله جَلَّ جلاله في مطلع هذه الآيات الكريمات: امتنانه وفضله على رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ يبين الله تبارك وتعالى امتنانه على رسوله صلى الله عليه وسلم، بتوفيقه وتسديده له، سواء فيما يتعلق بقصة بني أبيرق، أو في عموم توفيقه وتسديده لنبيه صلى الله عليه وسلم، فالعبرة بعموم اللفظ، وإن كان بيانها في ذلك الخصوص. لأنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبرئ ابن أبيرق من التهمة، فَيُلحقها باليهودي، فسدد الله نبيه صلى الله عليه وسلم، بأن أعلمه بحقيقة الأمر والحق في أمر بني أبيرق. وهذا دليل على عظيم منزلة النبي صلى الله عليه وسلم عند ربه، إذ تتوالى عليه العناية والرحمة من كل وجه.

فتضمنت الآية الكريمة تفضل الله تبارك وتعالى بفضله ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ والفضل زيادة في العطاء والعناية. وقد اجتمع في هذا الامتنان من الله تعالى عموم الفضل وكذلك الرحمة، حيث نوه الله تعالى بهما ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ وبالرغم من أن الرحمة داخلة في فضل الله تعالى، إلا أن الله تبارك وتعالى أفردها للتنويه بها، وبعظمتها من بين

جميع الفضل، وهي من باب ذكر الخاص بعد العام، للانتباه وللأهمية وللمزية. ولولا فضل الله تعالى ولطفه، وعصمته لنبيه، ورحمته به، وتسديده بما يوحي إليه من الوحي ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ لتمكنت فرقة من الذين يختانون أنفسهم أن يزلوك عن طريق الحق، بتلبيسهم أمر الخائن، وشهادتهم للخائن بأنه بريء، مما أُدُّعي عليه، وطلبهم من النبي صلى الله عليه وسلم أن يعذره، ويقوم بمعذرته في أصحابه[١] مما يفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم، بشر، قد ميزه الله تعالى بما فضله به من النبوة والوحي، وأنه صلى الله عليه وسلم له عظيم المنزلة عند الله عَزَّ وجل، إذ يسدده ربه، ويكشف له حقيقة الذين كانوا يختانون أنفسهم، كما يفيد حاجة المسلم إلى تسديد الله تعالى له في كل أمر، مما يستوجب الدعاء، والالتجاء إلى الله تعالى، والركون إليه، فهو المعين، ولا معين لمن لا يعينه الله تعالى ويوفقه. وبأن لا يتوكل المؤمن على بصيرته وفكره وتدقيقه، بل هي وسائل، قد ينخذل الفكر بما يراه من غير الحقيقة، مما يؤكد أهمية سؤال الله تعالى الذي أحاط بكل شيء علماً وقدرة أن يعينه ويوفقه.

كما أن هذا الإضلال الذي قصدوه، لا يضر النبي صلى الله عليه وسلم، حتى لو حكم بما شهد به الشهود، لأنه لا يعلم الغيب إلا بما عَلَّمَهُ اللهُ تبارك وتعالى، وإنما يعود إفكهم عليهم ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾ وفي هذا بيان أن وبال الْمُضر عائدٌ عليه بالإثم والجزاء ، وذلك بقدرة الله تعالى، إضافة إلى ما يحصل عليه من الفضيحة والعار، التي يكشفها الله تعالى عن أمره، وكذلك فيما يعانيه في نفسه من اللوم. فجميع تلك الأضرار عائدة عليهم من أنفسهم.
وأما ما يخص النبي صلى الله عليه وسلم، فكما قال تعالى ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾ لأنه عَمِلَ بالظاهر صلى الله عليه وسلم، فلا ضرر عليه، حتى وإن حكم، لأنه حَكم بما ظهر له صلى الله عليه وسلم. وجاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض. فمن قضيت له بحق أخيه شيئاً بقوله، فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها)[٢] مما يفيد أن القاضي إذا قضى في أمر بما ظهر وتبين له، فلا يضره فيما خَفي أو أُخْفي

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٧٩/٧)
(٢) البخاري (٢٦١/٢) برقم (٢٦٨٠)

عليه من الحق، وأن ما يستقطعه لأحد الأطراف ظلماً، فإنه عائدٌ على الظالم، ولا يستبيح بحكم الحاكم أو القاضي ما استقطعه له إن كان ظلماً وزوراً. وفي هذا تعليم وتربية للأمة، بأن الحق هو المعتمد، وهو المخرج في كل خلاف، وليس بما يتستر به الظالم من الحيثيات، وإن فقد الخصم دليل الإثبات.

وفي قوله تعالى ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ ما يفيد أنه معصوم صلى الله عليه وسلم من ربه تبارك وتعالى، وهذه منزلة عظيمة ومكانة رفيعة للنبي صلى الله عليه وسلم.

ثم يبين تبارك وتعالى ما امتن به على نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ وفي هذا تقرير بمنزلة ومكانة النبي صلى الله عليه وسلم، وما أنعم به عليه من القرآن الكريم، وما يُوحَى به من غير القرآن، بما في ذلك السنة. قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: عن الحكمة: أنها بيان ما كان في الكتاب مجملاً ذكره، من حلاله وحرامه، وأمره ونهيه وأحكامه، ووعده ووعيده. ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ من خبر الأولين والآخرين، وما كان، وما هو كائن. فكل ذلك من فضل الله عليك ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ ولم يزل فضل الله عليك منذ خلقك عظيماً، فاشكره على ما أولاك من إحسانه إليك(١) ودلالة ﴿عَظِيمًا﴾ تبين صفة ذلك الفضل، من أنه بلغ مبلغ التعاظم، في زيادته، ونوعه ومحتواه. فالحمد والشكر لله تعالى بما تفضل به على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن الفوائد البيانية، أن تكرر الفضل في صدر الآية وفي خاتمتها، فالأولى: فضل المنع، وفضل الدفع، وفضل الانتصار بانقلاب الضلال عليهم، ففضل المنع، أن منع الله تعالى نبيه من تحقق إضلالهم للحقيقة، ومنع مرادهم، بكشف أمرهم للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ ثم انقلاب الإضلال عليهم ﴿وَمَا

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧/٤٨٠-٤٨١))

﴿يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ وكذلك فضل الدفع ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ حيث دفع الله تعالى عن نبيه صلى الله عليه وسلم إضلالهم. وأما ختام الآية الكريمة، فأشارت إلى فضل العطاء ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ كما أن في تكرارها ما يفيد تأكيد الامتنان، الذي هو دليل على العناية والمكانة العظيمة لهذا النبي المختار صلى الله عليه وسلم.

وفي هذا الإنعام من الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم، ما يبين للأمة منزلة نبيهم صلى الله عليه وسلم، وما أفاض الله تعالى عليه من النعم التي طال نفعها الأمة، وتجاوزها للخلق، من حيوان ونبات وأرض، وكان ذلك النفع علماً وعملاً واعتقاداً وأخلاقاً، ونجاة، ومآلاً.

ثم يشير تبارك وتعالى إلى قضية التآمر التي اتخذت أسلوب السرية، حتى بلغت التناجي الخافت ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ فنفى تبارك وتعالى الخيرية من ذلك التناجي، فلا خير في غالب تخافتهم وإسرارهم الحديث بالتخافت به.

وهي تأتي كقاعدة في المفارقة بين خيرية النجوى، وشر النجوى، إذ أن النجوى يغلب عليها عدم الخيرية، لأنها تُستخدم للتخفي بالشر، وأما في الخير فالغالب عدم إخفائها من صاحبها، وقد استثنى تبارك وتعالى من نفي خيرية النجوى ما كان في حالات الخير المتعدي إلى الغير، كما قال تعالى ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ فالنوع الأول التي يَجْمُل فيها النجوى، لاستثنائها من انتفاء الخيرية هي الصدقة ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ وقد ذكر الإمام الشوكاني: أنها صدقة التطوع، وكذلك استثنى تبارك وتعالى فعل المعروف ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ وهو لفظ شامل لجميع أنواع البر. وكذلك استثنى تبارك وتعالى الإصلاح بين الناس ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهو عام: في الدماء، وفي الأعراض، والأموال، وفي كل شيء يقع التداعي فيه.[1] ومن الفوائد الدلالية: أن الأمر بالصدقة، والأمر بالمعروف، والإصلاح

(١) الشوكاني، فتح القدير (٥١٥/١)

بين الناس، هي أعمال خير متعدية النفع إلى الغير. وكذلك لفظة ﴿ٱلنَّاسِ﴾ من قوله تعالى ﴿أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ أنها تشمل جميع أنواع الناس، مسلمهم وكافرهم.

ثم بين تبارك وتعالى أهمية الإخلاص له في العمل بما استثنى من النجوى ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ وهذا دليل على أهمية الإخلاص لله تعالى في فعل الخيرات، بأن تكون لله تعالى، وليس للرياء ولا للسمعة والشهرة، وتحقيق المكانة والرفعة، أو التعاظم بها، والظهور على الناس. بل يجب أن تكون ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ أي: طلب رضا الله تعالى. فمن حقق ذلك ﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ والأجر العظيم، لا يعلم حده ومنتهاه إلا الله تعالى، فصاحب الإخلاص موعود بأجر لا يمكن له أن يتصوره أو يقدر حجمه وكثرته. وفي هذا ما يفيد أهمية الإخلاص لله تعالى، ومعالجة النفس في ذلك، ومغالبتها حتى تخبت لله تعالى في شؤونها كلها. وكذلك سؤال الله تعالى الإخلاص له في القول والعمل. اللهم ارزقنا الإخلاص لك وحدك لا شريك لك.

ثم بين تبارك وتعالى جزاء من يفارق رسوله صلى الله عليه وسلم، وينشق عن الهدى الذي جاء به، فقال عَزَّ وجل ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ فمن باين وعارض الرسول صلى الله عليه وسلم، معادياً ومفارقاً له ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ أي من بعد ما قامت الحجج والبراهين وظهرت فإن له جهنم وبئس المصير. وتدل كلمة ﴿تَبَيَّنَ﴾ أنه قد انتفى كل ما يدعو إلى الريبة والشك، وأصبحت الحجج سامقة عالية الوضوح والبيان، الذي ينتفي معه الريب والشك، حتى أصبح الإيمان بهذا الهدى واجب، ولا عذر لمن ينشق ويتولى عنه إلى غيره ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فيتبع طريق غير المؤمنين.

وقد أفاد معنى ﴿سَبِيلِ﴾ أنه الطريق الذي فيه وضوح وسهولة المسير فيه، مما يبين أن منهج الهدى الذي جاء من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم، سهل وميسور، ليس فيه من الموانع والصعوبة والخفاء ما يجعل هناك من يصد عنه، وبالتالي امتنعت موانع المتمانع عنه، كما أن في دلالة ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ ما يدل على صفة ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من أنه يهدي ويدل على الخير، فليس فيه شر، ولا هداية لشر، فامتنعت عنه كل صفة مضادة للهدى، فصار هدى خالصاً محضاً لا شائبة فيه، مما يوجب الاتباع، وعدم المفارقة والانشقاق عنه، وأن من يختار غيره من السُبُل، سيكون جزاؤه من وجهين، الأول: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ بأن يكون ناصره ومعينه ما تقلده واستنصر واستعان به، وهي كناية عن كل معبود من دون الله تعالى، فإن من خُذلان الله تعالى لمن تولى عن سبيل المؤمنين، يوكل أمره لمن استعان به من دونه سبحانه وتعالى، فيكون الضعيف قد استعان بضعيف عاجز مثله، فمصيره ومآله الخذلان.

ومن البلاغة اللفظية في جملة ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ أنها استوعبت جميع أنواع المعبودات، التي يتولاها العابد من دون الله تعالى، سواء كان المعبود فكره وهواه وقوته وماله وجاهه، أو شخصاً أو حجراً أو صنماً، فجميع آلهة الباطل قد استوعبتها هذه الجملة البيانية العظيمة، وهذا من قوة الفصاحة والعمق البلاغي والبياني في القرآن الكريم.

ثم الجزاء الثاني: هو ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ بأن تحرقه نار جهنم، فتشويه، ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: بئس المرجع والمآل الذي يُصار إليه. وفي هذا بيان تأنيبي لحال من يصير بنفسه إلى هذه الحال المزرية، ونعوذ بالله تعالى من ذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا

مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى قضية الشرك، وهو الذنب الذي لا يغفره الله تعالى، إلا لمن تاب منه وتركه. وقد بينت الآية الكريمة الأولى: أربعة أحكام عظيمة، هي: نفي وإثبات وشرط ووصف. فالحكم الأول: نفي مغفرة الشرك لمن مات مشركاً ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾ مما يفيد أن الشرك ذَنْبٌ عظيم لا يغفره الله تعالى لمن مات مشركاً به سبحانه وتعالى، كما أن مطلع الآية الكريمة ابتدأ بلفظ ﴿ إِنَّ ﴾ التي تفيد التوكيد. للمبالغة في عِظَمِ أمر الشرك.

والحكم الثاني: إثبات المغفرة من الله تعالى لما هو دون الشرك ﴿ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: وقد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة ففي مشيئة الله تعالى، إن شاء عفا عنه ذنبه، وإن شاء عاقبه عليه، ما لم تكن كبيرتُهُ شركاً بالله تبارك وتعالى[١] وأما الحكم الثالث هو: اشتراط مشيئة الله تعالى في المغفرة، لمن يشاء سبحانه وتعالى، ومن فوائد هذا الشرط أن فيه تربية وضبط للمسلم، إذ يجعل منه هذا الشرط بين الخوف والرجاء، خائفاً أن لا يُغفر له، وطامعاً في مشيئة رحمة الله تعالى، بما ينعكس على سلوك المسلم في ضبط سلوكه من جهة، ودفعه للبر والتقوى من جهة أخرى، وذلك رجاء أن يمحو الله تعالى عنه ذنوبه، بإتباعه السيئة الحسنة.

كما يفيد هذا أن لا يُحْكَم على من مات دون الشرك بالعذاب، فقد يغفر الله تعالى له. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: والمراد من الآية: لا يغفر لمشرك مات على شركه، وفي قوله تعالى ﴿ لِمَن يَشَآءُ ﴾ نعمة عظيمة من وجهين: أحدهما أنها تقتضي أن كل ميت على ذنب دون الشرك

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢٣/٧)

لا يقطع عليه بالعذاب، وإن مات مصراً. والثاني: أن تعليقه بالمشيئة فيه نفع للمسلمين، وهو أن يكونوا على خوف وطمع[1] والحكم الرابع: متعلق بالوصف الرهيب العظيم للشرك ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ فقد سلك مسلكاً متعاظما في الشر، مضاداً لطريق الحق والرشاد، وقد بَعُد عن الصواب المحقق للهدى بُعْداً متناهياً، مما يفيد أنه قد أهلك نفسه، وحقق لها خسران الدنيا والآخرة، وَفَوَّتَ عليها سعادة الدنيا والآخرة. وفي دلالة ﴿بَعِيدًا﴾ ما يدل على المبالغة المتناهية في النأي عن الحق، فإنه بَعُدَ بهذا الضلال بعداً متناهياً عن الهدى، فليس بُعداً هيناً، بل بعداً عميقاً في الضلال. وفي هذا تعظيم لأمر الشرك، بأن صاحبه قد بَعُد هذا البعد المتناهي، بل أُكِّدَ هذا الضلال بصيغة المفعول المطلق ﴿ضَلَّ ضَلَٰلًۢا﴾ حيث أن دلالة ﴿ضَلَٰلًۢا﴾ تفيد التأكيد، فتبين أنه ليس هيناً. وهذه الآية ثاني تكرار لها في سورة النساء، بما يفيد تأكيد عقوبة الشرك وضلاله، وبُغض الله تبارك وتعالى له، وقد وُصِفَ صاحبها في تلك الآية بأنه اختلق وابتدع إثماً عظيماً حيث قال عَزَّ وجل ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ وفي هذه الآية تأكيد لضلال المشرك ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ كما تكرر في هذه الآية الكريمة ذكر الشرك مرتين، لتأكيد ضلاله، فالأول: عند نفي المغفرة للمشرك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ والثاني: عند بيان ضلال المشرك ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ فهذا يدل على عظيم جُرم الشرك بالله تعالى.

كما أن في هذا تقريع للمشركين بشركهم، وتحذير لهم مما هم فيه. ودعوة لهم بأسلوب الترهيب مما هم فيه من الشرك. وترغيب لهم ولغيرهم في لزوم توحيد الله تعالى، وكذلك انذار وتحذير وترهيب لكل أحدٍ من مغبة الشرك، وعظيم أمره. وأما باعتبار ما بعده من الآيات التي بينت توعد الشيطان للعباد بالغواية، ففي ذلك ترهيب وبيان للترابط بين الشرك وتزيين الشيطان وغوايته، حتى يكون في ذلك تحذير وترغيب وحث لهم على الطاعة والبعد عن الشرك.

---

(1) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/١٣٦)

وأما من حيث الأسلوب التأثيري، لتوجيه النفس البشرية نحو ما يجب، فقد احتوت الآية الكريمة على: النفي والمقارنة والحكم، فجاء نفي المغفرة للمشرك بقوله عزَّ وجل﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾ وليكون كذلك حكماً في حق المشرك، وكذلك جاءت المقارنة بين من يستحق المغفرة، ومن لا يستحقها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ثم جاء الحكم على ما قام به المشرك من الشرك ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ ثم جاء بيان تفصيلي لعملية الشرك: فالأول: ما يقومون به من عبادة لغير الله تعالى ﴿ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا ﴾ أي بأن ما يدعون ويعبدون من غير الله تعالى، والأمر الثاني: نوع هذه المعبودات، فإنها على وجهين: الأول ﴿ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا ﴾ وقد ذكر ابن الجوزي وغيره: أن الإناث: هم الأموات، وكل شيء لا روح فيه، كالأحجار والأخشاب. وهي بمعنى الإناث، وقيل أنها: اللّات والعزى ومناة، لأن كلهن مؤنث[1] والثاني ﴿وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴾ أي: الشيطان يكون في الصنم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: في كل صنم شيطان يتراءى للسدنة فيكلمهم، وقال أُبي بن كعب رضي الله عنه: مع كل صنم جنية، وقيل أنه إبليس وعبادته، ووصف هذا بالْمَرِيد ﴿وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴾ والمريد: المارد، وهو الخارج عن الطاعة، ومعناه أنه مرد في الشر [2] مما يفيد العلاقة الترابطية بين الشرك وبين الشيطان، والتي يحذر تبارك وتعالى منها، ليدرك الإنسان أن العلاقة بين الشرك والشياطين علاقة ترابطية قوية، إلى درجة أنهم يخاطبون سدنة الأصنام، كما سبق القول فيه. ثم هذا الشيطان المتمرد العاتي عن عبادة الله تعالى، قد حكم الله تعالى فيه باللعنة ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾ مما يفيد أن الله تعالى أبغضه، فأخزاه، وأقصاه وأبعده عن كل خير. فانتفى حصول الخير له ومنه، وتجرد منه كلياً، فلم يكن إلا شراً محضاً. فكيف يتتبعه ا لإنسان، ويشرك بالله تعالى، وقد أخزاه وأقصاه وأبعده عَزَّ وجل عن كل خير. فمن كان

---

(1) ابن الجوزي، زاد المسير من علم التفسير (١٩٣/٢)

(2) المرجع السابق (١٩٣/٢)

هذا الحكم فيه، فإنه يجب الامتناع عن طاعته، ويلزم عدم الاغترار به، بعد هذا البيان من العلم ومن التحذير من رَبّ العالمين.

وقد توعد الشيطان العباد بعدد من الوعود، كما أخبر وبين سبحانه وتعالى، فالأول ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أي مقداراً معيناً، معلوماً. مما يفيد أنه سيجاهد في الحصول على قدرٍ من العباد من أهل الغواية، بما يزينه لهم من الفواحش والمنكرات، والضلال والكفر والمعاصي، وما يُسَوِّف للعاصي من الأمل في التوبة وفي ترك المأمور والعمل بالمحظور، حتى يتمادى في المعصية. فيغويهم عن قصد السبيل، وبالتالي فإن مَن تَبِع الشيطان كان من نصيبه المعلوم، وحظه المقسوم، والمقدار المعين. وفي هذا ما يفيد الإنذار والتحذير، والعلم بأن ما يتزين في قلب العبد من المعاصي هو من عدوه الشيطان الرجيم.

والوعد الثاني: هو ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ أي: بصرفهم، وصدهم عن سبيل الهدى. فيضلهم عن الهدى بالكفر، وعن الطاعة بالمعصية، ولفظة الإضلال تفيد: الغواية: والإضاعة، وتغيير وتحويل الاتجاه، وهو يحمل التعتيم على الحق، بما يصرف النفس عن حب الخير إلى حب الشر، وذلك بما يزينه للعبد، حتى لا يهتدي الطريق، فهو عمل مضاد للإرشاد والهداية.

والوعد الثالث: هو ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ وهو أسلوب في التمادي، الطويل الأجل. بما يسول للعبد من التمني، كأن يمنيه بالتوبة بعد ارتكاب وتحقيق فعل المعصية، وكذلك طول الأجل، وطول والحياة، بما يترتب عليه من تأجيل التوبة وتأجيل الإقلاع عن المعصية.

والوعد الرابع: هو ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: لأحملنهم على قطع آذان البحيرة والسائبة. والبحيرة: هي الناقة إذا ولدت خمس أبطن، وكان الخامس ذكراً، شقوا أذن الناقة، وامتنعوا عن الانتفاع بها، ويُمْتَنَعُ كذلك عن ركوبها، وسول لهم إبليس أن هذا قربة إلى الله تعالى[1] فالشيطان قد ابتكر لهم بدعة القطع، وبدعة الترك، وبدعة الإضلال التعبدية، وأن الله تعالى يحب ذلك افتراءً على الله تعالى. وهذا يفيد أن الشيطان قد يزيّن لأهل الحق البدعة،

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٩٥/٢)

بالإضافة والتغيير، ومخالفة نص الشريعة، حتى يستحسنها العبد، فيتقرب إلى الله تعالى بما لم يشرع، في حين كان واجبه الاقتصار على ما شرع، فيما هو واجب ومندوب، وترك ما هو محظور. مما يفيد أهمية ووجوب الحذر من البدع، التي يزينها الشيطان، ثم يشرعها لمن يتبعه من العباد.

والوعد الخامس: هو ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾ وهذا الوعد أعم من الوعد السابق، فقد أوله أهل العلم بأنه: تغيير دين الله تعالى، وقيل هو: تغيير الخلق بالخصاء، وقيل التغيير بالوشم، وقيل تغيير أمر الله تعالى. وقيل: أنه عبادة الشمس والقمر والحجارة، وتحريم ما حرموا من أنعام[١] وجميع تلك الدلالات لا يمتنع على النص من احتوائها جميعاً، لأن جميعها تغيير لخلق الله ومراده عَزَّ وجل. مما يفيد من الناحية البلاغية والبيانية استيعاب اللفظة لكل جزئيات معانيها ودلالاتها، كما استوعبت هذه الدلالة جميع مفردات قوله ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾ مما يبين عظيم البيان في القرآن الكريم، الذي تستوعب الدلالة منه جميع الأوجه، وبسياق واحد. وهذا من الإعجاز في قوة البيان والسياق وجمال تراكيب الكلام والكلمات.

كما يفيد هذا أهمية اعتماد النص الشرعي، وعدم مجاوزته، ففيه المساحة الكافية والضافية والوافية. وكذلك الحذر من التعدي على مخلوقات الله تعالى بالتغيير والتعديل والإضرار بما لم يأذن به الله تعالى، مما يفيد أن البهائم هي من خلق الله تعالى، التي يلزم أن يكون التعامل معها وفق شريعة الله تبارك وتعالى. فقد دخلت امرأة النار في هرة حبستها، لا أطعمتها، ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض، كما جاء في الحديث.[٢]

وبعد هذا البيان التفصيلي من الله تعالى لمراد الشيطان من العباد، حَذَّرَ تبارك وتعالى من موالاته ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا﴾ فمن يوالي الشيطان، فيتابعه فيما وعد به، ويترك ولاية الله بطاعته، فقد ﴿خَسِرَ﴾ وهذه الخسارة ليست خسارة غامضة، لا وضوح فيها، بل إن هذه الخسارة واضحة بائنة، فلا جبر لها،

(١) المرجع السابق (٢/١٩٥)

(٢) البخاري، برقم (٢٣٦٥)

ولا استدراك لِمَا فات منها ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ ودلالة ﴿خُسْرَانًا﴾ مفعول مطلق، يدل على المبالغة في الخسارة، والتأكيد على تحققها، كما أن دلالة ﴿مُّبِينًا﴾ توضح تأكيد انتفاء اللبس والغموض، وإثبات الوضوح وإقامة الحجة البالغة بعد هذا البيان العظيم من رب العالمين.

فبعد أن بين الحق تبارك وتعالى وعود الشيطان وأهدافه ومراده بالعباد من الضلال والإضلال، أوضح عَزَّ وجل أساليب الشيطان في الإغواء ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ فهناك أسلوب الوعود الباطلة، من المال والجاه والرياسة، وأسلوب الأماني الواهية الواهمة، التي لا ينالونها أبداً.

ومن الفوائد: أن الوعد من الشيطان متعلق بتحقيق مطالب مستقبلية، لأمر أو أمور معينة، كالرياسة والسلطان. وأما التمني، فهي توابع للموعود به، كتشهي النفس للأمر والنهي، والتحكم، وما يتبع ذلك من كثرة الأتباع، واستمالة الناس، وما يتحقق بها المال والجاه. وهذه من دقائق الفوارق، مما يفيد أن كل لفظة في القرآن الكريم، ذات مقصد ودلالة دقيقة وعميقة في معطياتها، وقد بلغت منتهى الدقة والكمال.

ثم بين سبحانه وتعالى صفة هذه الوعود ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ فهو وعد تغرير، لا حقيقة له، ولم تُذكر هنا الأمنيات، لأنها متعلقة بالوعد، الذي تُبنى عليه الأماني، فإذا كان وعد الشيطان وعد تغرير، فليس للأمنيات موقع ولا مجال، لانتفاء موجبها. فنتيجة ذلك أن ما يُوقِعُهُ في خواطر أوليائه من الوساوس والتزيين ما هو إلا تغرير بهم، للوقوع في ضلاله وإضلاله. ومن يقع في حبائله فإنه موعُود بعذاب لا يستطيع أن يتحرز منه البتة، قال الله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ وابتدأت الآية الكريمة باسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ حيث يحصل بها الانتباه لما بعدها من الوعيد، فهؤلاء الذين تولوا ووالوا الشيطان وانساقوا وراء وعوده، فإن مصيرهم الذي يأوون إليه هو جهنم، التي لا يجدون عنها مفراً ولا ملجأ ولا مخلصاً يفرون منها إليه. وكلمة ﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾ تفيد الملجأ الذي يلجأ إليه الإنسان ويلوذ به. فيصبح هذا

الملاذ الذي لابديل عنه، هو جهنم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ ثم يأتي التأكيد على أنه لا مفر منه لغيره ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ فلا يجدون وسيلة ولا مهرباً ومفراً يفرون إليه عن جهنم. فهو بيان تصويري لحقيقة وحالة ذلك الموقف الذي لا مفر منه لمن تولى الشيطان، فنعوذ بالله تعالى من الشيطان ومن شِرْكِهِ وشَرَكِهِ.

وقد اشتمل هذا المقطع من الآيات الكريمات على بيان منهج الشيطان في الغواية، وأساليبه الماكرة، التي يخدع بها من يواليه، فيأخذه شيئاً فشيئاً بالمواعيد والأماني الكاذبة، بما يدفعه لطاعته وغوايته، حتى يصل به إلى عذاب الله تعالى. وفي هذا البيان القرآني تحذير وتنبيه للعباد من عدوهم، ليعرفوا أساليبه ومراده فيحذروه، ولا ينخدعوا به.

فبعد أن بين تبارك وتعالى جزاء الذين يتخذون الشيطان أولياء، أوضح وبين عَزَّ وجل الفرق بينهم وبين مآل وجزاء المؤمنين من عباده ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ فاستهلت الآية بواو العطف على جزاء أولياء الشيطان، بما يفيد المقارنة بين مآلين مختلفين، لطاعتين متضادتين، فهو أكثر أثراً في النفس، وأقوى لدفعها نحو الطاعة، والحذر من مسلك غواية الشيطان، ووعُوده وأمانيه الكاذبة، والحذر من الوقوع في جزاء ومآل أولياء الشيطان. فإنها حالتان متضادتان ومتضمنتان للإنذار والبشارة. وهذا يفيد أهمية المقارنة، وأهمية الترغيب والترهيب، والإنذار والبشارة في المجال الدعوي، وفي المجال التربوي، وكذلك يمتد نفع هذا المنهج الأسلوبي إلى نطاق الحياة الاجتماعية المختلفة، في المهنة والإدارة والقيادة وغيرها.

وقد تناولت الآية الكريمة صفتين للناجين، الذين لهم البشرى بدخول الجنة: الإيمان وعمل الصالحات ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فجانب متعلق بالقلب، وهو الإيمان: الذي قد صَدَقَت وصَدَّقَت قلوب أصحابه بما جاء عن الله تعالى، فصدقوا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وأقروا لله تعالى بالوحدانية، ولرسوله بالنبوة. والجانب الثاني: متعلق بالعمل والتطبيق لما علموا، فأدوا فرائض الله تعالى التي فرضها عليهم، وتركوا ما نهاهم ربهم عنه. فهؤلاء قال الله تعالى

عنهم ﴿ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا ﴾ فهؤلاء سيجازيهم ربهم بمثوبة عظيمة، وهي دخول الجنَّة.

وقد ذكر لهم سبحانه وتعالى من أوصافها: أنها ﴿ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ أي: أنها جنات من البساتين، وليست جنة واحدة، بل جنات متعددة. إذ وردت الجنات بصيغة الجمع ﴿ جَنَّٰتٖ ﴾ والجنات هي البساتين التي تجري من خلالها الأنهار، في جريان مستمر، لا ينقطع، ولا يضعف. فتجري من أسافلها، لتمر في أكنافها وأرجائها وجوانبها، وبين أشجارها وقصورها، من غير انقطاع. أي: تتدفق من خلالها الأنهار الكثيرة. حيث وردت ﴿ ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ بصيغة الجمع، لإفادة الكثرة والتعدد والتنوع. وقد اتصفت تلك الجنات بكثرة الأنهار ودوام تدفقها بالجريان من تحت قصورها، وبين أشجارها. ليزداد بها المؤمن سعادة وبهجة وسروراً.

وكذلك من عظيم هذه المثوبة أنهم ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا ﴾ وهو خلود دائم، لا خروج منه أبداً، فانتفى منها الزوال والانتقال. ثم ذكر تبارك وتعالى صفة وحقيقة هذا الوعد ﴿ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗا ﴾ فهذا الوعد من الله تعالى واقع وثابت لا محالة، وقد أكده سبحانه وتعالى بالمصدر الدال على التحقق ﴿ حَقّٗا ﴾ ثم أكد ذلك سبحانه وتعالى بسؤال تقريري، بصيغة الاستفهامي الإنكاري، الذي يفيد تقرير وإثبات ما وعد الله تعالى به، وإنكار من يعتقد أن هناك أصدق من الله تعالى في قوله ووعده ﴿ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴾ فالجواب: ليس هناك من هو أصدق من الله تعالى قولا وفعلاً. قال الزمخشري رحمه الله تعالى في قوله تعالى ﴿ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗا ﴾ مصدران: الأول مُؤكِّد لنفسه، والثاني مُؤكِّد لغيره ﴿ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴾ توكيد ثالث بليغ. وذكر رحمه الله عن فائدة هذه التأكيدات: أنها معارضة لوعود الشيطان الكاذبة، وأمانيه الباطلة [١]

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٥٨١/١)

والسؤال الاستنكاري ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ يستحث العقل والفكر للمقارنة والتفكر، هل هناك من أحد أصدق من الله تعالى فيما يقوله سبحانه وتعالى، فتكون الإجابة: لا. ليس هناك أصدق من الله عَزَّ وجل. فكيف إذاً يترك الْمُخَاطَب الإيمان والعمل بما وعد الله تعالى به، ويطيع غيره ويخالف أمره.

وهذه قاعدة عظيمة ثمينة لإزالة الشكوك والوساوس، ومغالبة شياطين الجن والإنس. فإن كاد له أحدٌ بالتزيين والتشكيك قال لنفسه ولعدوه ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ وإن غالبته نفسه بهواها، تذكر قوله تعالى ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ فتكون قوة وسلاحاً يحارب به كل مُضل. وإن رأى غيره على ما يستوجب الوعظ، قال له ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ فهي قاعدة بناء ووقاية وإنماء، ووعظ وإرشاد.

﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ﴿١٢٦﴾﴾

ينتقل السياق القرآني الكريم إلى فصل الخطاب بين أهل الإسلام وأهل الكتاب في الجزاء المترتب على التمسك بدين الله تعالى، وتحقيق الأمر في دينه سبحانه وتعالى، فابتدأ الخطاب بأسلوب التشويق من خلال التقديم والتأخير، قال تعالى ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فجاء التشويق باستثارة النفس نحو معرفة الضمير المحذوف، المتعلق بليس ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فما هو هذا الذي ليس بأمانيكم وليس بأماني أهل

الكتاب، وهذا من إعجاز القرآن البياني في النظم. لتأتي الإجابة أيضاً بأسلوب بياني يستثير الفكر نحو المعرفة.

فابتدأت الآية الكريمة بتصيح الفكر والمعتقد أولاً، من خلال إزالة الفهم الخاطئ، حتى يُبنى عليه العلم الصحيح، فبدأت الآية الكريمة بنفي التمني والادعاء ﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ وقد جاء في التفسير: أنه تفاخر النصارى وأهل الإسلام، فقال هؤلاء: نحن أفضل منكم، وقال هؤلاء: نحن أفضل منكم. فأنزل الله جَلَّ ثناؤه ﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾[1] قال الزجاج رحمه الله تعالى: اسم ﴿ لَّيۡسَ ﴾ مضمر، والمعنى: ليس ثواب الله عَزَّ وجل بأمانيكم. وقد جرى ما يدل على الثواب.[2] فليس ينال حصول الثواب ودخول الجنة الذي وعد الله تعالى بالأماني وادعاء الانتماء. مما يفيد أن الانتساب للإسلام يكون فيصلُه الطاعة ولزوم الاتباع وفق ما مر الله تعالى به، وليس بالهواجس والادعاء الفاسد ﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ فليس بأمانيكم من التفاخر بما أنتم عليه، ما لم تعملوا بما أمر الله تعالى،، وليس بأماني أهل الكتاب من الادعاء بأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، ونحو ذلك من ادعائهم الفاسد. وقال الطبري، قال مجاهد رحمها الله تعالى: أنه عني بقوله سبحانه وتعالى ﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ ﴾ مشركي قريش الذين أنكروا البعث والجزاء[3] وقال السعدي رحمه الله تعالى: الأماني: أحاديث النفس المجردة عن العمل المقترن بها دعوى مجردة، لو عُورِضَت بمثلها لكانت من جنسها. وهذا عام في كل أمر، فكيف بأمر الإيمان والسعادة الأبدية؟ وأماني أهل الكتاب قد أخبر الله تعالى بها... وكذلك أدخل الله تعالى في ذلك من ينتسب إلى الإسلام، لكمال العدل والإنصاف[4]

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٠٧/٧)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٩٧/٢)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥١٢/٧)

(٤) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤١٤/١)

فهي قاعدة شاملة لكل أحد. قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: واسم ليس محذوف، أي ليس دخول الجنة، أو الفضل، أو القرب من الله بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب[١] وهذا يفيد أنه عند التعليم والتربية والتوجيه والإرشاد ودعوة أهل الفساد الفكري في العبادة والاعتقاد وغير ذلك، أن يتم البدء بإزالة الجهل المركب، وكذلك أهمية الأسلوب الخطابي والبياني، بأن يُستخدم فيه جوانب الجذب المشوقة، للاستماع، وللانتباه، بشد وتشويق الْمُخَاطَب لما يلقى إليه من كلام وعلم ومعرفة.

ثم بين تبارك وتعالى الجزاء المتعلق بعمل السوء، فقال عَزَّ وجل ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ فمن يعمل ما قَبُح من الأعمال، فإنه سيُجازى عليه. وفي الحديث: لما نزلت ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قاربوا وسددوا، ففي كل ما يُصاب به المسلم كفارة. حتى النكبة ينكبها، أو الشوكة يُشاكُها)[٢] ومن الفوائد: أن دلالة وموقع ﴿سُوٓءٗا﴾ من سياق قد وردت مطلقة، لتشمل جميع أنواع ودرجات السوء، مما يستدعي الحذر من جميع أعمال السوء، كما أن معنى ودلالة ﴿يُجۡزَ بِهِۦ﴾ شاملة للجزاء: قليله وكثيره، كما أنها لم تحدد مكان هذا الجزاء، أهو متعلق بالدنيا أو بالآخرة. ليكون في ذلك ردع عن أعمال السوء، سواء ما كان قاصراً على صاحبه، أو متعدياً إلى غيره.

وأما فيما يتعلق بالمغفرة والعفو فكما ورد في الحديث السابق (قاربوا وسددوا، ففي كل ما يُصاب به المسلم كفارة. حتى النكبة ينكبها، أو الشوكة يُشاكُها) ويعفو الله عمن يشاء، وهو أرحم الراحمين. ولكن من فوائد ذلك أن يكون المسلم على وجل وخوف من ذنوبه وتقصيره، وعلى حذر من أن يعمل السوء قاصداً متعمداً. فهو أسلوب يربي في المسلم الحذر، وضبط السلوك في النفس ومع الغير.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٥١٨/١)

(٢) مسلم، صحيح مسلم، برقم (٢٥٧٤)

ثم بين الحق تبارك وتعالى محذراً لمن يعمل السوء، بأنه لن يجد ناصراً ولا معيناً له للخلاص من الجزاء ﴿ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴾ فليس هناك ولي يلي أمره ويدافع عنه، ولا ناصراً ينصره ويدفع عنه الجزاء. فليس إلا الله تعالى. مما يفيد الترهيب والتحذير. وكذلك التأكيد. ومعنى الولي: هو الذي يلي الأمر ويهتم به، اهتمام ولاء نعمة وإنعام. والنصير هو المعين على المدافعة، ولا يلزم منه أن يكون ولياً لمن يدافع عنه. وفي نفي الولي والنصير إمعانٌ في تجرد عامل السوء من كل ما يمكن أن يستعين به من الأسباب إلا عفو الله تعالى.

ومن الفوائد اللفظية أن كلمة ﴿ دُونِ ﴾ بمعنى: أسفل، فهي ضد كلمة فوق، فتعني بذلك أن كل ما هو غير الله تعالى أسفله، وتحت قدرته وقهره وسلطانه سبحانه وتعالى ﴿ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴾ مما يُظهر ويبين دقة الألفاظ في القرآن الكريم.

ثم من رحمة الله تعالى أن أعقب ذلك بالمثوبة لمن يعمل الصالحات. قال تعالى ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴾ فقد بينت الآية الكريمة أهمية الموازنة بين الترغيب والترهيب. إذ بينت العلاقة الترابطية والتكاملية بين الأعمال الصالحة والإيمان، لتكون شرطاً للمثوبة العظيمة، بدخول الجنة من غير ظلم لهم فيما عملوا، ولو كان عملاً يسيراً من الصالحات.

ومن الفوائد أنه لما أن الصالحات كثيرة النوع مع تفاوتها في الدرجات، وتفاوت قدرات العباد في تحصيلها، فمن مبسوط له في الرزق فينفق، ومن مبسوط له في الذكر، ومن مبسوط له في قضاء حوائج الناس، فجاء سياق الوصف بما يتناسب مع ذلك التفاوت ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فليس جميع الصالحات، وإنما من تلك الصالحات. فقد أفاد حرف ﴿ مِنَ ﴾ المتقدم على ﴿ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ التبعيض، أي: ليس جميع الصالحات، بل بعضها. لأنه لا يستطيعها كلها. كما شملت دلالة ﴿ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ جميع أنواع الأعمال الصالحة ومفرداتها. وقد شمل قوله تعالى ﴿ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ ﴾ جنس الذكر وجنس الأنثى، وشمل جميع أعمار الجنسين.

كما اشترط الإيمان لقبول عمل الصالحات ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٌ﴾ بما يفيد أن الإيمان شرط لقبول الأعمال الصالحة. مما يؤكد أهمية الإيمان، وأنه الركيزة الأساسية لقبول العمل.

ثم أكد تبارك وتعالى من خلال اسم الإشارة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أن هؤلاء إذا جمعوا بين الأعمال الصالحة والإيمان فإنهم يجزون الجنة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾ وأن من عَدْلِهِ سبحانه وتعالى، ودقة جزائه وإحصائه للأعمال أنهم، لا يُظلمون مما عملوا شيئاً، ولو كان أمراً يسيراً، ولفظة ﴿نَقِيرٗا﴾ هي النقطة التي تكون في ظهر النواة، وهذا كناية عن الشيء الزهيد الذي لا يؤبه به، فإن الله تعالى يُثْبِتُهُ ويُثيب عليه، ولا يُظْلَم صاحبه، حتى في الزهيد من القول والعمل. وهذا دليل دقة الإحصاء من الله تعالى، ودليل على عدل الله تعالى، وهو الذي يضاعف الحسنات إلى أضعاف مضاعفة. وفي هذا تحفيز للعمل الصالح، بأن لا يُحْتَقَر المؤمن منه شيئاً.

ثم ينتقل سياق القرآن الكريم إلى لفت الانتباه نحو كمال العبودية، وكيفيتها، وكذلك إلى القدوة في التوحيد والعبادة والاستسلام لله رب العالمين، من خلال الاقتداء بأبي الأنبياء، إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فابتدأت الآية الكريمة بسؤال استنكاري تقريري، يفيد تقرير الأفضل والأحسن، واستنكار من يتخذ ديناً غير دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام، لِمَا تقرر من فضله وحُسنه ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾ فيقرر تبارك وتعالى أن أخلص عبادة هي الانقياد له سبحانه وتعالى، فيجعل نفسه سالمة مستسلمة ومنقادة لله عَزَّ وجل. وجملة ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ﴾ سؤال يلتفت به انتباه الْمُخَاطَب إلى من هو الأفضل في تدينه ممن ﴿أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾ هل هناك أفضل من هذا الذي استسلم وأخلص انقياده لله تعالى، والجواب: لا.

وقد شمل ذلك الاستسلام والانقياد والإخلاص، بما يفيد أنه طواعية من المستسلم لله تعالى، لأنه عرف أنه لا أحد يستحق ذلك إلا الله تبارك وتعالى، وهذا هو كمال العبودية الذي اشتمل أيضاً على حُسن الطاعة ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ بالقيام بما فرض الله تعالى من التوحيد والعبادات، وجميع ما شرع، فهو عامل بما أُمر به من ربه سبحانه وتعالى، ومنتهي عن ما نهى عنه.

وكلمة ﴿مُحۡسِنٞ﴾ تدل على الإحسان الذي هو كمال في العبودية، إذ أن الإحسان أداء للكمال من المستحبات التي يتجاوز به العبد الواجبات. مما يفيد أهمية الإمعان في العبادة والتقرب إلى الله تعالى بما يجعل العبد محسن في عبادته، بكثرة المستحبات من العبادات، والمبالغة في الإتيان بها تقرباً واستسلاماً لله تعالى.

كما أن في جملة ﴿أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ﴾ ما يدل على تمام الاستسلام، لأن الوجه هو أكرم وأعظم ما في الإنسان من قيمة معنوية وحسية، بما يدل على تمام الاستسلام بأكمل وأظهر وأكرم ما في الإنسان، وهو الوجه. وبما يفيد المبالغة التي يلزم المسلم أن يحققها في عبوديته لله تعالى، فلا يقول إلا سمعنا وأطعنا، كما ورد في الآية ما قبل الأخيرة من سورة البقرة ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ ثم بين تبارك وتعالى أن من صفات كمال هذا الأحسن هو أن اتبع دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وهم محمد صلى الله عليه وسلم، وأتباعه إلى يوم القيامة، كما قال تعالى ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[^1]

وفي قوله تعالى ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ﴾ ما يبين أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان قدوة وأسوة في ملته، وتعبده، وإخلاصه واستسلامه لربه تبارك وتعالى حتى وصف بالحنيفية ﴿حَنِيفٗاۗ﴾ أي مائلاً عن جميع الأديان، ومنفرداً بدين الله تعالى، الذي استسلم وانقاد وأخلص لربه عليه الصلاة والسلام. حتى وصل إلى منزلة عظيمة كريمة عند الله تعالى ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ وهي منزلة جليلة القدر، كريمة الفضل، إذا أن الخليل هي أرفع مقامات المحبة. وفي هذا استحثاث وترغيب للمؤمنين في الاقتداء بإبراهيم الذي وَفَّى، فقام بجميع ما أمره به ربه تبارك وتعالى، حتى أنه أخذ السكين ليذبح ابنه، لولا أن فداه الله تبارك وتعالى بذبح عظيم.

[^1]: (١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٧٢/١)

ثم بين الحق جَلَّ جلاله ملكيته للسموات والأرض وما فيهن ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٖ مُّحِيطٗا ﴾ وفي هذا البيان من رَبِّ العالمين ما يعزز وجوب الطاعة والانقياد لمن مَلَكَ الكون كله، إيجاداً وتدبيراً، فيتصرف به كيف شاء عَزَّ وجل، فأحاط به علماً وقدرة، فمن له الملك كله، وجب على المملوك الانقياد والطاعة والإخلاص له سبحانه وتعالى، فهو الذي أحاط بعلمه وقدرته كل أحد من خلقه، فلا يغيب عن كريم علمه سراً ولا جهرا، مما يوجب التذلل والخوف والرهبة والطاعة له سبحانه وتعالى.

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِۚ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحٗاۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٞۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا ﴿١٣٠﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى ما كان يسأل عنه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله تعالى عنهم في شأن وأمر النساء، متوجهين للنبي عليه الصلاة والسلام، بأن يفتيهم فيما أهمهم من الأمر ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ﴾ وفي هذا الانتقال إلى أمر النساء نقلٌ لذهن الْمُخَاطَب إلى رحاب أمر اجتماعي وأُسري، يدل على أهميته من كل وجه، كما أن فيه تنويع للموضوعات الحياتية التي تدل على عناية القرآن الكريم بكل قضايا الإنسان.

فبدأت الآية الكريمة بقوله تعالى ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ﴾ والاستفتاء هو: تبيين المُشْكل من الأحكام، وقيل: الاستخبار[١] ولم يُذكر هنا ما استفتوا فيه من مسائل. قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: ويسألك يا محمد أصحابك أن تفتيهم في أمر النساء، والواجب لهن وعليهن، فاكتفى بذكر النساء من ذكر شأنهن، لدلالة ما ظهر من الكلام على المراد منه[٢] مما يفيد أن الإجابة تغني عن تفاصيل السؤال، الذي لا يحتاجه التالي للقرآن الكريم، وهذه من البلاغة القرآنية في عدم ذكر ما يغني عنه غيره. كما أن من الفوائد في قوله تعالى ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ﴾ عناية الصحابة بأمور دينهم، والتي منها أُمُور المرأة، حتى يكونوا على مراد الله تعالى في تعاملهم، فلا يبخسوهن شيئاً من حقهن، وليقوموا بما يلزم في ذلك. كما يفيد هذا أن الاستفتاء إنما يتوجه به إلى العالم بأمور الدين، وألَّا يَسْتَفْتِي المسلمُ من لا يملك القدرة على بيان أمور الشريعة، والتي منها الحقوق، فلم يجتهد الصحابة في ذلك من تلقاء أنفسهم، بل ذهبوا إلى من هو أخص بالفتيا.

ومن الفوائد الأسلوبية في الاستفتاح، أنه جاء بما سألوا ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ﴾ وفي هذا شد الانتباه إلى أن هناك أمراً يخص النساء، قد تم الاستفتاء فيه، كما يدل الاستهلال به على أهميته، وأهمية الجواب عليه، وفيه ترقب للإجابة، وشد للانتباه. وقد ذكرت بعض كتب التفسير ما سأل عنه الصحابة رضي الله عنهم، كما نقله ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أنهم قالوا: كيف ترث المرأة والصبي الصغير[٣] فهم أدرى بما كانوا يسألون عنه رضي الله تعالى عنهم.

ثم قال تبارك وتعالى ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ وفي هذا التنويه بأن الله تبارك وتعالى هو الذي يفتيكم عن أمر النساء فيه مغزى عميق، من أن ما يُعلمكم ويفتيكم به رسوله صلى الله عليه وسلم هو من عند الله تعالى، بالرغم من أنه معروف لدى الصحابة ومعروف عند المؤمنين

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١/ ٢٠٠)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧/ ٥٣٠)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١/ ٢٠٠- ٢٠١)

من بعدهم بأنه صلى الله عليه وسلم لا يفتي إلا بما يأمره الله تعالى به، ولكن في ذلك تنويه بأهمية هذا الأمر، وأهمية ما يتعلق بالنساء، وتكريم لهن من الله تبارك وتعالى، بأنه هو الذي تولى الإجابة في حقوقهن، وأن حقوقهن محفوظة ومحفوفة برعاية الله تعالى، وليس كما هو في الجاهلية من إقصاء وظلم لحقوقهن، كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى.

ثم يقول تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: قل للسائلين: إن الله ربكم هو الذي يبين لكم حُكم ما سألتم عنه ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ﴾ ثم أرشدهم إلى ما نزل بهذا الشأن في القرآن الكريم ﴿وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: والذي يُتْلَى عليهم في الكتاب هو آيات الفرائض التي في أول هذه السورة وآخرها[١] ففي صحيح البخاري رحمه الله تعالى: عن قول عائشة رضي الله تعالى عنها ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ قالت عائشة: هو الرجل تكون عنده اليتيمة، هو وليُّها ووارثها، فأشركته في ماله حتى في العذق. فيرغب أن ينكحها، ويكره أن يزوجها رجلاً، فَيُشْرِكه في ماله بما شركته، فيعضلها، فنزلت هذه الآية)[٢] قال الإمام الطبري رحمه الله عن تأويل هذه الآية أن هذا: في أمر يتامى النساء اللاتي لا تُعطونهن ما كُتب لهن، يعني: ما فرض الله لهن من الميراث عمَّن ورثنه. وقد كانت المرأة مهضومة الحقوق، وكذلك الصبي الصغير: فالمرأة إذا كانت عند ولي، قد رغب عنها، حبسها إن لم يتزوجها، ولم يدع أحداً يتزوجها. وكذلك كان أهل الجاهلية لا يُورِّثون النساء ولا الصبيان شيئاً، ففرض الله تعالى لهم الميراث حقاً واجباً[٣]

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٤٠/٧)

(٢) البخاري (٢٢١/٣) برقم (٤٦٠٠)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٣٤/٧)

فكان يحبسها من أجل ما وَرِثَتْهُ، حتى لا يذهب عنه لمن تتزوج به. وقد بينت الآية الكريمة ذلك الواقع في قوله تعالى ﴿ٱلَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَانِ﴾ فالواقع الذي كانوا عليه في الجاهلية، هو منع النساء مما يستحقونه من الميراث ﴿ٱلَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ أي: منعهن مما فرض لهن من الميراث وغيره. وكذلك من صور المنع ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ وقد حمل هذا وجهين ليعطي دلالتين لا تناقض بينهما: الوجه الأول: أن يكون التقدير في ﴿أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أي ترغبون في أن تنكحوهن. والوجه الثاني: أن يكون التقدير: وترغبون عن ﴿أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾. ففي هذا السياق البلاغي الذي استوعب هذين الوجهين بسبب حذف حرف الجر، أدى إلى تكثير المعنى، حتى يستوعب حالتين، وفي كل واحدة منها إلحاق ضرر على اليتيمة. ففي الحالة الأولى: عند الرغبة في نكاحها، لم يعدل في صداقها، الذي هو المهر. فيجحف في حقها. وفي الحالة الثانية: عند الرغبة عن نكاحها، فيمنعها عن أن تتزوج، رغبة في مالها، حتى لا تذهب به لغيره. وهذا من غزارة النص القرآني الكريم.

ورجح الإمام الطبري معنى: وترغبون عن أن تنكحوهن، لأن حبس أموالهن عنهن، مع عضلهن، ليرثوا أموالهن، دون أن يتزوجن[1] قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ رغبة أحدكم عن اليتيمة التي تكون في حجره، حين تكون قليلة المال والجمال، فنُهُوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط، من أجل رغبتهم عن هن[2]

كما تضمنت الآية الكريمة حماية حق المستضعفين من الصغار واليتامى. فقال الله عَزَّ وجل ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: وكذلك يفتيكم

(١) الطبري، جامع البيان (٥٤٣/٧) ابن الجوزي، زاد المسير (٢٠١/٢) الشوكاني (٥٢٠/١)

(٢) مسلم (٢٣١٣/٤-٢٣١٤) برقم (٣٠١٨)

الله تعالى في حق المستضعفين من الولدان الصغار، أن تعطوهم حقهم من الميراث وغيره، ومنع الاستيلاء على أموالهم، بالاستبداد والظلم، بل أوجب حفظها وصيانتها، وأن يكون قيامكم على اليتامى بالعدل.

وفي جملة ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَـٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ﴾ ما يفيد شمولية القيام: للتضمن جميع ما يخص اليتيم، من التربية وحفظ الدين، والمال وتنميته، وحفظ العقل والنفس، وفي جميع مصالحهم الدينية والدنيوية، كما أن في اشتراط القيام ﴿بِٱلْقِسْطِ ﴾ ما يضمن العدل، وعدم الحيف، فيكون ذلك القيام بميزان العدل.

ثم استحثهم تبارك وتعالى على أداء هذه المسؤولية وضبطها بشمولية علمه عن القائمين بتلك المسؤولية ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾ وقد رغبهم في فعل الخير من خلال ما يُفترض أن يقوموا به ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ ﴾ دون ذكر البخس والحيف الذي يمكن أن يكون. فكأنه يُستبعد بعد هذا التوجيه أن يحصل خلافه. ومن الدقة البيانية قوله تعالى ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ ﴾ ليشمل جميع أنواع الخير، وأجزائه، ودرجاته، وكذلك من حيث ما كان لازماً، وما كان متعدياً، وما كان واجباً، وما كان مندوباً. ثم عزو ما يقومون به من خير إلى علم الله تعالى ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾ وفي هذا حث بأسلوب الرجوع إلى الحقيقة التي هي كمال إحاطة علم الله ربكم بما تعملون معهم. فبما أن الله تعالى به عليم، فإنه لن يترك مثوبتكم على ذلك، بل سيكون لكم ما تستحقون من كرمه سبحانه وتعالى. فأوكلهم في مراقبة أداء المسؤولية إلى علمه سبحانه وتعالى، وكذلك أوكلهم في الاجتهاد لتحصيل الخير إلى علمه عَزَّ وجل الذي يخلفه الجزاء والثواب منه عَزَّ وجل.

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى عملية البناء والإصلاح الأسري بين الزوجين، من خلال تقديم حلول عملية تحقق لهما التعايش الكريم، بدلاً من الافتراق، فقال تعالى ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ﴾ وهذا العرض متعلق بحال المرأة فيما تراه من زوجها، فإذا غلب على ظنها مما لاح لها من تصرفاته، بما يفيد التيقن،

مما يجعلها تخاف من تباعد زوجها عنها ﴿نُشُوزًا﴾ أي يتجافى ويتباعد عنها، بأن يمنعها من نفسه ونفقته ومودته، وأن يؤذيها بسب وشتم، أو بضرب، أو يحصل منه النأي عن مؤانستها ﴿أَوۡ إِعۡرَاضٗا﴾ بأن يقلل من محادثتها ومؤانستها، فلا إثم عليهما ولا تثريب ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗا﴾ وهذا يفيد الإباحة والإذن بأن يصطلحا فيما بينهما على ما يتفقان عليه من بنود للمصالحة، وسياق ﴿أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗا﴾ يستوعب أن يكون من خلال طرف آخر غير الزوجين، أو من خلال نفس الزوجين بالتفاوض فيما بينهما. وهذا السياق بهذه الدلالة يحمل بلاغة بيانية، قد تشبعت بالاستيعاب لعامل الصلح في أوجهه وأسبابه.

ومن مجالات الصلح أن تسقط الزوجة بعض حقوقها، وتتنازل عنها، ولا حرج عليها في بذلها ذلك له، وللزوج أن يقبل ذلك منها، ولا عليه حرج في قبوله منها، فقد رفع الله تعالى الحرج بينهما فيما يصطلحان عليه ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗا﴾ ثم رجح لهما اختيار الصلح، وتقديمه على التنائي وقطع العلاقة ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ وجاء هذا الترجيح بصيغة الترغيب، وليس بصيغة الأمر به، وذلك من خلال وصف الصلح بالخيرية، فانتفى الشر منه ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ فأفاد ترجيحه على الشقاق والانفصال، وبالتالي فهو أفضل من المفارقة، باعتبار ما يحمله من الخير، وما يندفع به من الشر. ويؤيد ذلك نفي الجناح وهو الإثم ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ﴾ فنفي الإثم عن ما يصطلحان عليه، وفي نفي الإثم إشارة إلى أنه قد يتضمن بنوداً من التنازلات عن بعض الحقوق، والقبول والتراضي به بين الزوجين، وهذا يتطلب الْمُلَايَنَة والتسامح، وغض الطرف عن الهفوات. فعن أم المؤمنين، عائشة رضي الله عنها قالت: هي المرأة تكون عند الرجل، لا يستكثر منها، فيريد طلاقها، ويتزوج غيرها، تقول له: أمسكني ولا تطلقني، ثم تزوج غيري، فأنت حل من النفقة عليَّ، والقسمة لي، فذلك قوله تعالى ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗا﴾[1] وهذا يدل على عناية واهتمام الإسلام بالبناء الأسري، والحفاظ عليه. وتجاوز أسباب التفكك.

---

(١) البخاري (٣/ ٣٩٠) برقم (٥٢٠٦)

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ولَمَّا أن الوفاق أحب إلى الله تعالى من الفراق قال ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ بل الطلاق بغيض إليه سبحانه وتعالى[١] وجاء في الحديث (أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق)[٢] قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى عن قوله تعالى ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ لفظ عام مطلق، يقتضي أن الصلح الحقيقي الذي تسكن إليه النفوس ويزول به الخلاف خير على الطلاق، ويدخل في هذا المعنى جميع ما يقع عليه الصلح بين الرجل وامرأته في مال، أو وطء، أو غير ذلك ﴿خَيۡرٞ﴾ أي: خير من الفرقة، فإن التمادي على الخلاف والشحناء والمباغضة هي قواعد الشر[٣]

ثم ينبه تبارك وتعالى إلى الحالة النفسية الطبيعية عند الإنسان، حتى لا يغفل عنها، ويراعيها ويأخذها في الاعتبار عند التعامل والإصلاح ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ فالشح حاضر للنفوس، لا يغيب عنها أبداً، ولا تنفك عنه، يعني أنها مطبوعة عليه[٤] وهذا إخبار بأن الشح في كل أحد، وأن الإنسان لا بد أن يشح بحكم خلقته وجبلّته، حتى يحمل صاحبه على بعض ما يكره. ويكون هذا الشح من الزوج ومن الزوجة، فإن الغالب على المرأة الشح بنصيبها من زوجها، والغالب على الزوج الشح بنصيبه. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: والشح الضبط على المعتقدات والإرادة، وفي الهمم والأموال، ونحو ذلك. فما أفرط منه على الدين فهو محمود، وما أفرط منه في غيره ففيه بعض المذمَّة. وما صار إلى حيِّز منع الحقوق الشرعية أو التي تقتضيها المروءة فهو البخل، وهي رذيلة. وإذا آل البخل إلى هذه الأخلاق المذمومة والشيم اللئيمة لم يبق معه خير مرجو، ولا صلاح مأمول.[٥]

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٧٦/١)

(٢) أبو داود، برقم (٢١٧٨) وهو ضعيف.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٦٠/٥)

(٤) الزمخشري، الكشاف (٥٨٥/١)

(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٦٠/٥-٢٦١)

وفي تقرير خصيصة الشح ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ دليل عملي على أن منهج الإسلام لا يجرد الإنسان عن طبيعته، بل يهذبها، ويرشده إلى وجودها لكي يَحْذَرَّها في مواطن الحذر. فإن كانت مذمومة في مواقف، فهي محمودة في غيرها، كما سبق ذكره آنفاً، وهو: أنه ما أفرط منه على الدين فهو محمود.

ثم وجه ربنا تبارك وتعالى الزوجين إلى ركيزتين عظيمتين، وكفيلتين بإصلاح حياة الأسرة بكاملها، بل بحياة الإنسان مع غيره من الأفراد والجماعات ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فالإحسان والتقوى مدار وركيزة تدور عليها الحياة الطيبة. قال الزمخشري رحمه الله تعالى عن قوله سبحانه وتعالى ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟﴾ بالإقامة على نسائكم وإن كرهتموهن، وأحببتم غيرهن، وتصبروا على ذلك مراعاة لحق الصحبة ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ أي تتقوى النشوز والإعراض، وما يؤدي إلى الأذى والخصومة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإحسان والتقوى ﴿خَبِيرًا﴾ وهو يثيبكم عليه[1] وفي ربط الإحسان والتقوى بعلمه، ما يفيد بأن الله تعالى مطلع بكنه وحقيقة ما تعملون من الإحسان والتقوى، وأنه لا تخفى عليه خافية، فيثيبكم على إحسانكم وتقواكم له تبارك وتعالى. فلن يضيع لكم شيئاً مما تُقدمون من الإحسان والتقوى وما يلزمها من الصبر والبذل.

وركيزة الإحسان تقتضي الزيادة والمبالغة عن الواجب فيما هو للطرف الآخر فيما بين الزوجين. جاء في معنى الإحسان أنه أعم من الإنعام، وأنه فوق العدل، وذاك أن العدل هو أن يعطي ما عليه، ويأخذ ما له، والإحسان أن يعطي أكثر مما عليه، ويأخذ أقل مما له، فالإحسان زائد على العدل، فتحري العدل واجب، وتحري الإحسان ندب وتطوع. والإحسان يقال على وجهين: أحدهما: الإنعام على الغير، والثاني: الإحسان في الفعل والأداء، إذا عَلِمَ علماً حسناً، أو عَمِلَ عملاً حسناً[2] وإذا تعامل الزوجان بمقتضى الإحسان الذي وجَّه اللهُ تعالى به كانا على قدر كبير من

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٥٨٥/١)

(٢) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (١١٩)

التعايش الذي يتوشح بالمودة والملاطفة والتوافق والتوفيق والتسديد، وتقل فيه المشاحنة، وتضمر فيه أسباب الشقاق والشحناء. وكذلك إذا توشحت العلاقة بالركيزة الثانية: وهي التقوى: فقد تكاملت ركيزتي النجاح. والتقوى متضمنة للخوف والخشية من الله تعالى، والتي توجب الامتثال لأوامره واجتناب نواهيه سبحانه وتعالى. فيصبح طرفي الأسرة مدفوعان بالتقوى إلى العدل والإحسان، بما ينعكس على العلاقة بينهما.

ومن الفوائد: أن في هذا حلول جامعة، بتقعيد قاعدة عامة، تستوعب جميع أسباب الخلاف الذي يمكن أن يستوعبه الصلح والاتفاق، مع الترجيح والحث على خيار الصلح، وتقديمه على المفارقة، لِمَا قد يترتب عليه من أمور متنوعة ومختلفة لا حصر لها، فاستوعبها النص القرآني الكريم بقاعدته العظيمة التي استوعبت جميع المتعلقات والجوانب المتعلقة بهدف القاعدة، والمعنيين بها، ومن ذلك أن الزوجة قد لا تستطيع القيام ببعض الحاجات الواجبة للزوج بمرض، أو ضعف، أو لأي سبب من الأسباب المتنوعة، فلها أن تُسقط حقاً لها مقابل الصلح والبقاء على العشرة، أو قد تقبل عن ما يدفعها لفراقه، لعلة في الزوج، بما يمكنها من الصبر عليه، عوضاً عن المفارقة. فقد يكون النشوز أو الإعراض بسبب عارض أو عائق متعلق بالزوج، فيمنعه من تمام تحقيق واجب العشرة معها، فقد يكون في خُلُقه وتعامله، أو في غير ذلك.

ثم بين الله تعالى حقيقة متعلقة بالطبيعة البشرية ﴿ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡ ﴾ فأولاً: لم يجرد الخالق تبارك وتعالى مخلوقه عن طبيعته وقدرته، وعن وسعه. قال القرطبي رحمه الله تعالى: أخبر تعالى بنفي الاستطاعة في العدل بين النساء، وذلك في ميل الطبع، بالمحبة والجماع والحظ من القلب. فوصف الله تعالى حال البشر بما هو من مقدورهم، وأنهم بحكم الخلقة لا يملكون ميل قلوبهم إلى بعض دون بعض[١] وجاء في الحديث عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم فيعدل، ويقول (اللهم

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥/٢٦١)

هذا قَسْمِي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك)[١] وثانياً: أثبت تبارك وتعالى لهذا المخلوق عدم القدرة على بلوغ حد الواجب والتام في العدل بين الزوجات، وهو في ميل الطبع.

وثالثاً: وجَّهَهُ تبارك وتعالى بما يتناسب مع وسع هذا المخلوق وقدرته، بما يفيد أهمية النظر إلى الطبيعة البشرية، وما يعتريها من النقص أثناء التعامل معها، حتى يكون ذلك أدعى للتفاعل والقبول لبعضهم البعض. ورابعاً: أن هذا الدين هو دين حق وعدل، حتى في أمره ونهيه، فجاء العدل في رفع الحرج عَمَّا ليس للرجل قدرة فيه، وألزمه وأوجب عليه فيما هو من استطاعته. وخامساً: حدد التوجيه الكريم موقع عدم الاستطاعة، وهو: العدل، وحدد نطاقه، في أنه العدل بين الزوجات. وسادساً: وجهه إلى عدم إجهاد النفس في تحقيق ما لا قدرة له في تحقيق كماله وتمامه، مهما بلغ وكان الحرص، حتى يرفع عن الْمُكَلَّف العناء وللوم النفسي الذي يتأرق به المؤمن الخائف من الله تعالى، ولكن وجهه إلى ما يتحقق به الاستطاعة البشرية ﴿ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ فجاء بالأمر الذي يقتضي الوجوب، فيما يملكه الزوج من الاستطاعة، وهو الميل الكلي ﴿ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ ﴾ قال مجاهد: ولا تتعمدوا الإساءة، بل الزموا التسوية في القسم والنفقة، لأن هذا مما يُسْتَطَاع.[٢] وقال الشوكاني: فلا تجوروا على المرغوب عنها كل الجور، فتمنعوها قسمتها من غير رضى منها. يعني اجتناب كل الميل مما هو في حد اليسر والسعة، فلا تَفْرِطُوا فيه إن وقع منكم التفريط في العدل كله، وفيه ضرب من التوبيخ[٣]

وجملة ﴿ كُلَّ ٱلْمَيْلِ ﴾ تفيد أن المنهي عنه هو الميل الكلي، وهو الذي يملكه الزوج على وجه العموم، أما الجزء المفقود الذي يخرج من الكل، وهو الميل المخصوص الذي لا يستطيع أن يعدل فيه، فلا لائمة عليه فيه. وهذا من رحمة الله تعالى. فانتفى بذلك من جميع وكل الميل تمام العدل القلبي ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ مما يفيد الإعجاز البياني

---

(١) أبو داود، برقم (٢١٣٤)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥/٢٦١)

(٣) الزمخشري، الكشاف (١/٥٨٦)

والتشريعي والتكليفي التكاملي بين عدم الاستطاعة على كمال العدل وبين الأمر بعدم الميل الكلي الذي يحصل به الإجحاف ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ فهي قاعد لكل زوج يجد في نفسه ميل، فيجتهد على أن لا يظهر منه إلا العدل.

ثم بين سبحانه وتعالى صورة الميل الكلي ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ التي تمثل صورة حالتها بأنها كالمتزوجة حقيقة من حيث الاسم وعقد النكاح، وليست متزوجة من حيث قيام الحقوق الزوجية، فهي مماثلة للتي لم تتزوج. وفي نفس الوقت ليست مطلقة، كأن ليس لها زوج يرعاها ويقوم بشأنها. وهذه صورة بلاغية غاية في الإيضاح وإيصال المراد والمعنى. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أي لا هي مطلقة، ولا ذات زوج، وهذا تشبيه بالشيء المعلق من شيء. لأنه لا على الأرض استقر، ولا على ما عُلِّق عليه انحمل[١]

ثم يحث الله تبارك على أمرين عظيمين يوجبان الإصلاح الأسري، ويتحقق بهما المغفرة من الله تعالى ﴿وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أي وإن أصلحتم في أموركم، وقسمتم بالعدل فيما تملكون، واتقيتم الله في جميع الأحوال، غفر الله لكم ما كان من ميل إلى بعض النساء دون بعض[٢] فأمران مهمان للنجاة في الآخرة، ويتحقق بهما التوافق الأسري بإذن الله وتوفيقه، فالأمر الأول: ﴿وَإِن تُصْلِحُواْ ﴾ والإصلاح ضد الفساد، وهو يوجب نقل واقع الحال إلى التصحيح والتحسين، بما ينصلح به الشأن. وقد جاء لفظ ﴿وَإِن تُصْلِحُواْ ﴾ بصيغة الشرط، وكذلك بنون التوكيد التي تفيد التأكيد، وكذلك جاءت بدلالة العموم لتستوعب جميع أوجه الإصلاح، والأمر الثاني: ﴿وَتَتَّقُواْ ﴾ وهي كذلك معطوفة على ﴿وَإِن تُصْلِحُواْ ﴾ بصيغة الشرط المؤكدة، والتقوى تتضمن المحاسبة الذاتية بين العبد وبين ربه، وليست المحاسبة بين الإنسان والإنسان التي يمكن أن يُتَّقَى مراقبته بالتخفي والتستر، فيحاسب الْمُتَّقِي نفسه قبل أن يحاسبه الله تعالى، خوفاً من عقابه، ورجاء مغفرته. فإذا أقام الزوجان العلاقة على هذا المقصد فلهما من

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٦١/٥)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٧٧/١)

الله تعالى المغفرة فيما لا يقدرون عليه، وفيما يفوتهما ﴿وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ فلا يزال الله بكم يغفر ويرحم، وبهذا قد فتح الله تبارك وتعالى للزوج باب المغفرة والرحمة فيما يفوته ولا يقدر عليه. فكانت هذه الأحكام وما رفع من الحرج عن الزوج، رحمة منه تبارك وتعالى، وكذلك فيما حث عليه من العدل والإنصاف في حق الزوجة، فكلاهما مرحومان بأحكامه وعدله، فضلاً عن رحمته الشاملة سبحانه وتعالى.

ومن الفوائد: تكرار الأمر بالتقوى مرتين: فالأولى: ﴿وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ والثانية: ﴿وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ مما يؤكد أهمية التقوى في صلاح شأن المؤمن، فعليه التزامها، فإنها عظيمة الأداء، وعظيمة الثمرة في دار الدنيا والآخرة.

ثم يتحول الخطاب إلى الحالة الأخرى، وهي حالة الفراق، إذا لم يكن إلا هو الحل لهما. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾ فإن يُفَارِق كلُ واحد منهما صاحبه، يرزقه الله تعالى ويغنيه عن الآخر، وقد يكون الفراق خير من البقاء مع سوء العشرة، وهذه الاية العظيمة توجيه لإحسان الظن بالله تعالى فيما هو قادم لكل منهما ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ مما يفيد أهمية الأمل والرجاء. فإن الأمور بيد من بيده الْغِنَى والْسِّعَة، كما يفيد هذا أنه إذا استمر هذا الحال القائم بين الزوجين، وتعذر الإصلاح، فقد يكون القادم خير وأفضل. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: وإن لم يصطلحا، بل تفرقا فليحسنا ظنهما بالله، فقد يُقَيِّض للرجل امرأة تقر بها عينه، وللمرأة من يوسع عليها[1] ثم خُتِمَت الآية الكريمة بما يستدعي كبير الأمل، والرجاء في الله تعالى، وهو خير رجاء عَزَّ وجل، فيقول سبحانه وتعالى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾ فهو واسع في الفضل، ومُوسِّع على عباده من فضله، وكذلك هو مُوسِّع في أحكامه وتشريعه، وكذلك ربكم عظيم الْمَنِ والعطاء، فقد وَسَّعَ على الزوجين بإباحة الفراق

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥/٢٦٢)

والعوض بالغنى لكل واحد منهما عَمَّا أصابه. وحكيم في تشريعه وأقداره وعطائه وإسدال فضله وثوابه سبحانه وتعالى. لتكون خاتمة الآية الكريمة عاضدة ومضمدة لجروح الزوجين، بغناه وسعة فضله وحكمته عَزَّ وجل.

ثم تتكرر التوصية بالتقوى، بعد البيان بعظيم ملكه سبحانه وتعالى وغناه عن خلقه عَزَّ وجل، فقال تبارك وتعالى ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ فبدأت الآية الكريمة بالتذكير بأن له سبحانه وتعالى مُلك السموات والأرض، مما يفيد غناه عن خلقه أجمعين، وهذا البيان باعتبار ما قبله من شأن الأزواج والعدل والفراق، بما يبين أن له سبحانه وتعالى هذا الملك العظيم، ليستحثهم على ما عنده من الخير والإحسان والإصلاح، وأنه في حالة الفراق بالطلاق فإنه مَطْمَعٌ للعِوض العظيم عما حصل وعما فاتها بسبب الطلاق. وأما باعتبار ما بعدها، فهو مقدمة للطاعة والاستجابة والأخذ بالتقوى، فإن الأمر ممن له ملك السماوات والأرض. فيكون الأمر مهيب بملكه وعظمته التي تستوجب الأخذ بوصيته سبحانه تعالى بلزوم التقوى.

فهذه الوصية مُعَزَّزة بأنها ليست خاصة بكم، بل إنها وصية الله تعالى لمن قبلكم من الأمم التي أنزل الله تعالى عليهم كُتُبه ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ وفي هذا ما يدل على أهميتها، وأنها مرادة من الله تعالى حتى فيمن سبقكم، بما يدل على أهميتها، ووجوب الأخذ بها، وأنها وصية عظيمة جليلة. كما أن في ذلك تشجيع واستحثاث بالأخذ بها، وألا يسبقكم من كان قبلكم فيستأثرون بأخذها، فلا تضيعوها. فقد وصيناهم وأوصيناكم، وأمرناهم وأمرناكم بالتقوى. والأخذ بالتقوى يستوجب الطاعة، والاستجابة لما جاء في كتبه سبحانه وتعالى، وأيضاً ما جاء على لسان الرُّسل عليهم الصلاة والسلام، وخاتمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وإن حصل منكم الكفر أيها الناس فليس هناك ضرر، لأن الله تعالى غني، فله ملك السموات والأرض ﴿وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ ففي ذلك بيان أن إيمانكم وتقواكم لا ينتفع الله تعالى بها، ومعصيتكم لا تضره في شيء، بل إنه غني عن غيره، وكل غيره خلقه، فملكه أعظم وأوسع وأكبر، فهو يملك ما في السموات والأرض، وما أنتم إلا جزء من هذا الملك، بما يفيد أن حاجتكم وافتقاركم أيها الناس هي لمن كفرتم به عَزَّ في علاه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ فهو غني عن كل شيء، ومنها غناه عن طاعة مخلوقاته، وأنه محمود في شرعه وأقداره، وهو المستحق للحمد والشكر، لكثرة محامده على خلقه.

ثم تكرر قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ قال الزمخشري رحمه الله تعالى: تقرير لما هو مُوجب تقواه، ليتقوه فيطيعوه، لأن الخشية والتقوى أصل الخير كله[1] وفي هذا بيان عن افتقار وحاجة عبيده له، وغناه عنهم. وكفى به سبحانه وتعالى قائم على كل أمر، وشهيد عليه، وحافظ له. وفي هذا ما يفيد الوعظ التحذيري من مخالفة أمره، سواء فيما سبق من أمر النساء أو فيما بعد ذلك من الأوامر والنواهي، بل في كل شرعه وتوجيهه سبحانه وتعالى.

ثم يتدرج الوعظ التحذيري منه تبارك وتعالى إلى الاستبدال بغيركم ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ فإن شاء يُذهبكم بإهلاككم أيها الناس، ويأتي بغيركم، فيفنيكم إلى العدم، ويوجد غيركم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ فإن ربكم عَزَّ وجل بليغ القدرة في إفنائكم وإيجاد غيركم، فلا يمتنع على قدرته شيء، وفي هذا ترهيب وتخويف وزجر، للمشركين والمنافقين وعموم الكافرين. وما يزجرهم ويحذرهم ويأمرهم بالتقوى إلا لإرادة الخير بهم سبحانه، وهو أرحم الراحمين.

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٥٨٧/١)

ثم يبين تبارك وتعالى أنه المتحكم في العطاء ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ وقد ذكر الإمام الطبري رحمه الله تعالى: من كان من العاملين في الدنيا من المنافقين، يريد بعمله ثواب الدنيا وجزاءها من عمله، فإن الله مجازيه بها. جزاءه في الدنيا من الدنيا، وجزاءه في الآخرة من العقاب والنَّكال، وذلك أن الله قادر على ذلك كله، وهو مالك جميعه[1] مما يفيد أهمية ابتغاء وجه الله تعالى والإخلاص له عَزَّ وجل. فمن يريد بعمله السمعة والرياء، فيتحقق له ذلك، ثم بين سبحانه وتعالى أنه لا يخفى عليه شيء من مراد أحد في عمله وقوله ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ فهو متصف بالسمع فيسمعكم، ومتصف بالبصر فيبصركم، فلا يخفى عليه منكم خافية، فكله معلوم لديه، وفي هذا تحذير للمنافق وللمرائي، كما أن فيه ترغيب للمؤمن بأنه لن يُضَيّع لَهُ شيء من قول وفعل.

وتفيد دلالة ﴿ فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ التحفيز لطاعته عَزَّ وجل وسؤاله والالتجاء إليه في طلب ثوابه وإحسانه، والهداية والعون والإخلاص له سبحانه وتعالى، والاستعانة به والافتقار إليه، لأنه هو الذي يملك ثواب الدارين، وهو الذي يعطي منها بحكمته وفضله، فاللهم نسألك من فضلك العظيم في الدنيا والآخرة وللمسلمين أجمعين.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٨٣/٧)

ينتقل السياق القرآني الكريم إلى عموم العدل، والنهي عن اتباع الهوى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾ فابتدأت هذه الآية الكريمة بأسلوب النداء الذي يحمل في دلالته لفة الانتباه، وإرعاء السمع، وأخذ الأمر بما تضمن من توجيه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وفي تسميتهم بالذين آمنوا ما يفيد أنه حري بكم أن تستجيبوا لما تسمعون من خطاب رب العالمين، لأنكم آمنتم به وبرسوله صلى الله عليه وسلم، كما أن فيه مدح وثناء لهم بتقرير إيمانهم، وأنه ينتفي معه التعذر عن عدم الوفاء بمضمون ما نُودُوا له. كما أن في مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل.

وهذا يفيد القيمة الأخلاقية في خطاب الآخرين، فإذا كان الله تعالى يخاطب عباده بهذا النداء الذي يحمل المدح والتكريم، وهو من الخالق للمخلوق، فإن قيمته الأخلاقية ومنزلته مُتَحَتِّمة بين المخلوقين، الذين يتساوون في عبوديتهم لله تعالى، فكلهم عبيد لله تعالى، والاقتداء بذلك حق أخلاقي بين المسلمين في مخاطبة بعضهم بعضا بأحسن الألفاظ والعبارات. كما أن في هذا الأسلوب استحثاث وتشجيع للمخاطَب نحو ما خُوطِب به. وهذا من لطفه وتلطفه سبحانه وتعالى بعباده، والذي يبين وجهاً من أوجه اسمه وصفته تبارك وتعالى (اللطيف)

ويعقب هذا النداء الإيماني الأمر بأن يكونوا قائمين بالعدل، وهو القسط ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾ فأمر سبحانه وتعالى بلزوم العدل، وتفيد مفردات الجملة فوائد عديدة، بما يدل على غزارة المعاني التي يحملها الأمر، والمأمور به. فدلالة كلمة ﴿كُونُواْ ﴾ أمر بأن يبلغ منهم المطلوب وهو العدل مبلغ الثبات والديمومة والمواظبة، ودلالة ﴿قَوَّٰمِينَ ﴾ تدل على الكثرة والتكثير والتكرار حتى يصبح العدل صفة لهم، وهي من صيغ المبالغة، التي تفيد المبالغة في تحري العدل، والعمل بمقتضاه، والتحفظ والتحرز مما يضاده من الجور.

وهذا الأمر بالقسط حتى تكون شهادة الشاهد على ما يشهد منصفة وحاملة لتمام وكمال العدل. ثم وجههم لِمَا يُثبت العدل في النفوس، ويبعدها عن الشطط والحيف، فلا تؤثر فيها تصاريف الأهواء والمصالح الخاصة والمجاملات والشفاعات السيئة، بأن تكون لله تعالى ﴿شُهَدَآءَ

لِلَّهِ﴾ أي: أدوها ابتغاء مرضاة الله تعالى، فذلك يدفع النفس إلى لزوم الصواب والعدل، ومبتعدة عن الكتمان وعن التحريف والتضليل. بل يجب القيام بها عدلاً ولو عاد الضرر على نفس الشاهد، أو حتى الوالدين، أو الأقربين ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: وهو العدل في شهادتكم على أنفسكم، وشهادة المرء على نفسه إقراراً بالحقوق عليها، ثم ذكر الوالدين لوجوب برهما، وعِظَم قدرهما، ثم ثنى بالأقربين إذ هم مظنة المودة والتعصب، فكان الأجنبي أحرى أن يقام عليه بالقسط[١] فإذا أقام الإنسان القسط على نفسه وعلى والديه والأقربين، فإنه من باب أولى أن يقوم بالقسط على غيرهم من الأجانب. فتربية النفس على الأشق والأصعب يحقق لها أداء الأسهل من غير تكلف.

وهذا يتطلب إعطاء الحق من النفس، والإقرار بما هو عليها من الحقوق، ومجالدة الهوى، والحيل النفسية التي قد يرتكز فيها التبرير غير الحقيقي لإرضاء النفس بما تظلم، ثم التدرج في التوجيه الكريم لما بعد النفس، وهما ﴿ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ ﴾ بأن يشهد بما عليهما من الحق للغير بالرغم من محبتهم الغريزية، وأنهما أحب الخلق إليه، ثم التدرج إلى ﴿وَٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ الذين يتناصر ويتعاضد بهما، وهم محل المودة والتقدير، وجميع تلك الأصناف تحتاج مغالبة ومجالدة النفس فيها، بما يؤكد أن هذا الدين هو دين حق وعدل، وأن العدل فوق النفس والوالدين والأقربين. وأن الظلم وشهادة الظلم من الكبائر العظيمة.

ثم يحرر الله تعالى لعباده أسباب ما يقعون فيه، إما محاباة، أو إشفاقاً، بما يؤثر في إقامة العدل والقسط في الشهادة ﴿إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَا ﴾ فلا تراع في المشهود غناه، فتحابيه استعطافاً لبره وعطائه ونفعه، أو ليدفع ضر سلطته فلا يشهد عليه، أو يراعي فقر الفقير، إشفاقاً عليه. وعن ابن كثير رحمه الله تعالى، أي: لا ترعاه لغناه، ولا تشفق عليه لفقره، والله يتولاهما، بل هو أولى بهما منك، واعلم بما فيه صلاحهما ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْ ﴾ فلا يحملنكم الهوى والعصبية، وبغض الناس إليكم على ترك العدل في أموركم وشؤونكم، بل الزموا

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٦٣/٥)

العدل على أي حال كان ﴿ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ واللي هو التحريف، والإعراض هو كتمان الشهادة وتركها[1] فإن تحرفوا الشهادة وتغيروها، وتتعمدوا الكذب، أو كتمان الشهادة وتركها ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ فهو ذا خبرة وعلم بكم، فيحفظ ما يحصل منكم، سواء كان لكم أو عليكم، ثم يجازيكم به، مما يلزم أن تتقوه وتحذروه، فإنه لا يغيب عنه تبارك وتعالى منكم شيء أبداً.

وفي قوله تعالى ﴿ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ﴾ ما يدل على أن متابعة الهوى تُرْدِي النفس في المكروهات والمحرمات، وأنه من الواجب مغالبة الهوى، وعدم مطاوعة النفس في هواها، وهذا يتطلب ويحتاج مجاهدة ومغالبة النفس، من أجل الانتصار عليها، حتى يكون ذلك سجية للإنسان، فإن التوجيه الكريم من الله تعالى في أول الآية قد تضمن المبالغة التي تفيد التكرير والتكثير، وهي لفظة ﴿ قَوَّٰمِينَ ﴾ الدالة على الكثرة والتكثير والتكرار حتى يصبح العدل صفة لكم، وهذا من التجانس والتعاضد اللفظي للمعاني المقصودة، بما يبين غزارة البلاغة البيانية، والبلاغة النصية، والبلاغة التوجيهية المتناهية في عظمتها وجلالتها. فلا يمنعكم الهوى عن العدل. كما يدل هذا على قدرة الإنسان بأن يتغلب على هواه، وملازمة العدل وممارسته، وتحريه حتى يكون صفة وسجية له، ولا يستطيع استبداله بالجور والحيف مهما بلغ به الأمر. لأن لفظة ﴿ قَوَّٰمِينَ ﴾ تدل على التكثير والتكرار.

ومن الفوائد: التحذير من خلال إحاطة علم الله تعالى بالْمُخَاطَب ﴿ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ فإن تَلْوُوا وتحرِّفُوا، أو تكتموا الحقيقة بالإعراض عن قولها، فإن الله تعالى ذو خبرة وعلم بكم. كما أن دلالة ﴿ تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ ﴾ تحمل جميع أوجه التلاعب في الشهادة، إما كذباً: بالقول والاستدلال، أو بالشواهد والأدلة الكاذبة، أو الجحود والكتمان والإنكار. وهذ من الدقة البيانية التي حوت بلفظتين جميع أوجه التلاعب بالشهادة. وذكر ابن

---

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٥٧٨-٥٧٩)

الجوزي رحمه الله تعالى: أن من مقاصد ودلالات ﴿تَلْوُۥٓا۟ ﴾ أن يلوي الشاهد لسانه بالشهادة إلى غير الحق. وأيضاً: أن يلوي الحاكم وجهه إلى بعض الخصوم، أو يعرض عن بعضهم، وأيضاً من دلالاتها: أن يلوي الإنسان عنقه إعراضاً عن أمر الله لكبره وعتوه[1] وهذه الدلالات استوعبت أيضاً الشخوص، وطريقتهم في الإعراض

وفي قوله تعالى ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ﴾ قاعدة تربوية وسلوكية عظيمة لتهذيب النفس، وردعها عن هواها، فإذا غالبته نفسه عن القسط والعدل، زجرها بقوله ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ﴾ وإن زين له أحد الخلق العدول عن الحق، انتصر عليه وعلى نفسه بقوله ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ﴾ وإن ذهب رجاؤه في غنى غني، ردع هواه بقوله ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ﴾ وإن ذهب به الخوف من بطش قوي، استقوى عليه وعلى خوفه بقوله تعالى ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ﴾ وإن ذهبت به شفقته إلى ضعيف، قال ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ﴾ وإن رأى شخصاً، قد حاد عن الطريق، نصحه بقوله تعالى ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ﴾ ليصبح هذا الجزء من الآية الكريمة قوة رادعة عن الباطل، ودافعة للحق، ومهذبة للنفس. فإن في كتاب الله تعالى قوة هازمة للباطل، ومناصرة للحق، ومبطلة ومفسدة على النفس طغيانها وهواها. وإن أشفق على فقير أو ضعيف غير محق قال لنفسه ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾

ثم يتكرر الخطاب للمؤمنين بياء النداء، وبتسمية المؤمنين بالمؤمنين. فقال الله تبارك وتعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ وتم بيان فوائد ودلالات هذا النداء في الآية الكريمة السابقة، وهي تحمل في دلالتها لفة الانتباه، وإرعاء السمع، وأخذ الأمر بما تضمن من توجيه، وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان، التي يفيد مضمونها وجوب لزوم الامتثال بما آمنتم، وكذلك تحمل

([1]) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٢٠٥-٢٠٦)

في دلالتها، التكريم للمُخَاطَبين، إذ ناداهم ربهم بصفة الإيمان، وهي رتبة عظيمة، ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده المؤمنين بها، والتي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر عن عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له، وكل هذا في شأن الإيمان، مما يدل على مكانة ومنزلة الإيمان، الذي جاء تفصيله تباعاً. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ فيأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل، وتقريره وتثبيته، والاستمرار عليه.

وبدأ الأمر بالإيمان بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم، فقال عَزَّ وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ثم تلاه ما يترتب عليه من التصديق بالقرآن الكريم. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ يعني القرآن ﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُ ﴾ فهذا جنس، يشمل جميع الكتب المتقدمة التي أنزلها الله تعالى على المرسلين عليهم الصلاة والسلام.

وهنا لفتة بيانية عظيمة، حيث قال الله تعالى عن القرآن ﴿ نَزَّلَ ﴾ لأنه نزل متفرقاً، منجماً على الوقائع، بحسب ما احتاج إليه العباد في معاشهم ومعادهم. وأما الكتب المتقدمة فكانت تنزل جملة واحدة، لهذا قال تعالى عنها ﴿ أَنزَلَ مِن قَبۡلُ ﴾ بينما عن القرآن قال تعالى ﴿ نَزَّلَ ﴾ ثم قال تعالى ﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ أي: فقد خرج عن طريق الهدى، وبَعُدَ عن القصد كل البعد[١] فمن يكفر بالله تعالى وبالملائكة وبكتب الله تعالى التي أنزلها، وبِرُسُلِهِ وباليوم الآخر فقد سلك غير طريق الحق والرشاد، وبَعُد عن الصواب المحقق للإيمان والهدى بُعْداً متناهياً، مما يفيد أنه قد أهلك نفسه، وتحقق له خسران الدنيا والآخرة،

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٧٩/١)

وفَوَّتَ على نفسه سعادة الدنيا والآخرة. وفي دلالة ﴿بَعِيدًا﴾ ما يدل على المبالغة المتناهية في النأي عن الحق، فإنه بَعُدَ بهذا الضلال بعداً متناهياً عن الهدى، فليس بُعداً هيناً، بل متناهياً، وفي هذا تعظيم لخطر وجُرم الكفر بموجبات الإيمان، بأن بَعُدَ بصاحبه هذا البعد المتناهي، بل أُكّدَ هذا الضلال بصيغة المفعول المطلق ﴿ضَلَّ ضَلَٰلًا﴾ حيث أن لفظة ﴿ضَلَٰلًا﴾ تفيد التأكيد، فتبين أنه ليس ضلالاً هيناً. مما يبين أن الإيمان حق متكامل لمن أراد الإيمان، وليس مبعضاً، يؤمن بما يشاء وينكر ما يشاء. بل يؤمن ﴿بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ وخاتمة المرسلين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ويتبعه ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ فتضمنت الآية الكريمة أصول الكفر، وأصول الإيمان، فمن آمن وصدق بها، فهو مؤمن، ومن لم يصدق بها فهو كافر.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ﴿١٣٩﴾ وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿١٤٣﴾ ﴾

يخبر الله تعالى عن حال الذين تمادوا في الكفر بعد إيمانهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ ويوضح ويخبر الله تعالى عمن دخل في الإيمان ثم رجع، ثم عاد فيه ثم رجع عنه، ثم تمادى في كفره حتى مات، فإنه لا توبة بعد موته، ولا يغفر الله تعالى له، ولا يجعل له مما هو فيه من الكفر والعقوبة مخرجاً، ولا طريقاً إلى الهدى ﴿ لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ وفي هذا النص حكم وتحذير من هذا الحال والمآل، والعياذ بالله تعالى من الكفر بعد الإيمان، مما يفيد أهمية سؤال الله تعالى التثبيت، والاستعانة به، والركون إليه عَزَّ في علاه.

ثم يبين تبارك وتعالى مآل المنافقين ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ فلم يقل تبارك وتعالى: أخبر، بل قال ﴿ بَشِّرِ ﴾ يقول الإمام الزمخشري رحمه الله تعالى: وضع ﴿ بَشِّرِ ﴾ مكان أخبر تهكماً بهم[١] وذلك لتلاعبهم بالايمان، فهم يُظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر، ويوالون الكفار، فجزاؤهم العذاب الشديد المؤلم ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى: أن المنافقين من هذه الصفة، فإنهم آمنوا ثم كفروا، فَطُبِع على قلوبهم، ثم وصفهم بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، بمعنى أنهم معهم في الحقيقة، يوالونهم ويُسِرُّون إليهم بالمودة، ويقولون لهم إذا خلوا بهم: إنما نحن معكم، إنما نحن نستهزئ، أي: بالمؤمنين في إظهارنا لهم الموافقة[٢]

ثم قال الله تعالى لهم ﴿ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ وهذا استفهام استنكاري، يفيد التوبيخ والتقريع، أي: كيف تبتغون وتطلبون العزة والمنعة والرفعة عند الكافرين، وهي له عَزَّ وجل، فهي حصرية عنده سبحانه وتعالى ﴿ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ فهي بجميع أنواعها لله تعالى، فيعطيها من يشاء، فكيف تبتغونها عند من لا يملكها، وهم مفتقرون إليها. مما يفيد أن

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٥٩١/١)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٧٩/١)

العزة مُلك لله تعالى، وأن على من يطلبها ويرجوها، فإنها في اتباع دين الله تعالى، وذلك بطاعته واتباع شرعه. لتحصل لهم العزة في الدنيا والآخرة. وهذا يفيد أنه لا عزة في موالاة الكافرين أبداً، وأن على المؤمن ألا يفكر فيها، ويبحث عنها عند الكافرين، وإنما هي في دين الله تعالى.

ثم يخبر الله تعالى عن ما يجب على كل مؤمن حال سماعهم الاستهزاء من الكفار بآيات الله تعالى ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: الخطاب لجميع من أظهر الإيمان من محق ومنافق. وقد كان المنافقون يجلسون إلى أحبار اليهود، فيسخرون من القرآن[١] فهذا محك للمنافقين، فإن كانوا مؤمنين فيلزمهم عدم مجالسة الكافرين إذا خاضوا في آيات الله استهزاء وكفراً. فإن جالسوهم فيكون الحكم هو قوله عزَّ وجل ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ وهذا يفيد اجتناب المواقف التي يحصل فيها شيء من الاستهزاء بآيات الله تعالى، والإنكار بالنصح إذا وجدت القدرة، أو القيام عنهم حال العجز، ليكون في القيام من مجلسهم اعتراض وعدم موافقة على ما حصل، وتجنباً للإثم. وهذا يوجب إجلال وتعظيم آيات الله تعالى، وإعزازها، والحذر من مجالس الفسوق التي لا يُوقَّر فيها أوامر الله تعالى وشرعه، وأما منتهى هذا النهي فهو في بيانه عزَّ وجل ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ وأما إذا قعدتم وأنتم تسمعون الاستهزاء والكفر بآيات الله تعالى ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ ثم يبين سبحانه وتعالى مآل الكافرين والمنافقين ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ فكما اجتمعوا على الباطل والكفر والاستهزاء، فإن الله تعالى جامع بين المنافقين والكافرين في جهنم.

ثم يكشف اللهُ تبارك وتعالى المزيد من حال المنافقين، بأنهم في حالة انتظار وترقب لما سيصير إليه أمركم ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ أي: يترقبون وينتظرون ما سيحل بكم أيها المؤمنون،

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥/٢٦٨)

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ فإن حصل الظفر للمؤمنين، احتجوا بما يُظهرون من الإيمان، حتى يكون لهم شيء من الغنيمة. وقد نسب الله تعالى النصر له ومنه تبارك وتعالى ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لأنه هو الناصر، وهو الفاتح على المؤمنين بفضله، وأما إن دالت الأمور على المؤمنين ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: إن كانت الدائرة للكافرين، قالوالهم: ساعدناكم حتى هابكم المسلمون، وخذلناهم عنكم. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: استحوذ على كذا، أي غلب عليه ﴿وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بتخذيلنا إياهم عنكم، وتفريقنا إياهم عَمَّا يريدونه منكم[1] وهذا يفيد خطورة النفاق والمنافقين في المجتمع الإسلامي، وأنهم يُظهرون ما لا يبطنون، وأن موقفهم موقف المتربص، فإنهم يَظْهَرُون في كل حال ومكان بوجه، فإن مسلكهم مسلك الخداع. فليس لهم قرار.

ويلاحظ أن المنافقين استخدموا أسلوب الاستفهام التقريري لإثبات معيتهم مع المؤمنين، وأيضاً نفس الأسلوب مع الكافرين، فاستفهامهم مع المؤمنين ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ ومع الكافرين قالوا لهم ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيتكلمون بثقة، حتى يخدعون من يخاطبونه، لتقرير حقهم في الغنيمة، فالهدف هو هدف دنيوي، مما يفيد أن المنافقين قد انحصرت أهدافهم في الاستحواذ الدنيوي، وهم يظاهرون بصوت من غَلب. وينقلبون عليه ساعة يُغلَب.

ومن الفوائد اللفظية أن الله سبحانه وتعالى سمى نصر المؤمنين فتحاً ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بينما سمى ظفر الكافرين نصيبا ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ قال الزمخشري رحمه الله تعالى عن تباين اللفظين: تعظيماً لشأن المسلمين، وتخسيساً لحظ الكافرين، فما هو إلا حظ دنيّ ولمظة من الدنيا يصيبونها.[2] وهذه من الدقائق البلاغية في الإعجاز البياني للقرآن الكريم، ففي كل

---

(١) المرجع السابق (٥/٢٦٩)

(٢) الزمخشري، الكشاف (١/٥٩٢)

لفظة دون غيرها إعجاز، فسبحان من أعجز بكلامه وخطابه الثقلين من إنس وجن. ومن فوائد اختلاف تلك الدلالتين أن الفتح يكون في الشيء العظيم، والنصيب يكون في الجزء من الشيء، مما يفيد أن انتصارات المؤمنين أكثر عمقاً، وأكبر أثرا، وأن دُولَة الكافرين لن يكون إلا يسيرا. وفي هذا تقوية للمؤمنين، وتعزيز لنفوسهم وقدرتهم، وتمكين الله تعالى لهم ولدينه سبحانه وتعالى.

ثم قال تعالى ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ فلكمال علمه بعباده سيكون الجزاء هو الحكم، فيرى ويجد المنافقون مقاعدهم في نار جهنم، ويجد المؤمنون مقاعدهم في الجنة، عند مليك مقتدر. ثم يبشر الله تعالى المؤمنين ببشارة عظيمة ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي: لن يجعل تسلطاً واستيلاء عليهم، بل لا تزال طائفة من المؤمنين على الحق منصورة، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم(١) ولا حجة عقلية ولا شرعية يستظهرون بها إلا أبطلها وأدحضها(٢) سبحانه وتعالى.

ثم بين الله تعالى مسلك المنافقين مع خالقهم تبارك وتعالى، وطريقة عبادتهم، التي تدل على منهجهم النفاقي ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ فجاء مطلع الآية الكريمة بحرف التأكيد، الذي يؤكد جملة حالتهم ومسلكهم، أي يعملون عمل المخادع، فيخادعون رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، ونُسِب ذلك إلى الله تعالى لأن معاملتهم لرسوله صلى الله عليه وسلم كمعاملتهم مع ربهم تبارك وتعالى. وفي نسبته إليه تبارك وتعالى تشنيع لفعلهم، وتعظيم لقدر الرسول صلى الله عليه وسلم، فيعاملهم الله تبارك وتعالى بجنس عملهم ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ أي: بما حكم فيهم من معاملتهم بالظاهر، مع علمه سبحانه وتعالى ببواطنهم من الكفر، استدراجاً منه عَزَّ وجل لهم في الدنيا، حتى يجدوا العذاب الأليم في الآخرة. وذكر الزمخشري رحمه الله تعالى: وهو فاعل بهم ما يفعل الغالب في الخداع، حيث تركهم معصومي الدماء والأموال في الدنيا، وأعد لهم الدرك الأسفل من النار في الآخرة، ولم يُخْلِيهم في العاجل من فضيحة وإحلال بأس ونقمة، ورعب دائم.

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤٢٩/١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٧٠/٥)

وقيل يُعْطَون نوراً كما يُعْطَى المؤمنون يوم القيامة، فيمضون بنورهم ثم يُطفَأ نورهم، ويبقى نور المؤمنين، فينادُون: انظُرُونا نقتبس من نوركم[١]

ثم بين تبارك وتعالى هيئة قيامهم إلى الصلاة ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ فيذهبون إلى الصلاة وهم متثاقلون متقاعسون، كأن الواحد منهم ذاهب إليها عن عدم رغبة فيها، ويقصدون من صلاتهم أن يراهم الناس، فتكون رياء وسمعة، ولا يصلون إلا قليلا، فيقتصرون على ما يظهر أمام الناس، وأما في الخفاء فهم في لهو عن ذكر الله تعالى، فَذِكْرُهم لله تعالى ذِكْرُ رياء، ليدفعوا عن أنفسهم استباحة أموالهم ودمائهم، قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: ولا يذكرون الله تعالى إلا ذكر رياء، ليدفعوا عن أنفسهم القتل والسبي، وسلب الأموال، لا ذكر مُوقن مصدق بتوحيد الله تعالى، ومخلص له بالربوبية، فلذلك سماه الله تعالى قليلا[٢]

ومن صفاتهم العملية ﴿ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ والمتذبذب: أي: المتردد والمتحرك باضطراب، فهؤلاء المنافقين متحيرون ومترددون بين المؤمنين والكافرين، لا مخلصين في الإيمان، ولا مظهرين الكفر. مما يفيد أن الهدف الذي لديهم هو تحصيل المنافع الدنيوية من الطرفين. فطغيان محبة الدنيا عليهم، جعلهم في هذا التذبذب. ثم بين الله تبارك وتعالى نتيجة هذا النفاق ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴾ فمن يخذله اللهُ تبارك وتعالى عن طريق الرشاد، فلن يكون له سبيل وطريق يسلك به إلى الحق. وهذا يفيد أهمية الابتعاد عما يُوجب غضب الله تعالى، والتمادي في المعصية، خوفاً من استحقاق إضلال الله تعالى له، كما يفيد هذا أهمية سؤال الله تعالى التوفيق والثبات على الحق والطاعة، مع الاجتهاد في طاعة الرحمن تبارك وتعالى، والبعد عن موجبات عذابه وعقابه.

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٥٩٢/١-٥٩٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦١٣/٧)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَـٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَـٰنٗا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُنَـٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ﴿١٤٧﴾ ﴾

بعد البيان الرباني لأحوال المنافقين وخداعهم التي جعلتهم يُظْهِرُون للمؤمنين إيماناً، وللكافرين كفراً وموالاة لهم، فقد جاء التحذير من موالاة الكافرين ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَـٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَـٰنٗا مُّبِينًا ﴾ وابتدأت الآية الكريمة بمخاطبة المؤمنين بأسلوب النداء، وبخصيصة الإيمان ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وفي هذا تنبيه من الله تبارك وتعالى للمؤمنين بأسلوب لفت وشد الانتباه إلى إيمانهم الذي يُوجِبُ عليهم الاستجابة لأمر الامتناع عن موالاة الكافرين ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَـٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ وهي الصفة التي اتصف بها المنافقون من موالاتهم للكافرين. فلا تجعلوا بطانتكم وخاصتكم من الكافرين، فيترتب على ذلك أن تناصحونهم وتُسِرُّون المودة لهم، فتفشون أحوال المؤمنين الباطنة إليهم. فهذه المنزلة يجب أن لا تكون إلا للمؤمنين، فموالاتهم من دون المؤمنين توجب أن يكون لله تعالى عليكم حجة ظاهرة ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَـٰنٗا مُّبِينًا ﴾ وهو سؤال استنكار واستعظام من أن يكون فيهم شيء من ذلك. بما يفيد التحذير من ذلك.

قال ابن الأنباري رحمه الله تعالى: تقدير الآية: أتريدون أن تجعلوا لله عليكم بمولاة الكافرين حجة بينة تُلزمكم عذابه، وتُكسبكم غضبه[١] مما يفيد التحذير والتهويل الشديد من مولات الكافرين.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم لتفسير (٢/٢١١)

كما أن في جملة ﴿سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ دليل على أن موالاتهم حجة ودليل قاطعٌ بَيِّنٌ واضحٌ، يستوجب العقوبة. وهذا يفيد التهديد والتحذير من موالاة الكافرين.

ثم يبين تبارك وتعالى حال المنافقين في الآخرة، وما أعده لهم من العذاب ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ فإن منزلتهم في الطبق الذي في قعر جهنم، فهم في الطبق الأسفل من أطباق جهنم ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ والنار سبع دركات، سميت بذلك لأنها متداركة، متتابعة، بعضها فوق بعض[١] ثم هؤلاء الذين يتناصرون بنفاقهم، لن يجدوا من عذاب الله تعالى ناصرا، ولا وسيلة نصر لتنقذهم منه ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ فلن تجد لهؤلاء المنافقين يا محمد ناصراً ينصرهم ويخرجهم من أليم عقابه الذي هو الطبق الأسفل من قعر جهنم. وفي هذا الوعيد الصادق من الله تعالى كمال التحذير والتهديد والزجر للمنافقين من مسلك النفاق. ومن الفوائد: أن في ذلك تشنيع لنوع العذاب، كونه في قعر جهنم، وأن النار منازل بعضها أعظم من بعض، فنسأل الله تعالى السلامة والنجاة لنا وللمسلمين منها، وأن يجعلنا ممن زُحْزِح وأُبعد عنها، برحمته وكرمه إنه رحيم كريم العطاء.

ثم من كرم ورحمة الله تعالى أنه يستثني التائبين الذين استكملوا توابع التوبة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ فاستثنى تبارك وتعالى التائبين من نفاقهم، وأتبعوا تلك التوبة بإصلاح حالهم ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ وكلمة الإصلاح عامة وشاملة لجميع أنواع الإصلاح في أقوالهم وأفعالهم وإيمانهم وعبادتهم، وتعاملهم مع المؤمنين، وتغيير مودتهم وموالاتهم للكافرين، وكذلك من لوازم قبول التوبة قوله عزَّ وجل ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي: وتمسكوا بعهد الله تعالى وميثاقه الذي عهد في كتابه إلى خلقه من طاعته وترك معصيته.

---

(١) الزمخشري، الكشاف (١/٥٩٤)

وكذلك من لوازم قبول التوبة ﴿وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾ وهو تنقية تدينهم لله تعالى من الرياء، ودفع طائلة المؤمنين عليهم، بأن يتستروا خلف ما يظهرون. فَجُمِع للتوبة بين ما هو متعلق بالقلوب ﴿وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾ وبين الأعمال والأقوال، وهي الإصلاح والاعتصام بالله ﴿وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ وهذا يفيد أن من تاب يلزمه الإصلاح، وهو الإقلاع عن المعصية، وكل ما يستطيع فعله من أجل التخلص من تبعاتها وما يلحق بها، لأن دلالة كلمة ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ تجمع جميع ما يتعلق بلوازم الإصلاح لما أفسد مما هو من مقدوره، والتمسك بما جاء عن الله تعالى، والإخلاص له تبارك وتعالى. فليست التوبة للمطامع والرياء وتحصيل مكاسب الدنيا، بل لله تعالى.

فهؤلاء المنافقين الذين يحققون بنود التوبة، فإن الله تعالى يخبر بأنهم مع المؤمنين، فقال عَزَّ وجل ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فقد أصبح هؤلاء مع المؤمنين، وأصبحوا منهم، وفي هذا بيان أن من دخل في الإيمان فقد أصبح له ما للمؤمنين. ثم بين سبحانه وتعالى أنه ينالهم ما ينال المؤمنين من الأجر العظيم ﴿وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ وهذا يفيد رحمته تبارك وتعالى، وأنه يقبل التوبة من أشد المعاصي. وأنه ما أراد بعباده إلا الخير لهم، وهدايتهم بهذا الدين الحنيف.

ثم بين تبارك وتعالى غناه عن عباده وعن أعمالهم ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ فبدأت الآية بشد الانتباه من خلال الاستهلال بسؤال استفهامي تقريري، يستثير العقل للتفكير والتأمل، من أن الله تعالى لا ينتفع بتعذيب أحد منكم إن كان مؤمناً صالحاً، فهو غني عن خلقه. فيتحقق بهذا الأسلوب التقرير بأن الله تعالى لا يعذب من شكر وآمن ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡ﴾ فالتقدير يكون: أي منفعة له تبارك وتعالى في تعذيبكم إن حصل منكم الشكر والإيمان، وبالتالي فإن تعذيبه لا يزيد في ملكه سبحانه وتعالى شيئا، وكذلك عدم تعذيبهم لا يُنقص من ملكه وسلطانه شيئا، فكلا الوجهين لا يصحان في حق ربكم تبارك وتعالى، وبالتالي فإنكم بالطاعة تحصلون على الثواب،

وبالمعصية تحصلون على العقاب. وفي هذا الأسلوب الرباني محاكمة للعقل، ومخاطبته بما يقرر الحقيقة، ويصحح المفاهيم، ليستعيد الإنسان رُشده، ويصحح باغي الخير مسلكه.

والشكر من العبد يأتي من المعترف بالنعمة، ثم يقوم بتحقيق ما يتطلب الشكر، من الثناء والمدح والطاعة والتودد، فجمعت كلمة الشكر في موقعها البياني قمة البيان البلاغي ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡ﴾ فقد جمعت كل ما يجب أن يقوم به الشاكر لمن أسدل إليه نعمة. فكيف إذا كان ولي النعمة هو الله تعالى الذي أحاط الإنسان بجميع ما هو فيه من النعم والخير، فأصبح شكره لا ينتهي حتى يلقى الله تعالى. فاستوعبت دلالة لفظة الشكر كل ما يجب على العبد لخالقه تبارك وتعالى. وكذلك جاءت كلمة ﴿وَءَامَنتُمۡ﴾ شاملة لكل الإيمان: لتستوعب الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والبعث والنشور والحساب والجزاء والجنة والنار. فليس شيء من لوازم الإيمان إلا وقد استوعبته. وهذه من الغزارة البيانية في القرآن الكريم. فما يصنع الله تعالى بعذابكم إن شكرتم نعمه، وآمنتم به. فلسان حال الْمُخَاطَب يقول: نعم يا ربنا، فأنت غني عن تعذيب أحد من خلقك على الإطلاق، فكيف بمن أطاع وآمن، فإنه في أمنك وحرزك ولطفك ورحمتك وكريم عطائك.

فلا شيء ينتفع الله تعالى به من تعذيبكم إن شكرتم وآمنتم، فليست هناك مصلحة ولا فائدة من تعذيب من لا يستحق العذاب. وإن من صفاته سبحانه وتعالى أنه يجزل المثوبة لمن شكر وآمن ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ فهو شاكر مُثِيب موفي أجوركم، يتقبل العمل القليل ويعطي عليه الأجر الجزيل العظيم. وهو عليم بما تعملون من أعمال. فلا يخفى عليه شيء، وفي هذا ما يزيد المؤمن طمأنينة من أنه مُثاب على طاعته، وأن الله تعالى لا يخفى عليه شيء من ذلك، وكذلك فإن في هذا البيان الرباني مطمع للاستمرار في الطاعة، والصبر على ذلك، لعلم العبد ويقينه بثواب وعلم الله تعالى لحاله. ومن وجه آخر فإن في ذلك تحذير وترغيب للمنافق، فإنها مرغبة له في أن يسلك مسلك المؤمنين، ومحذرة لأهل الزيغ والنفاق.

ومن الفوائد أن الله تعالى إنما يبغض العبد بسبب معاصيه، فالبغض متعلق بمعاصي العباد، لا بغضه لهم بأعيانهم، إلا بسبب معاصيهم، فيعذبهم لذلك، فلو كان غضبه متعلق بذات

الشخص لما قبل التوبة منه، فهو سبحانه وتعالى غني عن غيره، وكل غيره خلق من خلقه. ولا ينتفع بتعذيب أحد من خلقه تبارك وتعالى، وهو الغني الحميد.

ومن الفوائد أن كلمة الشكر وردت مرتين، مرة من العبد، ومرة من الخالق تبارك وتعالى، فعند ورودها بخصوص العبد، كانت متعلقة بعبادة العبد لربه تبارك وتعالى ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ وعند ورودها في صفة الله تعالى كانت إثابة وعطاء ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ فسبحان من كان البيان منه معجزة وحلاوة وطلاوة.

﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾

ينتقل البيان القرآني الكريم إلى جانب من الجوانب الخلقية العظيمة في تعامل المظلوم مع الظالم ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ فبدأت الآية الكريمة بتقرير ما لا يحبه الله تعالى ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ ففي هذا إثبات وتقرير بأن الله تعالى يُبغض المجاهر بالسوء من القول، فتكون هذه قاعدة قد تقررت، وتقرر فيها انتفاء حب الله تعالى للمجاهر بالسوء من القول. وهو الأمر الذي يتفاعل معه المسلم بلسان حاله القائل: وأنا كذلك لا أحب ما لا تحبه من الجهر بالسوء يا رب. قال: ابن عباس رضي الله عنهما: لا يحب الله أن يدعو أحدٌ على أحد إلا أن يكون مظلوماً، فإنه قد أُرخص له أن يدعو على من

ظلمه. وقال الحسن البصري: لا يدع عليه، وليقل اللهم أعني عليه، واستخرج حقي منه، وقال عبدالكريم الجزري هو الرجل يشتمك فتشتمه، ولكن إن افترى عليك فلا تفتري عليه[١]

ثم يأتي بعد ذلك الاستثناء من قاعدة الجهر بالسوء ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ وجاء هذا الاستثناء ليستوعب جميع أنواع الظلم ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ فلم يحدد نوعاً معيناً ولا قدراً محدداً من الظلم، ليستوعب ويشمل جميع أنواع الظلم ومقاديره، ودرجاته. فقد استوعبت دلالة ﴿مَن ظُلِمَ﴾ جميع دلالات أهل التفسير، فقد ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: إلا أن يدعو المظلوم على من ظلمه، وقيل: إلا أن ينتصر المظلوم على من ظلمه، وقيل: إلا أن يخبر المظلوم بظلم من ظلمه، وقيل: أن يجهر الضيف بذم مَنْ لم يُضَيّفه[٢]

وفي جانب الدعاء من المظلوم على الظالم، فإنه يمكن للمظلوم أن يعدل إلى ما هو أحسن وأكثر نفعاً في الدنيا والآخرة، فقد ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى قولاً: هو الرجل يظلم الرجل، فلا يدعُ عليه، ولكن ليقل: اللهم استخرج لي حقي، اللهم حُلْ بيني وبين ما يريد، ونحو هذا من الدعاء[٣] مما يبين عظيم أخلاق منهج الإسلام، وارتقائه بأخلاق المظلوم. ليجزيه الله تعالى بعظيم الجزاء.

ومن الفوائد: أن من أوجه دلالة النص الحكيم أن الله تعالى لا يُبغض الجهر بالسوء للظالم، بل هو اقتصاص مستثنى من القاعدة، بما يفيد التحقير للظالم والتشنيع لظلمه، وأن الله تعالى لا يستنكر ولا يبغض الجهر بالسوء له، لأنه سبحانه وتعالى حَرَّم الظلم، وهذا الظالم قد تجرأ على ما حرم الله تعالى. وفيه تأديب للظالم، من أن لا حصانة له من المظلوم في الجهر بالسوء، ليكون رادعاً قوياً، وتأديباً وزجرا.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٨٤/١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢١٣/٢)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٢٦/٧)

ثم بين تبارك وتعالى صفتين عظيمتين جليتين من صفاته ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ وهما صفتان ضابطتان لما أباحه تبارك وتعالى من الجهر بالسوء، فهو يسمعكم، ويعلم ما كان ويكون منكم، مما يوجب الحذر من التمادي، فلا يقل إلا الحق، ولا يتجاوز الحق بالتعدي، فيستغل ما حصل بالتطاول، فيحصل البغي والأشر. فأرشد عَزَّ وجل إلى الرقابة الذاتية المتمثلة بالمعرفة لله تعالى ولأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وهي كذلك تحذير للظالم من أن يظلم، فإنه لا حصانة لسمعته، حتى يتراجع عن ظلمه وأشره. وهذا يفيد ويقرر أهمية معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، وكذلك أهمية استحضارها في حياة المسلم.

ومن فوائد قوله تعالى ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ فهو يسمع كلامكم، ويعلم ما هو منكم، بما يؤكد إحصاء ذلك وتثبيته لهم. وقد وردت هاتين الصفتين لله تعالى ﴿ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ بصفة العموم الدالة على الشمول، فهو سميع لكل شيء، وعليم بكل شيء، ومنه ما يكون منكم من جميع الأقوال والأعمال. وقد وردت بصيغة المبالغة التي تفيد امتداد المعنى إلى أقصى غايته وكماله. وقد سبقتها ﴿ وَكَانَ ﴾ التي تفيد أزلية الصفة وأبديتها وثبوتها، أي من قبل أن تكونوا، ومن قبل أن يكون غيركم من خلقه، فسبحان من له صفات الكمال المطلق. فهو الأول بصفاته وأسمائه، ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء. فسبحانه قيوم السماوات والأرض.

ثم يقرر تبارك وتعالى قاعدة أخلاقية عظيمة في مسلك التعامل ﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ أي: إن تُظهروا أيها الناس خيراً، أو أخفيتموه عن غيركم، أو عفوتم عَمَّن أساء إليكم، فإن ذلك مما يقربكم عند الله، ويجزل ثوابكم لديه، فإن من صفاته سبحانه وتعالى أنه يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم عَزَّ وجل، ولهذا قال ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾[1]

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٥٨٥)

ومن الفوائد أن الحث على هذه الأخلاق الحميدة، جاء بأسلوب البيان، وليس بأسلوب أمر الوجوب، لأن الله تعالى جعله أمراً اختيارياً، ولكن رَغَّب وحث عليه بالمكافأة، والتي أيضاً جاءت على سبيل الاستحثاث لها، من خلال بيان صفتين عظيمتين له تبارك وتعالى، وهما العفو، والقدرة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ فأسماء الله تعالى وصفاته دالة على مقتضى معناها، فإن من صفاته العفو، أفلا تحبون هذه الصفة التي اتصف بها خالقكم؟ أفلا تتخلقون به؟، أفلا تحبون أن يعفو عنكم؟ أفلا تحبون العفو؟ ففيها ترغيب في العفو عن حقوق النفس، الذي تقابله مكافأة الله تعالى بالعفو. وعفو الله تعالى أعظم وأكرم، مع قدرته على العقاب، فعفوه مقرون بالقدرة، وليس كعفو العبد الذي قد يكون عفوه مقرون بعدم القدرة أو قلتها، وكذلك يتنازعه شُح النفس في تحقيق ذلك. بينما الله تعالى قدير سبحانه وتعالى ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ قادر على معاقبتهم، ومع ذلك يعفو، أفلا تحبون العفو عند المقدرة؟ ألا ترجحونها على فعل ما تقدرون عليه؟

فإن في ذلك تقرير لقاعدة العفو والاستحثاث عليها. بل ومن دقائق الأساليب أن جاء الترغيب لها من دون الأمر بها، وهو في غاية جمال وكمال الترغيب. مما يعطي المسلم مضموناً تربوياً وأسلوباً ناجعاً في بناء منهجية التعامل على العفو والتجاوز، وعلى غرار البيان دون الأمر من حيث الأسلوب، وذلك في رحاب واحة الحياة الاجتماعية، فيما بين الرئيس والمرؤوس، والأخوة والجيران والأصدقاء، وفي رحاب الاسرة والمهنة، والصداقات، وفي جميع أصناف تجمعات المجتمع الاجتماعية.

ثم يعود السياق القرآني المجيد إلى أمر الكفر والكافرين بعد أن قطع ذلك بقضايا أخلاقية، للدلالة على أهميتها، فجاء التوقف للكلام عنها، لإعلان أهميتها، والمناداة بها، وإظهارها. كما أن في أسلوب التنقل هذا بقطع الاسترسال، ما يلفت الانتباه ويشده لِمَا استجد من التوجيه، ويشوقه لما بعده من أجل استكمال الموضوع. كما أن في ذلك نوع من التخول وتحري المناسبة أو الوقت المناسب لذكر قضية أو مصلحة، وقد كان صلى الله عليه وسلم يتخول أصحابه بالموعظة، كما جاء في الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة

في الأيام كراهة السامة علينا[١]. كما أن في هذا التنقل نوع من التشويق بالفواصل العظيمة من التوجيه الكريم.

فيقول الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وسَمَهم بأنهم كفار بالله ورسله ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ أي: في الإيمان ﴿وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ أي طريقاً ومسلكاً، ثم أخبر تعالى عنهم فقال ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ ﴾ أي كفراً محققاً لا محالة[٢] وقال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: لما فرغ من ذكر المشركين والمنافقين ذكر الكفار من أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى، لأنهم كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم، فكان ذلك كالكفر بجميع الرسل والكتب المنزلة، والكفر بذلك كفر بالله، وينبغي حمل قوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ على أنه استلزم ذلك كفرهم ببعض الكتب والرسل، لا أنهم كفروا بالله ورسله جميعاً، فإن أهل الكتاب لم يكفروا بالله ولا بجميع رسله، لكنهم لما كفروا بالبعض كان ذلك كفر بالله وبجميع الرسل.[٣]

فقد تضمن هذا النص القرآني الكريم أربعة صفات للكفر، **أولها**: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ وفي هذا بيان كفر الجحود بالله وبِرُسِلِهِ، وأن الكفر به سبحانه وتعالى وبرُسِلِهِ لا يتبعض، بل هو أمر واحد، فلو تبعض فإنه كفر حقيقي، مما يوجب الإيمان بالله تعالى وبالمرسلين جميعاً. **والثاني** ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ أي يفرقوا بين الإيمان بالله، والإيمان

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٤٢/١) برقم (٦٨)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٨٥/١)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (٥٣٢/١)

بِرُسِلِهِ. **والثالث** ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ وهذا متعلق بمن يكفرون ببعض الرُّسِل، ومنهم خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فَيُبَعِّضُون ويُقَسِّمُون الإيمان بالرُّسِل بما يشتهون، وقد قتلوا بعض الأنبياء. وذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أنهم اليهود، آمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمد، ويقولون لعوامهم: لم نجد ذكراً لمحمد في كتبنا. ويرغبون أن يتخذوا بين الإيمان والجحد طريقاً ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ أي ديناً مبتدعاً، بين الإسلام واليهودية[١] وهو **الرابع.**

مما يفيد أن الإيمان كل لا يتجزأ، وأن التفريق بين الإيمان بالله تعالى وبين الإيمان بالرسل هو كفر، وأن ترك الجزء منه كفر، وأن الاستحداث والاختراع في الإيمان هو كفر. فهؤلاء جميعاً هم أهل الكفر الحقيقي الواضح الكامل البين، فهم كاملون في الكفر، فقد جمعوا هذه الأصناف والأنواع من الكفر، مما يدل على تعمقهم وتعمدهم وإصرارهم على الكفر بالتحريف والتبديل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ وهذا تأكيد يزيل التوهم في إيمانهم. فكلمة ﴿حَقًّا﴾ تفيد توكيد كفرهم، مع إزالة وهم من يعتقد أن إيمانهم ببعض الرسل يمنع عنهم الكفر. فهذه الأصناف أعد الله تعالى لهم عذاباً مخزياً ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ فهو مع أنه عذب إلا أنه يحمل صفة الذلة والصغار، جزاء لهم بهذا الكفر الشنيع المتحقق فيهم، مما يبين أن حقيقة الإيمان هو التصديق بكل ما جاء عن الله تعالى دون إنقاص أو تحريف.

ومن الفوائد دقة وشدة البيان التفصيلي للكفر، وإزالة جميع الاحتمالات والأوهام التي قد تجعل من الفهم الخاطئ أن يتوقف عن تكفير من يتخذ من تلك الأصناف الكفرية شيئاً. فهو توهم في غير مكانة. وأن الإيمان كلٌ واحدٌ لا يتبعض.

ثم بعد أن ذكر الله تعال بياناً شافياً للكفر، ذكر البيان الكريم حقيقة الإيمان، وثوابه العظيم. فقال عَزَّ وجل ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ فالإيمان الصحيح هو المتكون من الإيمان بالله تعالى

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦/٦)

وبجميع رُسُلِه، أولهم نوح عليه السلام وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم، دون تفريق. ومن الفوائد: أن مَن آمن بجميع الرسل فقد آمن بجميع الكتب، لأنها من لوازم الإيمان بالرسل، ومن آمن بالكتب، فقد لزم الإيمان بالملائكة لأنهم رُسُل الله إلى الأنبياء والمرسلين، ولزم الإيمان بكل مضامين الكتب من الجنة والنار والبعث والحساب والجزاء، ووجوب التوحيد وإقامة العبادة، والإتيان بكل ما أمر الله تعالى، والانتهاء عَمَّا نهى عنه. فهذا هو الإيمان ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡ﴾ أي: يوفيهم جزاءهم وثوابهم على ذلك ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ يغفر ما سلف من آثام خلقه المؤمنين، فيستر عليهم بعفوه، ويترك معاقبتهم. وأنه عَزَّ وجل لا يزل بهم رحيما، بتفضله عليهم بالهداية إلى سبيل الحق، وتوفيقه لهم. فالحمد لله على هدايته ومغفرته ورحمته. فاللهم اغفر لنا وارحمنا واهدينا وثبتنا على هدايتك وتوفيقك، ونسألك حُسن الخاتمة.

﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ﴿١٥٦﴾ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا ﴿١٥٩﴾﴾

وفي تنويع بيانه الكريم سبحانه وتعالى، ينتقل السياق القرآني إلى بيان مكابرة أهل الكتاب، حيث بدأت الآية الكريم بما يستثير النفس والعقل، ويشد الانتباه ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهي جملة تستقبل القارئ والسامع لإرعاء السمع عن هذا السؤال، وشد الانتباه،

واستجماع قوى الذهن واستثارته لمتابعة تفاصيل البيان عما سأل عنه أهل الكتاب ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ وفي هذا بيان للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين عن تعنت أهل الكتاب، قال قتادة رحمه الله تعالى: أنهم سألوه أن يُنزّل كتاباً عليهم خاصة[١] وقد ذكر ابن جرير رحمه الله تعالى: أي: يا محمد، يسألك أهل التوراة من اليهود أن يُنَزّلَ عليهم كتاباً من السماء مكتوباً، كما جاء موسى بني إسرائيل بالتوراة مكتوباً من عند الله.[٢] والنبي هو عبد مكلف، والأمر كله بيد الله تعالى، وفي هذا ما يفيد عناية الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم في مساندته حيال ما يلاقيه من غيره، كما يدل على أن في نزول القرآن متتابعاً معالجة للواقع والأحداث، وتقوية للنبي صلى الله عليه وسلم، وتسلية له، كما دلل موقفهم هذا على تعنت اليهود، فقال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ ﴾ فلئن سألوك هذا الذي استعظمته منهم، فإنهم قد سألوا موسى أكبر من هذا. وقد أُسنِد السؤال إليهم، باعتبار أنهم اقتفوا مسلك أقوامهم مع موسى عليه السلام.

ومن الفوائد التشويقية في الأسلوب القرآني العظيم أنه جعل بيان الذي سألوه بعد بيان استعظام ما سألوا موسى ﴿ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ فقد طلبوا رؤية الله تعالى عيانا، ينظرون إليه. فحقاً أن سؤالهم قد تعاظم في الطغيان والتعنت، وعدم الطاعة. وفي هذا تهوين على النبي صلى الله عليه وسلم مما كان يجده من اليهود، وهذا من لطفه تبارك وتعالى، وكذلك ليكون إعجازاً بإخباره عن أخبارهم مع موسى عليه الصلاة والسلام.

فعاقبهم الله تعالى بالصاعقة ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ وهي النار التي نزلت عليهم من السماء، فأهلكتهم[٣] وهذا الهلاك هو ﴿ بِظُلْمِهِمْ ﴾ الذي سألوا فيه موسى عليه الصلاة والسلام أن يريهم الله تعالى جهرة. مما يفيد أهمية طاعة الرسول، وأهمية الخضوع لله تعالى، ومخاطر

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٢١٥)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧/٦٣٨)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (١/٥٣٣)

التأله والتكبر، وأن الله تعالى لا يعجزه تعجيل العقوبة، وأن عقوبته قاصمة، فليستعيذ الإنسان منها بالطاعة والتواضع لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم. ولا يستهوينه الهوى والشيطان.

ثم يبين سبحانه وتعالى مزيداً من طغيانهم ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ ﴾ وقد أفادت ﴿ ثُمَّ ﴾ الترتيب، أي أنه حصل منهم كذلك اتخاذ العجل من بعد ما جاءتهم الحجج والبراهين من الله تعالى، فقد اتخذ هؤلاء الذين سألوا موسى ما سألوه من رؤية ربهم جهرة، بعد ما أحياهم الله تعالى، فبعثهم من صعقتهم، فقد اتخذوا العجل الذي كان السامري نبذ فيه ما نبذ من القبضة التي قبضها من أثر فرس جبريل عليه السلام، إلهاً يعبدونه من دون الله تعالى[١] وفي اتخاذهم العجل من بعد ما جاءتهم الحجج والبراهين الواضحة على رسوله ونبيه وكليمه موسى عليه الصلاة والسلام دليل على عظيم كبريائهم وتعنتهم. فقد جاءتهم من البينات: عصا موسى عليه السلام، وفلق البحر، وإغراق فرعون، وغيرها من الأدلة العظيمة. وهذا يفيد أن البعض قد لا تجدي فيه النصيحة ولا البينات الواضحات، ولا البراهين العظيمات، فإن الكبرياء والجحود قد استحوذ عليه، فنعوذ بالله من قسوة القلب ومن الكبر، ونسأله سبحانه وتعالى أن يجعلنا مخبتين طائعين خاشعين له سبحانه وتعالى.

ثم يبين تبارك وتعالى رحمته ﴿ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَ ﴾ فكل هذا التعنت وهذا التكبر، يقابله الله تعالى بالعفو، مما يبين عظيم رحمته بعفوه، وأنه لولا رحمة الله تعالى لهلك الناس بذنوبهم ومعاصيهم، ولكنه رحيم رؤف بالناس، فهو عليهم حليم، فما أرسل الرسل، ولا أنزل الكتب، وأقام البراهين إلا من لطفه ورحمته بعباده، لعلهم يهتدون. ﴿ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴾ وهي الحجج التي أعطاه الله تبارك وتعالى نبيه ورسوله موسى عليه الصلاة والسلام لتبين صدقه وحقيقة نبوته. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: وسُمِّيت ﴿ سُلۡطَٰنٗا ﴾ لأن من جاء بها قهر خصمه[٢] وبالتالي فإن

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٤٢/٧)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٥٣٣/١)

من كان الله معه أيده بالحجة والقوة والظهور، والتسلط على عدوه وقمعه، والظهور بالحق على الباطل، مما يفيد أهمية أن يكون المؤمن مع الله تعالى، ليكون معه مؤيداً وناصراً وظهيرا.

ثم يبين الله تعالى آية أخرى من آياته ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ ﴾ وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة، وظهر منهم إباء وتَمَنُّع عَمَّا جاءهم به موسى عليه الصلاة والسلام، ورفع الله تعالى على رؤوسهم جبلاً، ثم أُلزموا فالتزموا، وسجدوا، وجعلوا ينظرون إلى فوق رؤوسهم، خشية أن يسقط عليهم[١] وقد أخذ الله تعالى عليهم العهود التي هي الميثاق: وهي العهود التي عاهدوا الله تعالى أن يعملوا بما في التوراة ﴿ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ فإنهم أمروا أن يدخلوا باب بيت المقدس سجداً، وهم يقولون حطة، أي: اللهم حط عنا ذنوبنا في تركنا الجهاد، ونُكُولَنَا عنه حتى تِهْنَا في التيه أربعين سنة، فدخلوا وهم يقولون حنطة في شعرة[٢] بدلاً من أن يقولوا: حِطَّة، كما أمرهم الله عَزَّ وجل. وهذه المخالفة من مزيد تعنتهم وعصيانهم وتمردهم.

ثم أمرهم الله تعالى بأمر آخر﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ أي: وصيناهم بأن لا يصطادوا يوم السبت من حيتان البحر ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ أي: عهداً مؤكداً شديداً، ولكنهم خالفوا وعصوا كما هو مبين في سورة الأعراف. فمن فعل هذه التجاوزات وهذه المعاصي العظيمة فلا يستغرب منهم ما سألوا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بأن ينزل عليهم كتابا. وبالتالي فلا تبتئس منهم ولا يكن في صدرك حرج مما قالوا.

ثم يزداد تأكيد الله تعالى بياناً لنقضهم المواثيق ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ فهذ أقوى ما كان منهم. أحدها: ﴿ نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ ﴾ وهي العهود التي نقضوها، والثاني: ﴿ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ وبجودهم بحجج وبراهين الله تعالى من المعجزات والكتب، ورفع الطور وغيره. والثالث: ﴿ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٨٦/١)

(٢) المرجع السابق (٥٨٦/١)

وقتلهم للأنبياء، مثل : يحي وزكريا. والرابع: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ ﴾ وهو قولهم: إن قلوبنا مغلفة بأغطية لا نفقه ما تقول، وقيل أن المعنى قلوبهم أوعية للعلم فلا حاجة لهم إلى علم غير ما حوته قلوبهم. وغرضهم بهذا رد حجة الرُّسُل[1] والمعنيان يحققان معنى واحداً، بمعنى: قلوبنا مغطاة بأغطية العلم التي تمنعنا من غيره، فلا حاجة لنا بغيره. فكان الجزاء من الله تعالى بمثل ما قالوا ﴿قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ ﴾ فجاء الجزاء مماثلاً لذلك، فقال الله تعالى ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ بل طمس الله على قلوبهم بسبب كفرهم، فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً ﴿إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ وهذا الاستثناء يدل على انتفاء كثرة الإيمان، وليس عندهم إلا قليل التصديق. ويمكن أن يكون إلا القليل منهم الذين يؤمنون. وهذا يبين خطورة الكبر والتحجج بما يدل على التعنت، فيكون العقاب بمثل ما تعنتوا به واستكبروا.

ومن فوائد الاستثناء ﴿إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ أنها اشتملت على ثلاثة دلالات متوافقات، أحدها: انتفاء كثرة الإيمان، وليس عندهم إلا قليل التصديق. والثاني: أي قليل منهم من يؤمن. فيكون القليل الذي يدخل في دين الله تعالى الذي جاء به خاتم الأنباء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم، والثالث: أنه يؤمن قليلاً من الوقت. فحوت جميع الأحوال التي تكون منهم. فسبحان من حوى كلامه مقاصد مراده، وجمال وإعجاز بيانه.

وفي تفاوت عهد هذه الأحداث منهم ما يدل على أن أجيالهم تشربت هذا التعنت، فقد ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: أن الذين أخذتهم الصاعقة إنما كانوا على عهد موسى، والذين قتلوا الأنبياء، والذين رموا مريم بالبهتان العظيم، وقالوا قتلنا المسيح كانوا بعد موسى بدهر طويل. ولم يدرك الذين رموا مريم بالبهتان زمان موسى، ولا من صعق من قومه[2] مما يفيد التوارث بالتناقل المنحرف عن الحق، وخطورة ذلك.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٥٣٤/١)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٤٨/٧)

ثم يبين الله تعالى المزيد من أسباب طمس قلوبهم ﴿ وَبِكُفۡرِهِمۡ ﴾ أي تكرار كفرهم، فكفرهم بعد كفر ﴿وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ﴾ والبهتان العظيم رميها بيوسف النجار، وكان من الصالحين منهم، والبهتان الكذب المفرط، الذي يتعجب منه.(١) وكذلك قولهم ﴿ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡ ﴾ وادعاءهم أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم، والحقيقة أنهم ما قتلوه ولا صلبوه، ولكن شُبِّه لهم على غيره. وهذا من عظم قَدَرِ الله تعالى وقدرته، إذا أراد نجاة من أراد فإنه يهيئ له الأسباب الموجبة لنجاته، مما يبين أهمية الطاعة والتوكل على الله تعالى، فهو كفيل من توكل عليه. قال الزمخشري رحمه الله تعالى عن ﴿ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ أنه على وجه الاستهزاء(٢) والتفاخر بالمعصية، وهي من أقبح الأخلاق، ومن أقبح التعالي على الله تعالى، ونسأل الله تعالى السلامة.

ثم يبين الله تعالى حالهم في قتل عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾ فهم في شك، أي: ليسوا على يقين من قتله، وأخذوا بالشك واعتمدوه حقيقة، فمن ادَّعى أنه قتله، ومن سلمه إليهم، كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال. فجميعهم وقعوا في شك وحيرة من أمرهم، لا علم لهم إلا اتباع الظن، فما قتلوه يقيناً، بل شاكين متوهمين. وقد ذكر ابن جرير رحمه الله تعالى: أن شَبَه عيسى أُلقي على جميع من كان في البيت مع عيسى، حين أُحيط به وبهم، ليخزي الله بذلك اليهود، وينقذ نبيه عليه الصلاة والسلام من مكرهم ومما أرادوا من القتل(٣) وفي عدم تيقنهم من تحقق قتله بعينه يجعلهم في شك وحيرة من أمرهم، فيولد في قلوبهم حسرة وغيظاً. وفي هذا نوع من الجزاء.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨/٦)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٦٠٠/١)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٥٨/٧)

ثم يبين الله تعالى كيف كانت نجاة عيسى منهم، عليه الصلاة والسلام ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ فقد رفعه الله تعالى إلى السماء ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ فهو عَزَّ وجل منيع الجانب، لا يُرام جنابه ولا يضام من لاذ ببابه. وحكيم فيما يقضيه ويدبره من الأمور، فله الحكمة البالغة، والسلطان العظيم، فهو العزيز الذي أعَزَّ عيسى عليه الصلاة والسلام برفعه إليه، وهو الحكيم الذي أنقذ عيسى منهم بحكمته. مما يفيد المسلم أن عليه التوكل على العزيز الحكيم، والاستعانة به في كل أمر وفي كل حين.

ثم قال تبارك وتعالى ﴿ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدًا ﴾ جاء في تأويل ذلك أنه سيدرك أناس من أهل الكتاب حين يُبعث عيسى، سيؤمنون به، وقيل أنه لا يموت كتابي حتى يؤمن بعيسى، وذلك أنه إذا عاين الموت عَلِم الحق من الباطل، لأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبين له الحق من الباطل في دينه[١] ولا يمنع أن يكون هذا وهذا، فالذي يعاين الموت قبل نزول عيسى عليه الصلاة والسلام من أهل الكتاب يعلم الحق من الباطل، فيعلم أن عيسى رسول الله، وأنه ليس ولد الله، ومن يدرك نزول عيسى عليه الصلاة والسلام في آخر الزمان يؤمن به، ويدرك أنه عليه الصلاة والسلام لم يُصلب ولم يُقتل، بل رفعه الله تعالى إليه. فهم يشهدون لعيسى عليه الصلاة والسلام في الدنيا، وهو يشهد عليهم في الآخرة ﴿ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدًا ﴾ بأنه أبلغهم بما أُرسل به إليهم، وأقر بالعبودية على نفسه.

فسبحان من يدير الدنيا ويدبرها بعظيم حكمته وقدرته سبحانه وتعالى. وهذا يدل على عظيم حكمة الله تعالى وقدرته، وتسييره للكون كيف يشاء بِسُنَنِه وحكمته البالغة في الدقة والموازنة. مما يعطي المؤمن دروساً إيمانية مما قد حصل وسلف من أهل الكتاب. فيجتنبوا مسلكهم، ويأخذوا منهم العظة والعبرة.

(١) المرجع السابق (٧/٦٦٦-٦٦٧)

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾
وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾
لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ
وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾

يبين الله تبارك وتعالى عاقبة ظلم اليهود ومعاقبتهم بما يستحقون. فقال عَزّض وجل ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ فقد عاقب تبارك وتعالى اليهود بتحريم بعض الطيبات من المآكل التي كانت حلالاً لهم، وذلك لصدهم عن سبيل الله تعالى، وكذلك بصدهم لغيرهم عنه. وهذا الصد بلغ مبلغاً تنتفي به القلة، إلى حصول الكثرة من الصد والاصداد لغيرهم، لتفيد مبالغتهم في ذلك. ومن الفوائد البيانية أن دلالة ﴿ فَبِظُلْمٍ ﴾ جاء نكرة ليدل على التعظيم لجرمهم. وأيضاً بسبب الربا ﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ ﴾ مما يدل على أن الربا محرم من في شريعة الله تعالى من قبل، وأن وجوده في تعليل عقوبتهم دليل على عظيم جُرم الربا والتعامل به، بما يدل ويفيد على بغض الله تعالى له، ولممارسته، مما يوجب اجتنابه والحذر منه، وكذلك مما أوجب عليهم العقوبة معاملتهم الظالمة مع الناس ﴿ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ وقد ذكر تعالى لفظ ﴿ ٱلنَّاسِ ﴾ ليدل على عموم جنس الناس، وليس فقط فيما بينهم من أهل الملة، بل جميع من يتعاملون معهم من الناس، فيكون فيه تحايل على أكل أموالهم بغير حق. كما جاء تصوير معاملاتهم بصفة الأكل، ليزداد شناعة في التصوير، لأن الأموال تتعاطى بالأيدي، وتصريفها يكون في الأكل وغيره، ولكن في ذلك ما يفيد التشنيع، مما يدل على تحريم جميع أوجه التعامل الباطلة، من أجل أكل أموال الناس بغير حق، وسواء مع أهل الملة أو من غيرهم من غير المسلمين، مما يدل على أن هذا الدين هو دين رحمة وعدل وتآلف.

ومن الفوائد كذلك ما تضمنته كلمة ﴿ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ التي استجمعت كل ما لا يحل في الشرع نوعاً وأسلوباً، فيدخل في ذلك أنواع المحتوى التجاري من مبيوعات، وكذلك الأساليب المتعلقة بأنواع المتاجرة، وطرق تداولها، كالجهالة والغرر والقمار والربا. فهذه المعاني الدقيقة للدلالات

اللفظية في شموليتها قد جمعتها لفظة ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ فجمعت جميع مفردات المقصود والمراد، مما يدل على غزارة ألفاظ القرآن الكريم للدلالات وللمعاني البلاغية العظيمة في بيانها وسعة معطياتها، ونفوذ سلطانها لدقائق المعاني. بما يتبين به أن كل كلمة في القرآن العظيم لا يقوم غيرها مكانها، لدقة مكانها بين كلام رب العالمين، ولتؤكد الإعجاز البياني والبلاغي والأخلاقي للقرآن الكريم. إذ أن موقع اللفظة في التراكيب الكلامية، واختيارها دون غيرها حقق هذا الإعجاز البياني من جميع أوجهه.

ثم يبين الله تبارك وتعالى ما يتوعدهم به من العذاب ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فقد هيأ الله تبارك وتعالى للكافرين منهم عذاباً موصوفاً بالألم، بما يفيد التهويل والمبالغة في الوصف وشدته، وكذلك التهديد والتقريع بما صنعوا، وكذلك يكون في ذلك تحذير لأتباعهم، بأن عليهم لزوم الصراط المستقيم والإيمان برسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به. حيث كشف الله تبارك وتعالى فيما نَزَّل على نبيه صلى الله عليه وسلم حقائق عنهم، والتي لا يمكن لغيرهم أن يعرفها، مما يدل على أن هذا وحي من الله تعالى، وأن الذي أُرْسِل به هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك في هذا تحذير من مسلكهم، والأخذ بشيء من ذلك.

ثم يستثني تبارك وتعالى منهم ما تضمنته هذه الآية الكريمة ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فقد استفتحت الآية الكريمة بأداة الاستدراك ﴿لَّٰكِنِ﴾ لِيُثْبِت حكماً مخالفاً لما سبق من تعنت وتكبر أهل الكتاب في اتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فاستثنى سبحانه وتعالى من أهل الكتاب الراسخين في العلم، والراسخ هو الثابت ثباتاً متمكناً، والراسخ في العلم المتحقق به، الذي لا يَعْرِضُهُ شُبهة[١] قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أُنزلت في عبد الله بن سلام، وثعلبه بن سعيه، وأسد بن سعيه، وأسد بن عبيد، الذين دخلوا في الإسلام وصدَّقوا بما أرسل الله به محمد صلى الله عليه وسلم[٢] مما يبين فضل العلم

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (١٩٥)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٩٨/١)

على صاحبه وعلى غيره، بما يقدمه ويبينه للناس من الحق، وأن العلم قوة وثبات أمام الأهواء، وأمام الضلال وعند افتراق الناس، فيتحقق به أهمية لزوم العلماء الراسخين في العلم، واقتفاء أثرهم، ومغالبة الهوى الشخصي والذاتي بهم، ومقارعة الباطل بهم. وأنهم محل التقدير والإجلال لما معهم من العلم.

وقد جعلهم الله تبارك وتعالى متقدمين على أهل الإيمان، لأنهم جمعوا مع الإيمان العلم، حيث ثَنَّى تبارك وتعالى بالمؤمنين في هذا الاستثناء ﴿ لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ والمؤمنون تشمل كل من آمن من المهاجرين والأنصار وغيرهم، ويدخل معهم الذين دخلوا في الإسلام من أهل الكتاب، فموقع ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ جاء بعد كلمة ﴿مِنۡهُمۡ ﴾ التي عينت أن المقصود بالراسخين في العلم من أهل الكتاب. وقد ذكر الزمخشري رحمه الله تعالى عن دلالة ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ يعني المؤمنين منهم، أو المؤمنون من المهاجرين والأنصار[١] وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا استثناء لمؤمني أهل الكتاب، فأما الراسخون فهم الثابتون في العلم[٢] فاستوعبت الدلالتين: مَن آمن منهم، ومن آمن من غيرهم، الذين هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذه من بلاغة موقع الكلمة من الجملة التي استوعبت المقصود والواقع. فالمقصود أهل الكتاب، والواقع المؤمنون من المهاجرين والأنصار وغيرهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فهؤلاء الراسخون في العلم والمؤمنون فإنهم يؤمنون بما أنزل إليك من القرآن والسنة، ويؤمنون بالكتب التي أنزلت من قبل، ويؤدون الصلاة في أوقاتها، ويُخرجون الزكاة، ويؤمنون بالله وبالبعث والجزاء. ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾ فأولئك سيعطيهم الله تبارك وتعالى ثواباً عظيماً. وكلمة ﴿أَجۡرًا ﴾ جاءت عامة، لتشمل ما لا يدركه الموعود بها من عظيم الثواب وأنواعه، وقد وُصِف هذا الثواب بالعظمة ﴿عَظِيمًا ﴾ ليفيد التفخيم والتعظيم، لهذا الأجر، وأنه ليس بالأجر

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٦٠٣/١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٢١/٢)

البسيط ولا الهين، بل هو متعاظم في نوعه وحجمه وقدره، وهي الجنة وما لا يعلمه إلا الله تعالى مما أعده فيها.

وفي ترتيب الصلاة بعد الإيمان ما يدل على المدح والثناء، وعلى أهمية الصلاة إذ جاءت تالية للإيمان، كما يدل تقدم الإيمان على أن العبادات قائمة على الإيمان. كما أن في لفظة ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ما يدل على حفظ المداومة عليها، ووَفَّى بها في هيئتها الكاملة. أي: ويحافظوا على أداء الصلوات المفروضة بجميع شروطها وواجباتها وأركانها، كما يؤديها الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد ورد أداء الصلاة بدلالة الإقامة ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لتفيد المحافظة على الصلاة، والمداومة على أدائها، وإقامة جميع ما يتعلق بها، فإن دلالة ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾ تستجمع إخلاص القلب لها بالنية والخشوع، وكذلك قيام الجوارح بالنهوض لها، والعزم، والامتثال، والنشاط في أدائها على سبيل الاستمرار الذي لا ينقطع، ولا يتوقف. كما أفادت دلالة ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾ على المداومة المستمرة. مما يبين المحافظة على الاستمرار في إقامتها حتى يموت المؤمن. وهذا التوجيه الكريم يدل على أنها شرط لصحة الإيمان. كما هو تحريض على المداومة والاستمرار، ليعطي دلالة المبالغة في ذلك. وعدم الانقطاع، أو التراخي والتهاون.

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ
وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا
(١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ
تَكْلِيمًا (١٦٤) رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ
بِٱللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ ﴾

ثم هذا جواب لأهل الكتاب الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ فشأنه صلى الله عليه وسلم في الوحي كشأن من سبقه من الأنبياء الذين ذكرهم الله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ والزبور هو الكتاب الذي أُوتيه داود عليه السلام. ثم بين تبارك وتعالى أن هناك رسلاً ذكرناهم لك قبل هذه الآية مثل: صالح وشعيب وهود ولوط وزكريا عليهم السلام ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ هذا البيان.

ورُسُلاً لم يقصصهم الله تعالى لحكمة أرادها الله تعالى ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ ثم ذكر تبارك وتعالى تكليمه لموسى عليه الصلاة والسلام ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ مما يفيد إظهار التشريف بذكره وتكليمه عليه الصلاة والسلام. وكذلك تخصيصه بذلك ليتناسب أيضاً مع شأن موضوع ومقام الآيات المتعلقة باليهود. كما أن في قوله تعالى ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ إثبات الكلام لله تعالى، وأنه خاطب عبده ورسوله موسى عليه الصلاة والسلام. كما أن دلالة ﴿تَكْلِيمًا ﴾ مصدر يفيد التأكيد. أي: تأكيد الكلام من الله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام.

ثم بين الله تعالى المهام الموكلة لِرُسُله، وما يلزم الْمُرْسَل إليهم من وجوب الاتباع ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ فهم رُسُل أرسلهم الله تعالى إلى عباده، مبشرين بثوابه لمن أطاع، واتبع

أمره تبارك وتعالى، وصَدَّق الرسل، وكذلك فإن هؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام منذرين من عقاب الله تعالى لمن عصاه، وكذب بالرسل، ولم يتبع أمره تبارك وتعالى. وبهذا قد اجتمعت وسيلتي الترغيب والترهيب التي بهما يكون التوازن الدعوي والإرشاد للحق، وهما عاملان مؤثران لمن أراد الخير لنفسه. ثم أظهر وأوجد عَزَّ وجل العقاب بعد هذا الإنذار ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ ﴾ أي: لئلا يحتج أحدٌ في ترك التوحيد والطاعة بعدم إرسال الرسل. فيتحمل الإنسان تبعات التولي عن دعوة الله تعالى إليهم. مما يفيد أن الله تعالى لا يظلم أحداً من العباد، ولا أراد بالرسل إلا هدايتهم للخير في الدنيا، وليصِلُوا بذلك إلى جناته في الآخرة. فهو عزيز حكيم سبحانه وتعالى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ فربكم عزيز عنهم، ولا حاجة له بهم، ولم يزل عزيزاً، ذا عزة في انتقامه ممن عصى وتكبر على ما جاءه من الحق، وهو عزيز فلا مغالب له، ولا يغالبه مغالب، فقد استفرد بالعزة سبحانه وتعالى. وهو حكيم في تدبيره.

فقد أعطت دلالة ﴿عَزِيزًا ﴾ أنه تبارك وتعالى العزيز، الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة. كما أعطت دلالة ﴿حَكِيمًا ﴾ أنه سبحانه وتعالى موصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، مع كمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. كما أن الحكيم يعطي دلالة الإحكام والإتقان في التصرف والتقدير. فربكم حكيم فيما يأمر به، وينهى عنه. فإن أمره ونهيه عن علم وعزة وحكمة، مما يستوجب الأخذ والتمسك به. وبالتالي فإن من كان له كمال العزة، وجبت طاعته الخوف من عذابه ونكايته بمن يعصيه.

وقد ورد العزيز والحكيم ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ بصيغة المبالغة التي تفيد امتداد المعنى إلى أقصى غايته وكماله. كما استطلع البيان وابتدأ بحرف ﴿وَكَانَ ﴾ لإفادة: أن الله تعالى عزيز حكيم منذ الأزل، فهما صفتان عظيمتان جليلتان لله عَزَّ في علاه. ومن فوائد دلالة ﴿وَكَانَ ﴾ أنها تعطي اتصال الزمن من غير انقطاع بعلمه وحكمته تبارك وتعالى، لتعطي معنى الإخبار عن الصفة الدائمة المستمرة التي لا تنقطع، سابقاً ولاحقاً.

ثم يعضد الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بشهادته له بما أنزله عليه، وكذلك شهادة الملائكة بأنه نبي الله ورسوله إلى الناس صلى الله عليه وسلم، فقال جَلَّ جلاله ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ وفي ابتداء الآية بمطلع أداة الاستدراك ﴿ لَّٰكِنِ ﴾ لِيُثْبِت حكماً مخالفاً لما سبق من تعنت وتكبر أهل الكتاب في اتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وعدم الشهادة بما يعرفون في كتبهم من نبوته عليه الصلاة والسلام. فأفاد هذا الاستدراك أن فيه جواب ورد على من أنكر رسالته صلى الله عليه وسلم، وخاصة أهل الكتاب، فإذا كان أهل الكتاب لم يشهدوا بما عندهم من الحق عن نبوتك في كتبهم، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فإن الله يشهد لك بنبوتك ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ﴾ وفي هذا تعظيم لشأن النبي صلى الله عليه وسلم، وتزكية له عليه الصلاة والسلام، وتشريف عظيم من الله تعالى له ولِمَا جاء به صلى الله عليه وسلم.

وقال الله تعالى ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ أي فأنزله إليك بعلم منه سبحانه وتعالى. ثم ثنى الله تبارك وتعالى بشهادة الملائكة الكرام ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ أي: أن الملائكة يشهدون أنك نبي الله تعالى ورسوله للناس، وأن الله تعالى أنزل القرآن العظيم عليك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم، فيشهدون بنبوتك وبصدقك، وبصدق ما جاءك، وبما أوحَى إليك ربك. وفي هذا مزيد تعظيم وتعضيد لأمر النبي صلى الله عليه وسلم، فقد شهد من هو خير ممن أنكر رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، فقد شهدت الملائكة الأخيار الذين لا يعصون الله ما أمرهم، وفي هذا توبيخ ما بقي الدهر لمن أنكر رسالة النبي صلى الله عليه وسلم.

ثم قال الله تعالى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ فتكفي شهادة الله تعالى بذلك، فتكون شهادة الملائكة من باب التكريم والتعظيم لأمر النبي صلى الله عليه وسلم، لأن شهادة الأخيار مفخرة للمشهود له والمشهود عليه. فالمشهود له هو النبي صلى الله عليه وسلم، والمشهود عليه هو بعثته وما جاء به عن الله تعالى. ولأن شهادة الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم كافية بما منحه من المعجزات الدالة على صحة النبوة.

ثم يبين الحق عَزَّ وجل مقدار ضلال الكافرين ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ فإن الذين كفروا بما يجب من الإيمان، وجحدوا هذه النبوة وهذه الرسالة المحمدية، وصدوا الناس عن دين الله تعالى قد ضلوا بما فعلوا عن الحق. فهؤلاء ارتكبوا أمرين فادحين: الأول: هو كفرهم وضلالتهم، والثاني: تماديهم في السعي لإضلال الناس عن سبيل الله وهديه. وقد سمى الله تبارك وتعالى دينه ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ لأنه الطريق الموصل إلى ما أراد الله عَزَّ وجل، والطريق الذي يرضاه الله تعالى، فيكون السائر على منهج الله تعالى مستهدي بنور الله عَزَّ وجل للوصول إليه في أمن وأمان.

فهؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب وغيرهم، بسبب بعدهم وصدودهم عن سبيل الله تعالى، مع تحريض الناس على البعد عن سبيل الله تعالى، قد وقعوا وسلكوا مجاهل الطرق، لأن لفظة ﴿ضَلُّواْ ﴾ تدل على التيهان، والعدول عن الطريق الصحيح المستقيم، المضاد للهداية، وفي دخول حرف ﴿قَدۡ ﴾ على ﴿ضَلُّواْ ﴾ في قوله تعالى ﴿قَدۡ ضَلُّواْ ﴾ما يفيد التحقق، أي: قد تحقق هذا الضلال بتوغلهم في الكفر، ثم بين الله تعالى مزيداً من توغلهم في هذا الضلال وخطورته، وذلك بوصفه ﴿ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ أي قد تناهى ضلالهم في الْبُعد والتيه عن الحق، بحيث لا يُدْرَك منتهاه، فبعدوا عن الحق بعداً عظيماً شاسعاً، فأوغلوا في الكفر، حتى بعدوا به عن الحق. فشملت ﴿ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ بُعْد العمق والتوغل في الضلال، الذي بَعُدُوا به عن الهدى. وهذه من جماليات الوصف ودقته، مما يدل على مبالغتهم في الضلال. فنسأل الله تعالى التوفيق والهداية والثبات. وهذا البيان البلاغي الدقيق يفيد أيضاً التحذير منهم ومن مسلكهم، وأخذ الحيطة والحذر، وأن من الناس من يتمادى في ضلاله، وبُعْدِه عن الهدى والهداية.

ثم كرر الله تعالى بيان كفرهم وضلالهم مرة أخرى للتأكيد الذي يفيد المبالغة في وصف حال كفرهم وضلالهم. ثم تلاه ما يستحقونه من العذاب وعدم المغفرة. فقال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ

أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ ﴾ إن هؤلاء الذين توغلوا في الكفر بعنادهم؛ لن يغفر الله تعالى لهم فيما وقعوا فيه من الكفر، ولن يهديهم سبيلاً للخير.

وقد أظهر الله تعالى تكرار ذكر كفرهم وضلالهم في هذه الآية الكريمة للمبالغة وتهويل كفرهم وضلالهم، ولإفادة التحذير من مسلكهم. فهؤلاء الذين كفروا بما يجب من الإيمان، وجحدوا هذه النبوة وهذه الرسالة المحمدية، وظلموا أنفسهم، وظلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتكذيبه، وظلموا غيرهم بصدهم عن سبيل الله تعالى ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴾ لن يغفر الله تعالى لهم فيما وقعوا فيه، ولن يهديهم سبيلاً يُوصلهم للخير ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ فبسبب أنهم حادوا وكذبوا الرسول صلى الله عليه وسلم، وكفروا بالآيات، فلم يبق لهم إلا طريق جهنم، الذي سيخلدون فيها، ولا خروج من عذابها.

ثم بين الحق سبحانه وتعالى سهولة عذابهم ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ فهذا الجزاء سهل ويسير على الله تعالى، فسبحان من لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، مما يفيد أن في هذا تحذير لهم ولغيرهم من طريق الكفر وضلاله، فإنه طريق إلى جهنم وبئس المصير. وهذا التحذير هو من رحمة الله تعالى بالعباد، إذ ينذرهم، ويحذرهم، ويرشدهم للتوبة والاستقامة، ولكن البعض يأخذه الاستكبار والعناد والحسد.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾

افتتح الله جَلَّ جلاله هذه الآية بندائه لجميع خلقه من الناس ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ فخاطبهم بياء النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ ليسترعي أسماعهم، ويلفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيستدعي بأسلوب النداء الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب، مما يدل على أهمية ما ناداهم إليه تبارك وتعالى من البيان والانذار، وما يجب عليهم حيال ما ناداهم إليه، وأن يأخذوه بانتباه واهتمام. ثم يبين عَزَّ وجل ما ناداهم إليه، فقال جَلَّ جلاله ﴿ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ فقد جاءكم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بدين الهدى والحق والصدق من ربكم. وفي هذا إثبات نبوته صلى الله عليه وسلم، ورسالته، وأن هذه الرسالة هي الدين الحق، وهي من ربكم تبارك وتعالى.

وقد أورد سبحانه وتعالى البيان بحرف ﴿ قَدْ ﴾ الذي يفيد التأكيد والتحقيق. كما أورد سبحانه وتعالى المجيء بالفعل الماضي ﴿ قَدْ جَآءَكُمُ ﴾ لتأكيد تحقق المجيء. فقد وصلكم الحق الذي لا مراء ولا جدال فيه، لوضوحه بالأدلة والحجج والبراهين. ﴿ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ فامنوا بما جاءكم به، فهو خير لكم.

ويستلزم هذا الإيمان تصديقه صلى الله عليه وسلم ولزوم طاعته، وهو الخيار الأول، المتضمن للخيرية وكمالها في الدنيا والآخرة، وأما الخيار الثاني: فهو المضاد للإيمان ﴿ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ فإن كفرتم وتوليتم عَمَّا جاءكم من الحق، فإن الله تعالى في غنى عن إيمانكم، فإن له ما في السموات والأرض، فلا ينتفع بإيمانكم، ولا يضره كفركم، فالنفع لكم، والضرر عليكم، فما زال الله تعالى عليم بكم وبكل شيء، وحكيم في تشريعه وتقديره.

وقد ذكر الله علمه وحكمته على وجه العموم لا على وجه الخصوص ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فهو عليم بكل شيء دون استثناء، بما فيه علمه بكم، وكذلك حكيم في كل شيء، بما فيه ما جاءكم من دين الحق، وبما اختار من رسول لرسالته.

ثم خص أهل الكتاب بندائه سبحانه وتعالى لهم، فقال عَزَّ وجل ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ناهياً لهم عن الغلو ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ والغلو: وهو التجاوز في الحد، والمبالغة الخارجة والمتجاوزة للحقيقة، وقد تجاوز النصارى الحد في عيسى، وبالغوا حتى نقلوه من مقام النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله تعالى، فيعبدونه كما يعبد العبد ربه تبارك وتعالى. بل غلوا في أتباعهم وأشياعهم، حتى ادَّعَوا فيهم العصمة، واتبعوهم فيما قالوه، سواء كان حقاً أو باطلا[١] وكذلك جعلوه ابناً لله تعالى. مما يفيد خطورة الغلو في الدين، وما يؤدي إليه من الانحراف العقدي والتعبدي. فيأمرهم الله تعالى أن لا يكذبوا عليه سبحانه وتعالى ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ فلا تزعموا وتتقولوا شيئاً على ربكم بأنه من الدين، وتنسبوه إلى الله تعالى كذباً وزوراً، فلا تنسبوا له إلا الحق، وهذا يستلزم أن لا ينسبوا له سبحانه وتعالى خلاف الحق الذي أنزله عليهم، حيث نسبوا له الصاحبة والولد.

وفي دلالة قوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ نهياً عاماً وقاطعاً عن كل قول عليه سبحانه وتعالى، باستثناء قول الحق، وقول الحق هو ما جاء به عيسى عليه الصلاة والسلام، فنهى عن عموم القول عليه جَلَّ في علاه، وحصر القول عليه سبحانه وتعالى في الحق فقط، الذي هو الدين الذي جاء به عيسى عليه الصلاة والسلام. فلا يقولوا بخلاف ذلك. وفي هذا الحصر ما يفيد أهمية التوقي والتثبت من القول في الدين إلا بعلم.

ثم يتدرج الخطاب الكريم من الله العزيز الحكيم إلى بيان حقيقة عيسى عليه السلام، وما يجب عليهم في حقه، فقال عَزَّ وجل ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٦٠٣)

أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ فبدأ البيان بأداة الحصر ﴿إِنَّمَا ﴾ لتفيد حصر صفة عيسى عن التجاوز في الوصف إلى أنه ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ وبالتالي تنتفي عنه الألوهية، لأنه مُرْسَل من الله، فكيف يكون غير ذلك، وكذلك من صفته عليه الصلاة والسلام أنه ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ حيث خلقه الله بكلمته **(كن)** فأوصلها إلى مريم، فبالكلمة عَزَّ وجل صار عيسى من غير أب. ليكون آية معجزة.

وأن عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ أي: أن روحه من الأرواح التي خلقها الله تعالى. وقد نسبها الله تعالى لنفسه، تشريفاً وتكريماً وخصوصية، لأنها وصلت إلى مريم عليها السلام من غير أن تكون نطفة من أب، فقد أمر الله تعالى جبريل، فنفخ في جيبها بإذن الله تعالى. فيلزم ويجب أن لا تتجاوزوا في وصف عيسى عليه الصلاة والسلام خلاف الحقيقية. ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ وهذا أمر بأن يؤمنوا بالله وحده لا شريك له، فينتفي بهذا التوحيد والإفراد لله تعالى نسبة الولد والصاحبة. فلا إله إلا الله. وكذلك آمنوا بجميع الرُّسُل، لأنه جاء الأمر بصيغة الجمع ﴿وَرُسُلِهِۦ ﴾ ومنهم عيسى عليه السلام بأنه رسول كغيره مِن الرُّسُل، وآمنوا بمحمد فإنه رسول من الرسل، صلى الله عليه وسلم.

ثم نهاهم عن ما يضاد هذا الأمر ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ﴾ فلا تجعلوا عيسى وأمه شريكين مع الله تعالى، فتقولوا: ثلاثة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا،. ثم أمرهم بالانتهاء عن هذا القول وهذا الافتراء ﴿ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ فالانتهاء عن هذا القول، وعن هذا الاعتقاد هو الخير لكم، مما يفيد أن الشر فيما قلتم وادعيتم من التثليث.

وفي هذا الأسلوب تحذير بعد تعليم، وبيان للخير الذي يرغب فيه من يطلبُه. ثم تلى ذلك بيان حقيقة وحدانيته عَزَّ في علاه، فقال جَلَّ جلاله ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ .فإنما ربكم الله واحد لا شريك له. فبدأ البيان بأداة الحصر ﴿إِنَّمَا ﴾ لحصر الألوهية فيه سبحانه وتعالى، بما ينفي

بها كل شريك، وكل أُلُهية يمنحها الناس لغيره عَزَّ وجل. فإنما هو إله واحد لا شريك له سبحانه وتعالى، تنزه عن كل ما لا يليق بوحدانيته وذاته العظيمة،

ثم نزه ذاته الكريمة جَلَّ جلاله، فقال عَزَّ وجل ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ تنزه عن أن يكون له ولد سبحانه وتعالى، وهو الغني عن كل مخلوق، وإنما المخلوق هو الذي يحتاج الولد، فقياس الخالق على المخلوق انتكاس في التفكير، إذ كيف يقاس المخلوق على من خلقه؟. فكيف يكون له ولد، وهو الذي له ملك السموات والأرض ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ فإنما القياس الصحيح والمنطق السليم هو الذي يقتضي تنزيه ربنا تبارك وتعالى عن الولد. فمن خلق وملك الكون كله، فهو غني عن كل شيء، فكيف يكون له ولد؟ سبحانه وتعالى عَمَّا يقولون علواً كبيراً.

ثم يختم الله تعالى الآية العظيمة بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾ فكفى به حافظاً للسموات والأرض وما فيهن، مما يدل على غناه التام والمطلق. وفي هذا الإتمام للآية الكريمة بالتنزيه والتعظيم له عَزَّ وجل ما يُرشد الْمُخَاطَب إلى المعرفة بالله جَلَّ ثناؤه، وإلى التوكل عليه وحده لا شريك له. فهو الذي به الاستغناء عَمَّن سواه، وهو الذي يكفي من توكل عليه، وهذه ليست لأحد إلا له وحده لا شريك له، فهو الذي إذا توكل أمر مخلوق كفاه من كل وجه. بينما كفاية المخلوقين قاصرة على ما يُمَكِّنُهُم اللهُ تعالى فيه فقط. فاللهم إني توكلت عليك وكفى بك وكيلا وحسيبا.

ثم يبين الله تعالى حال عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ ﴾ فإن عيسى عليه الصلاة والسلام لم يستنكف، والاستنكاف التكبر والأنفة والامتناع، ودلالة ﴿ لَّن ﴾ حرف يفيد النفي، فتفيد نفي التكبر والأنفة والتَّمَنّع من عيسى عليه الصلاة والسلام من أن يكون عبداً لله تعالى. مما يفيد أنه إذا كان هذا حال مَن تُؤَلهونه من الخضوع والتعبد لله رب العالمين، فكيف تجعلون منه إلهاً ومعبوداً؟ وفي دلالة نفي الاستنكاف عن عيسى عليه الصلاة والسلام يجمع به كل أوجه الخضوع والتذلل والتعبد والخشوع لله تعالى، فقد اتصف

عليه الصلاة والسلام بما يجب أن يكون عليه العبد الْمُرْسَل إلى مَنْ أُرسِل إليهم. بل إن الملائكة التي منحها الله تعالى من القدرات ما تفوق به على البشر، لم تستنكف عن عبادة خالقها والخضوع له، حيث عطف الله تعالى طاعتهم وامتثالهم على امتثال عيسى عليه الصلاة والسلام، فقال تبارك وتعالى ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ والملائكة المقربون هم أقربهم إلى السماء الثانية[١] وقال ابن عباس: هم حملت العرش[٢] والله تعالى أعلم.

ثم يتوعد الله عَزَّ وجل من يستنكف ويتكبر عن عبادته والإذعان له، فقال جَلَّ جلاله ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ فإن من يتعاظم ويتعظم في نفسه عن عبادة ربه، ويأنف من التذلل والخضوع له بالطاعة من الخلق، ويستكبر عن ذلك، فسيبعثهم يوم القيامة جميعاً، فيجمعهم لذلك اليوم المهول. وفي هذا تهديد ووعيد للمستنكف عن عبادة ربه جَلَّ جلاله. بأن مرجعه ومآله إلى الله عَزَّ وجل. مما يبين أن الكبر والاستنكاف حاجب يحجب الإنسان عن الحق، إلى درجة أنه يحرمه طاعة ربه سبحانه وتعالى، ومن ثَمَّ يُحْرَم الجنة، وينال العذاب. اللهم أجرنا من الكبر والاستنكاف على الحق، واجعلنا طائعين مخبتين لك يا رب العالمين.

ثم بين تبارك وتعالى في المقابل مقام الخاضعين الطائعين لله تعالى ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ فالذين حققوا الإيمان وعملوا بما أمرهم الله تعالى به فسوف يستوفون ثوابهم كاملاً غير منقوص، بل ويزيدهم من فضله وكريم عطائه سبحانه وتعالى. وهذه ثمرة الطاعة لله تعالى بما أمر. ثم كرر سبحانه وتعالى جزاء المستنكفين مرة أخرى ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ وفي هذا توكيد لجزاء أولئك المستنكفين الذين امتنعوا عن طاعة الله تعالى وعبادته، واستكبروا عن ذلك، فإن مصيرهم العذاب الأليم ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧/٧٠٨)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٢٢٧)

وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ولن يجدوا أحدا يواليهم وينصرهم فيمنع عنهم العذاب ﴿ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ فهناك انتفاء لكل نصير، ولكل ولي إلا ولاية الله ونصرته سبحانه وتعالى، وجملة ﴿ مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ تبين أن كل شيء وكل أحد هو دون الله تعالى، فهو أدنى وأضعف، وعاجز أمام الله تعالى، وبالتالي لا يمكن لهم أن ينتفعوا ويستعينوا بعاجز، ليخلصهم ويفكهم مما حل بهم. وفي هذا تهديد وتحذير لكل مستكبر متكبر. وكذلك تحذير لكل أحد من الاستنكاف والكبر. وهذا البيان هو من رحمة الله تعالى بعباده، إذ يبين ويوضح لهم الحق والحقائق بأساليب متنوعه، ويرغبهم في طاعته ومغفرة ذنوبهم السابقة إن أطاعوه، ولكن كثيراً من الناس حق عليه العذاب بسبب طغيانه واستكباره.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾ يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿١٧٦﴾ ﴾

لقد اسْتُفْتِحَت سورة النساء بنداء الله تعالى للناس جميعاً﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ وهذه آخر آية بياء النداء في هذه السورة، فكانت كذلك نداء للناس جميعاً ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورًا مُّبِينًا ﴾ فافتتح الله جَلَّ جلاله هذه الآية بندائه لجميع خلقه من الناس ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ فخاطبهم بياء النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ ليسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فهذا الاستدعاء بأسلوب النداء هو لتصغى إليه الآذان، ولشد العقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب، مما يدل على أهمية ما ناداهم إليه ربهم تبارك وتعالى من البيان والانذار، وما يجب عليهم حيال ما ناداهم إليه، وأن يأخذوه بانتباه واهتمام وقوة وعزيمة صادقة.

ثم يبين عَزَّ وجل ما ناداهم إليه ﴿قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ قال السعدي رحمه الله تعالى: أي حجج قاطعة على الحق، تُبَيِّنُهُ وتوضحه، وهذا يشمل الأدلة العقلية والنقلية. وفي قوله تعالى ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ ما يدل على شرف هذا البرهان وعظمته، حيث كان من ربكم، الذي رباكم التربية الدينية والدنيوية. فمن تربيته لكم أن أوصل إليكم البينات، ليهديكم بها إلى الصراط المستقيم، والوصول إلى جنات النعيم ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾ وهو هذا القرآن العظيم، الذي قد اشتمل على علوم الأولين والآخرين، والأخبار الصادقة النافعة، والأمر بكل عدل وإحسان وخير، والنهي عن كل ظلم وشر(١) وفي وصفه بالبرهان ما يؤكد ويبين قوة أدلته وحججه وبراهينه، بل وأسند هذا البرهان له تبارك وتعالى ﴿قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ ليفيد عظيم مصدره الذي يستوجب الأخذ به بقوة من الالتزام والحمد والشكر على هذه النعمة الربانية.

ثم بين تبارك وتعالى حال المؤمنين وثوابهم ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾ فالذين صَدَّقُوا الله، وأقروا بوحدانيته، وما يستلزمه ذلك من الإقرار بما بُعث به نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وتمسكوا بالنور المبين، الذي هو القرآن الحكيم ﴿فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ ﴾ فسوف تنالهم رحمته سبحانه وتعالى، والتي تنجيهم من عقابه، وتحقق لهم ثوابه وجناته(٢) وأيضاً سيتفضل عليهم بأكثر مما يستحقون، لأن الفضل زيادة في العطاء عَمَّا يستحق الْمُعْطَى. وهذا فيض من كرم الله تعالى.
ثم ذكر تبارك وتعالى توفيقه لهم ﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾ فيوفقهم لإصابة فضله، ويوفقهم لإصابة الطريق المستقيم الذي يتحقق به إقامة دين الله تعالى، فيسددهم لسلوك منهج من أنعم عليهم من أهل طاعته، فتتحقق لهم الهداية لصراط الله المستقيم الذي هو دينه، وهو الإسلام.

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤٤٦/١)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧١٢/٧)

ثم انتقل السياق الكريم إلى ختام سورة النساء بآية المواريث ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ قال الجمهور، وقضاء الصديق رضي الله عنه في الكلالة: أنه الذي لا ولد له ولا والد، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ويدل على ذلك قوله ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ) ولو كان معها أب لم ترث شيئاً، لأنه يحجبها بالإجماع، فدل على أنه لا ولد له بنص القرآن، ولا والد بالنص عند التأمل أيضاً، لأن الأخت لا يفرض لها النصف مع الوالد، بل ليس لها ميراث بالكلية[١]

ومن فوائد هذا الاجتهاد، ما صنعته هذه النصوص من القرآن والسنة في تفتيق عقول الفقهاء من عهد الصحابة رضي الله عنهم حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها. إذ يتمعنون ويستنتجون منها ما يحتاجون معرفته، وهذه من عظائم هذا الدين في تطوير العقل البشري، فضلاً عن السلوك والأخلاق.

ثم من جليل الفوائد في هذه الآية الكريمة، عناية الله تعالى بسؤلات الصحابة التي امتد أثر نعمتها ونعمة الإجابة عليها ما بقيت الدنيا، وكذلك عناية واهتمام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أشكل عليهم، وحرصهم على السؤال، لإصابة الحق من مراد الله تعالى. وكذلك من الفوائد دقة التفصيل في الميراث، ومنها ميراث الكلالة.

وقد بين مطلع الآية الكريمة أن هناك من سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم مستفتياً في الكلالة، وهو الميت يموت، وليس له ولد صلب، ولا ولد ابن، ولا أب، ولا جد. فقال اله تعالى ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ﴾ أي : مات ﴿لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ يريد: ولا والد : فاكتفى بذكر أحدهما، ويدل

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٦٠٧/١)

على المحذوف أن الفتيا في الكلالة، وهي من ليس له ولد ولا والد[١] قوله تعالى ﴿وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ ﴾ شقيقة، أو لأب، لا لأم ﴿فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَ ﴾ عند انفرادها، من مملوكات أخيها ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ ﴾ أي الشقيق، أو الذي للأب. أي يستغرق: ميراث الأخت إذا لم يكن لها ولد ولا والد، وهذا هو الأخ من الأب و الأم، أو من الأب ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ ﴾ يعني: أختين. فما فوق ﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ﴾

وسُئل الأخفش: ما فائدة قوله ﴿ٱثۡنَتَيۡنِ ﴾ و ﴿كَانَتَا ﴾ لا يُفَسَّر إلا باثنتين؟ فقال: أفادت العدد العاري عن الصفة، لأنه يجوز في ﴿كَانَتَا ﴾ صغيرتين، أو حُرّتين، أو صالحتين، أو طالحتين، فلما قال: ﴿ٱثۡنَتَيۡنِ ﴾ فإذاً اطلاق العدد على أي وصف كانتا عليه ﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ ﴾ من تركة أخيهما الميت[٢] ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ ﴾ أي: اجتمع الذكور مع الأخوة لغير أم، مع الإناث ﴿فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ ﴾ فيسقط فرض الإناث، ويعصبهن إخوتهن.[٣] ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ ﴾ أي: يفرض لكم فرائضه، ويحد لكم حدوده، ويوضح لكم شرائعه[٤] فيبين لكم أحكامه التي تحتاجونها، ويوضحها، ويشرحها لكم، فضلاً منه وإحساناً، لكي تهتدوا ببيانه، وتعملوا بأحكامه ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ ﴾ حتى لا تضلوا عن الصراط المستقيم، بسبب جهلكم، وعدم علمكم.[٥] ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴾ أي: هو عالم بعواقب الأمور ومصالحها، وما فيها من الخير لعباده، وما يستحقه كل واحد من القرابات، بحسب

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٢٢٨-٢٢٩)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٢٢٩)

(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٤٤٨)

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٦٠٧)

(٥) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٤٤٨)

قربه من المتوفى.[١] فهو عالم بالغيب والشهادة، والأمور الماضية والمستقبلة، ويعلم حاجتكم إلى بيانه، وتعليمه عَزَّ وجل، فيعلمكم من علمه الذي ينفعكم على الدوام، في جميع الأزمنة والأمكنة[٢] وهذه نعمة عظيمة أن تكفل الله تعالى بها، فلو تُركت للناس لبغى بعضهم على بعض، وذلك لِمَا يعتري النفس من محبة المال. فلله الحمد والشكر.

تم بحمد الله إتمام سورة النساء، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٦٠٧-٦٠٨)

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٤٤٨)